رواية

جاك لندن

ذُوقُ الناب الأبيض

ترجمة
دعاء كريم

الأفق

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:

كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

ذو الناب الأبيض

جاك لندن

ترجمة: دعاء كريم

عن الرواية..

رواية جاك لندن التي تحوّلت إلى عشرات الأعمال السينمائية والتلفزيونية، درس أدبيّ يسبر أغوار العلاقة بين الإنسان والطبيعة عموماً وبينه وبين الحيوان خاصة. تدور أحداث الرواية من وجهة نظر كلب ـ ذئب برّي يروي رحلة عيشه في البرية ثم مراحل تدجينه، وخلال هذه الرحلة الشاقة يقدّم لنا جاك لندن رؤية الحيوان لنا نحن بني البشر، وطريقة تعاملها مع قضايا معقدة كالأخلاق والعنف. قارئ هذه الرواية سيجد أن الرهانات الأخلاقية الكبرى التي تسرد هنا على لسان حيوان لا تختلف كثيراً عن الرهانات الإنسانية، لكننا نغفل عن الانتباه إليها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الأول

- 1 -

مسار الفريسة

بدت غابات التنوب في قنوطٍ على جانبي الممر المائي. فقد عرّت الرياح الأشجار من غطائها الجليدي الأبيض في هبوبها الأخير حتى بدت الأشجار مائلة نحو بعضها الآخر منذرة بالشؤم عند حلول الظلام. وسكن صمتٌ مطبقٌ المكان. وبدت الأرض مهجورة كما لو أنها ميتة لدرجة إلا تعرف معنى الحزن.

تردد صدى ضحكة في الأجواء، ضحكة مريعة أكثر من أي حزن، ضحكة كئيبة كابتسامة أبي الهول، ضحكة باردة كالصقيع تنذر بالنحس المحتوم. كانت تلك الحكمة اللانهائية المستبدة وهي تضحك في وجه عبثية الحياة وسعيها الحثيث. كانت تلك البرية، برية الشمال الوحشية المتجمدة القلب.

ومع ذلك قاومت حياة في مكان ما من الأرض حيث كدّت مجموعة من الكلاب الذئبية في العمل قرب الممر المائي المتجمد بينما يغطي الصقيع فروها الخشن وتتجمد أنفاسها في الهواء فور أن تنفذها برغوٍ من البخار فتتجمع على شعرها وأجسادها متحولة لبلورات جليدية.

ربطت الكلاب بضفيرة جلدية وربطت الضفيرة بدورها بمزلاجٍ يُجر خلفها. لم يكن للمزلاج عجلات. وقد صنع من لحاء الشجر القاسي ليستقر بكامل سطحه على الثلج. كما كانت مقدمته محنية نحو الأعلى كلفافة إلا تجرف الثلج الطري الذي يهرع أمامها على الطريق كموج عتيّ.

رُبط صندوق طويل مستطيل الشكل بإحكام على المزلاج. إضافة لأشياء أخرى بجانبه - أغطية وفأس وإناء قهوة وقدر طبخ - لكن الصندوق احتل الجزء الأكبر من المزلاج.

سار أمام الكلاب رجل يرتدي حذاء ثلجٍ واسعٍ. وسار آخر خلف المزلاج. بينما رقد ثالث داخل الصندوق فقد انتهى المسيرٍ بالنسبة له. لقد أسرت الطبيعة ذاك الرجل وهزمته حتى لم يعد يقوى على المقاومة.

لا تحب البرية الحركة، والحياة بذاتها إهانة لها لأنها تتمثل في الحركة. فالبرية تهدف دائماً للقضاء على كل حركة. فتجمد الماء لمنعه من الوصول إلى البحر وتبرد الأشجار حتى تتجمد العصارة في أعماقها وتضيق الخناق على الإنسان أكثر من أي شيء آخر وتحطمه حتى يذعن لهيبتها فالإنسان أكثر أشكال الحياة حركة. إنه كائن دائم الآنتفاض ضد العقيدة التي تقر بأن كل ما يتحرك لابد وأن يتوقف عن الحركة يوما.

سار الرجلان أمام المزلاج وخلفه متشبثين بالحياة بإصرار. غطى الفراء والجلد المدبوغ جسديهما بينما غطت البلورات الناتجة عن تجمد أنفاسهما رموشهما

ووجنتيهما وشفاههما حتى لم يعد من السهل التعرف عليهما. بل أنهما بديا كشبحين متنكرين أو كائنين من عالم الأطياف يسيران في جنازة شبح ما.

برغم ذلك كانا رجلين في عالم من الوحدة والسخرية والصمت. مغامران سقيمان يسبران أغوار مغامرة هائلة مراهنان على نفسيهما في مواجهة عظمة هذا العالم البعيد والغريب والخال من الحياة كهاوية الفضاء.

سافر الرجلان دون أن ينبسا بكلمة محتفظين بطاقتهما للمسير.

فرض الصمت حضوره فحبس عقليهما كما يحبس الماء جسد الغواص في الأعماق وخنقهما تحت فساحته اللانهائية وقضائه المحتوم أملاً بأن تدمرهما العزلة التي تسكن عقليهما وتعصر منهما كل فخر وحماسة حتى يشعرا بضآلة حجمهما. فلا يعودا سوى هبات صغيرة تتحرك بقليل من الحكمة وسط الطبيعة الكبرى.

مرت ساعة ثم أخرى. بدأ ضوء النهار القصير يختفي تدريجياً حين علت صيحة في الأجواء وحلقت نحو الأعالي حتى وصلت أعلى نوتة ثم خفقت لفترة قبل أن تضمحل ببطء. لظن المرء أن روحاً ضائعة تنحب في المكان لولا تلك الضراوة الحزينة والترقب الجائع في النبرة.

أدار الرجل في الأمام رأسه حتى التقت عيناه بعيني رفيقه. ثم أومأ الرجلان لبعضهما مصغيين.

اخترقت صرخة أخرى الصمت بصخب حاد فعرف الرجلان مصدر الصوت. لقد كان قادماً من بقعة ما من حيث جاءا. ثم علت صرخة ثالثة مجيبة الصوتين وبدا أنها قادمة من يسار الصرخة الثانية.

قال الرجل في الأمام بصوت أجش:

- «إنها تلحق بنا يا بيل»

كان قد بذل جهداً ليتمكن من الحديث.

أجاب رفيقه:

- «اللحم نادر في هذه الأنحاء. لم أرَ أثراً لأرنب منذ أيام»

لم يتحدث الرجلان بعد ذلك لكنهما استمرا بالإصغاء للأصوات التي استمرت بالقدوم من خلفهما.

عند حلول الظلام حشد الرجلان كلابهما قرب أشجار الصنوبر على حافة الماء وخيّما لليلة.

قال بيل فجأة:

- «يبدو أنها تبقى على مقربة من المخيم يا هنري»

جلس هنري القرفصاء قرب النار ووضع قطعة ثلج في إناء القهوة قبل أن يضعه على النار. ثم أومأ برأسه وجلس على التابوت يتناول طعامه. حينها قال،

- «إنها تعرف مكان فريستها وتفضل أن تأكل أو تموت محاولة ذلك. هذه الكلاب حيوانات بالغة الحكمة»

هز بيل رأسه قائلاً:

- «آه لا أعلم»

نظر هنري إلى رفيقه متسائلاً:

- «هذه أول مرة أسمعك تشك بحكمتها»

مضغ الآخر حبات الفاصوليا التي يتناولها على مهل وقال:

- «هل لاحظت تصرف الكلاب حين حاولت إطعامها سابقاً؟»

- «لقد بدت أشد قلقاً من العادة»

- «كم كلباً لدينا يا هنري؟»

- «ستة»

- «حسناً..»

قال بيل وتوقف لهنيهة ليمنح كلماته التالية وقعاً أكبر. ثم أكمل:

«لقد أخرجت ستة سمكات اليوم لإطعام الكلاب ومنحت سمكة لكل كلب. لكن عندما عددت السمكات الباقية كان هناك سمكة ناقصة»

- «لدينا ستة كلاب فقط!»

- «لا أعتقد بأن لدينا سبعة كلاب. بل أن سبعة حيوانات قد تناولت الطعام»

توقف هنري عن تناول طعامه ونظر نحو الكلاب يعدها. ثم قال:

- «هناك ستة كلاب الآن»

أجاب بيل بثقة:

- «لقد هرب السابع راكضاً. أنني أخبرك برؤيتي لسبعة»

نظر هنري إلى رفيقه بشيء من الرثاء وقال:

- «كم سأسعد حين تنتهي هذه الرحلة»

سأل بيل:

- «ماذا تعني بقولك؟»

- «أعني أن التعب قد نال منك وربما بدأت بتخيل بعض الأمور»

- «لقد إعتقدت ذلك أيضاً. لكني رأيت آثار الحيوان على الثلج بعد أن هرب. ثم عددت الكلاب وكان هناك ستة منها. هل تريد رؤية الآثار؟ ما زالت هناك على

الأرض»

لم يجب هنري حتى فرغ من تناول طعامه. ثم تناول كوباً من القهوة ومسح فمه بقفا يده وقال:

- «هل تعتقد إذاً..»

قاطعت كلامه صرخة من مكان ما في الظلام فتوقف ليصغي بحذر. ثم لوح بيده صوب الصوت وأكمل سؤاله:

«.. إنه واحد منهم؟»

أومأ بيل برأسه قائلاً:

- «أراهن على ذلك. لقد لاحظت توتر الكلاب بنفسك»

توالت الصرخات في الأفق حتى تحول الصمت لهرج ومرج. أتت الصرخات من كل جانب واحتشدت الكلاب بإشارة خوف واضحة بينما تقترب من النار حتى مس النار شعرها المتطاير.

رمى بيل قطعة حطب نحو النار ثم أشعل غليونه.

قال هنري:

- «أرى أنك حزين بعض الشيء»

سحب بيل نفسا عميقا من غليونه قبل أن يقول مشيراً إلى التابوت والرجل الراقد في جوفه:

- «لقد كنت أفكر يا هنري. لقد نال هذا الرجل حظاً وفيراً في حياته، أكثر منا نحن الاثنين. قد يضع أحدهم بعض الأحجار على جثتينا ليمنع الكلاب من نبشها حين نموت أنا وأنت لكننا لا نملك ما ملك من مال ومعارف ولن نتحمل تكاليف نقل جسدينا مسافة كهذه لإقامة عزاء.

أتساءل عما دفعه لمغادرة منزله والسفر. لقد كان هذا الرجل على الأغلب من علية قومه ولم يشقَ يوماً للحصول على الطعام أو الملبس. فلم يعش في مكان مقفر وبعيد كهذا؟ لا أستطيع التفكير بسبب منطقي»

وافق هنري قائلاً:

- «لربما عاش لسنٍ متأخرة لو بقي في منزله»

كان بيل على وشك الحديث لكنه غير رأيه. بدلا من ذلك أشار نحو الظلام المحيط بهما من كل جانب. لم يكن هناك شكل واضح للعيان في السواد الحالك لكن زوجاً من العيون لمع كجمرتين مشتعليتين.

أشار هنري برأسه لزوجين آخرين حيث أحاطت حلقة من العيون اللامعة بالمخيم يتحرك بعضها بين الحين والآخر أو يختفي ويعود للظهور بعد لحظات. أما توتر

الكلاب فقد بدا جلياً وهي تتدافع بهلع مفاجئ مقتربة من النار وزاحفة نحو أقدام الرجلين. حتى أن إحداها قلب على جانبه قرب حافة النار وسط الزحام فعوى بألم حين هب عطر فرائه المحترق في الهواء.

سببت الفوضى حركة مضطربة للعيون المتحلقة حولها وانسحب بعضها إلى الخلف لكنها اقتربت مجدداً فور أن هدأت الكلاب.

قال بيل مفكراً:

- «يالسوء حظنا يا هنري. لم نعد نملك ذخيرة»

أكمل بيل تدخين غليونه وساعد رفيقه ببسط فراش الفراء والأغطية فوق أغصان الصنوبر التي جمعاها قبل العشاء.

تنهد هنري وبدأ بنزع حذائه. ثم سأل:

- «كم خرطوش تبقى لك؟»

- «ثلاثة. أتمنى لو كانت ثلاثمائة. للقنت الحيوانات درساً حينها»

قال هنري ملوحا بقبضة يده بغضب ثم وضع حذاءه قرب النار وأكمل:

«أتمنى لو يزول هذا البرد. لم ترتفع الحرارة فوق الخمسين تحت الصفر منذ أسبوعين. أتمنى لو أنني لم أبدأ هذه الرحلة أبداً. أنها لا تعجبني بتاتاً. هناك خطب ما يا هنري. أتمنى لو كنا نجلس قرب النار في قلعة ماكغيري ونلعب الكريبج الآن. هذا ما أتمناه»

أصدر بيل زمجرة متعبة واستلقى على فراشه. وحين كان على وشك النوم قال لرفيقه:

- «أخبرني يا هنري، لمَ لمْ تنبح الكلاب منبهة عندما جاء السابع لتناول السمكة؟ أنه أمر محير حقا»

أجاب هنري ناعسا:

- «إنك تفكر بالأمر أكثر من اللازم. اترك الموضوع واخلد للنوم. سوف تنسى ما حدث في الصباح. إنك جائع وحسب، وهذا يجعل مزاجك حاداً».

نام الرجلان متجاورين تحت غطاء واحد بينما خفتت النار شيئاً فشيئاً واقتربت العيون اللامعة من المخيم تدريجياً واحتشدت الكلاب بخوف كلما صدرت زمجرة من زوج من العيون.

حين أصبح الصوت أعلى من العادة استيقظ بيل ونهض على مهل كي لا يقلق رفيقه. ثم وضع مزيداً من الحطب في النار. بعد ذلك وقف يفرك عينيه ويحدق بالكلاب قبل أن يعود إلى الفراش ويقول:

- «هنري.. انهض يا هنري»

زمجر هنري وهو ينهض متسائلاً:

- «ما الخطب الآن؟»

- «لا شيء.. هناك سبعة مرة أخرى»

شخر هنري وعاد إلى النوم.

في الصباح استيقظ هنري أولاً وأيقظ زميله. لم تكن الشمس قد أشرقت بعد رغم أنها الساعة السادسة صباحاً فشرع بتحضير الفطور في الظلام بينما حمل بيل الفراش وجهز المزلاج.

سأل بيل فجأة:

- «كم كلباً لدينا يا هنري؟»

- «ستة كلاب»

- «إنك مخطئ»

- «هل أصبحوا سبعة مرة أخرى؟»

- «لا.. إنها خمسة فقط»

صرخ هنري غاضباً،

- «عمّ تتحدث؟»

ثم ترك الفطور وراح يعد الكلاب. فاستنتج قائلاً:

«أنك محق يا بيل. أن بدين مفقود»

- «لم أر أثراً له. لابد أنه قد قتل بسرعة»

- «لم يمتلك المسكين فرصة للمقاومة. أراهن على أنه كان مستمراً بالعواء بينما ابتلعوه. آه اللعنة»

- «لقد كان كلباً غبياً»

- «لكنه مع ذلك ليس غبياً لدرجة أن يقترب منها هكذا كما لو أنه ينتحر»

نظر هنري نحو الكلاب الباقية متوجسا وأضاف:

«لن يفعل الآخرون ما فعله»

وافق بيل بالقول:

- «لن يبتعدوا عن النار وإن حاولت إبعادهم بالضرب»

- «لطالما اعتقدت أنه كلب غبي»

هكذا رُثي الكلب الميت على طريق الشمال. إنه رثاء ضئيل مقارنة برثاء الكثير من الكلاب، والكثير من الرجال.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

أنثى الذئب

أكمل الرجلان تناول فطورهما وجمعا تجهيزات المخيم على المزلاج. ثم تركا دفء النار وانطلقا يكملان الرحلة في الظلام.

فور أن بدأ المسير علت الصرخات الحزينة مرة أخرى تنادي بعضها الآخر وتجيب وسط الظلام. لم يتحدث الرجلان.

أشرق ضوء النهار في التاسعة صباحا. ومال لون السماء إلى زهريّ دافئ عبر الجنوب بحلول منتصف النهار حيث فصلت الأرض بين شمس الزوال والعالم الشمالي لكن الدفء اختفى سريعاً. وتحولت السماء للون رمادي باهتٍ عند الساعة الثالثة ثم حل المساء القطبي على الأرض الخواء.

بحلول الظلام أصبحت الصرخات أقرب شيئاً فشيئاً من جانبي الرجلين. وبدت من القرب بحيث شعرت الكلاب بالخوف وبدأت تحتشد بنوبات من الهلع مما اضطر الرجلان لمساعدتها على الهدوء والعودة إلى المسير.

قال بيل بعد إحدى تلك النوبات:

- «أتمنى أن تجد فريستها في مكان آخر وتتركنا وشأننا»

أجاب هنري متعاطفا:

- «إنها تسبب لي القلق كذلك»

لم يتحدث الرجلان بعد ذلك حتى توقفا لنصب مخيمهما.

انحنى هنري لوضع قطعة من الثلج في قدر الطبخ. فجأة روعه صوت ارتطام وصرخة من رفيقه إضافة لعواء ينبئ بالألم من أحد الكلاب. فنهض واقفاً ورأى شكلاً غير واضح المعالم يختفي عبر الثلج ليحجبه الظلام عن النظر. ثم رأى بيل يقف بين الكلاب ممسكاً بهراوة صغيرة بإحدى يديه وجزء من سمكة سلمون مجففة بالأخرى وقد علت وجهه نظرة مصدومة.

قال بيل:

- «لقد تمكن من الحصول على جزء من السمكة لكنني تمكنت من تسديد ضربة له. هل سمعت نحيبه يا هنري؟»

سأل هنري:

- «كيف كان شكله؟»

- «لم أستطع أن أراه بوضوح لكنه حيوان بأربع أرجل وفم وشعر كأي كلب آخر»

- «أعتقد أنه كان ذئباً»

- «لا أعرف لكنه حيوان مروض بالتأكيد. والا لما تجرأ على الاقتراب وتناول الطعام من يدي»

حين فرغ الرجلان من تناول العشاء وجلسا يدخنان غليونيهما اقتربت حلقة العيون اللامعة أكثر من ذي قبل. قال بيل حينها:

- «أتمنى أن تجد قطيعاً من حيوانات الموظ. أو أي فريسة أخرى لتتركنا وشأننا»

أصدر هنري صوتاً شبه متعاطف. وجلس الاثنان في صمت لربع ساعة أخرى. حدق هنري بالنار وحدق بيل بأزواج العيون المحيطة بهما. فجأة قال الأخير:

- «أتمنى لو كنا في ماكغوري الآن»

صرخ هنري غاضبا:

- «اخرس وتوقف عن التمني والشكوى. إنك جائع وحسب وهذا ما يزعجك. تناول بعض الطعام وسيتحسن مزاجك ومزاجي بدوره حين تكف عن الحديث».

في الصباح استيقظ هنري على صوت صراخ رفيقه ولعناته فجلس على الفراش ورأى بيل يقف بين الكلاب رافعاً ذراعيه بإشارة توبيخ. علت وجه الأخير نظرة انزعاج عميق.

سأل هنري:

- «ما الخطب؟»

أجاب بيل:

- «لقد اختفى ضفدوع»

- «لا!»

- «بلى! لقد اختفى»

قفز هنري من الفراش واتجه نحو الكلاب يعدها بحذر. ثم بدأ يكيل الشتائم واللعنات للبرية التي سرقت كلباً آخر منهما.

قال بيل أخيراً:

- «لقد كان ضفدوع أقوى كلابنا»

وافقه هنري بالقول:

- «ولم يكن غبياً كالآخر»

تناول الرجلان الفطور بتشاؤم واضح ثم ربطا الكلاب الأربعة المتبقية أمام المزلاج.

كان يومهما شبيهاً بالأيام الفائتة ولم يقطع الصمت سوى صرخات مطارديهما. ثم حل المساء مبكراً كالعادة وبدأت الأصوات تقترب مجدداً وشعرت الكلاب بالخوف

واحتشدت بنوبات الهلع المتكررة التي عطلت الرجلين وزادتهما كآبة.

وقف بيل منتشياً بإكمال مهمته قرب المخيم وقال:

- «حسناً سيعمل هذا على إبقاء المخلوقات الغبية في مكانها»

جاء هنري ليلقي نطرة على ما أنجزه رفيقه.

كان بيل قد ربط الكلاب ببعضها الآخر وربط حول رقبة كل كلب عصا خشبية بطول أربعة أو خمسة أقدام بواسطة سير جلدي، بموضع قريب جداً من الرقبة بحيث لا يتمكن الكلب من الوصول إلى السير بفكيه، بينما ربط الطرف الآخر لكل عصا بوتد مثبت في الأرض بسير آخر. كانت هذه الطريقة تعود لهنود أميركا الشمالية وتضمن تقييد حركة الكلب ومنعه من الوصول إلى السير الجلدي بفضل العصا.

أومأ هنري برأسه معجباً بعمل رفيقه وقال:

- «هذه الطريقة ستوقف ذا - الأذن - الواحدة من الهرب. فهو قادر على قطع الجلد بأسنانه لكننا سنجده هنا في الصباح بفضل عملك»

- «أراهن على ذلك. واقعاً سأتعهد بعدم شرب القهوة غداً إن اختفى كلب آخر»

حين تجهز الرجلان للنوم أشار هنري نحو أزواج العيون المتحملقة حولهما وقال:

- «إنها تعرف أننا لا نملك الذخيرة لقتلها. لو كان باستطاعتنا إطلاق بعض العيارات تجاهها لما تجرأت على الاقتراب»

أجاب بيل:

- «إنها تقترب أكثر كل ليلة. هل رأيت ذلك الحيوان؟»

وأشار لإحدى أزواج العيون.

نظر الرجلان نحو أزواج العيون والأشكال غير الواضحة في الظلام لفترة. أصبحت الأشكال أكثر وضوحا تدريجياً إذا ما ركزا نظرهما حتى أنهما لاحظا حركتها أحياناً.

صدر صوت من بين الكلاب مما آثار ريبة الرجلين. كان ذو - الأذن - الواحدة يحاول عض طرف العصا المربوطة قرب رقبته نابحاً.

همس هنري:

- «أنظر إلى ما يفعل يا بيل»

اقترب حيوان شبيه بالكلب من النار على مهل فجأة يتقدم بخطوات حذرة لكنها جريئة ويراقب الرجلين بينما يستمع لأصوات الكلاب.

وجه ذو - الأذن - الواحدة نظره نحو الحيوان ونبح بترقب.

قال بيل بصوت واطئ:

- «آه ياله من حيوان غبي. أنه يبدو مرعوباً»

همس هنري مجدداً:

- «إنها ذئبة! وهي من قادت بدين وضفدوع لمصرعيهما. أراهن على أنها قائدة القطيع وأنها تعمل على استدراج الكلاب لتقترب من القطيع ثم تدع الذئاب تأكل الحيوان المسكين»

فرقعت النار حين سقطت قطعة حطب فهرب الحيوان عائداً نحو الظلام.

أعلن بيل:

- «لقد كنت أفكر يا هنري»

- «بماذا؟»

- «أعتقد أنه ذات الحيوان الذي ضربته بهراوتي سابقاً»

أجاب هنري:

- «لا أشك في ذلك»

أكمل بيل حديثه:

- «إن ألفة هذا الحيوان تجاه الإنسان لشيء غريب ومثير للريبة»

- «إنها تتصرف بغرابة بالنسبة لذئب بالفعل. لقد حظيت هذه الذئبة بتجارب مكنتها من التآلف مع الكلاب والاقتراب من المخيم»

فكر بيل بصوت عالٍ:

- «كان فيلان العجوز يملك كلبة رافقت الذئاب. لقد طاردتها مرة من بين قطيع من موظ المراعي في ليتل - ستيك. بكى فيلان العجوز وقتها كالأطفال وقال إنه لم يرها منذ ثلاث سنوات. لقد قضت طوال ذاك الوقت مع الذئاب»

- «أعتقد أنك محق يا بيل. إنها كلبة وليست ذئبة. وقد تعودت أكل السمك من يد الإنسان»

- «إن حظيت بفرصة سأقتل تلك الذئبة - الكلبة. لا نستطيع خسارة المزيد من الكلاب»

اعترض هنري:

- «لكنك لا تملك سوى ثلاثة خراطيش. عليك إلا تضيعها سدى»

- «سوف أنتظر حتى أنال فرصة مواتية لقتلها بعيار واحد»

في الصباح جهز هنري الفطور بينما ما يزال رفيقه نائماً.

حين استيقظ بيل أخيراً قال هنري:

- «لقد كنت تغط بنوم عميق فتجنبت ايقاظك»

بدأ بيل بتناول طعامه ناعساً لكنه لاحظ فجأة أن كوبه فارغ من القهوة. حاول تناول الإناء ليسكب لنفسه لكن هنري وضعه بعيداً عن متناول يد رفيقه.

قال بيل ببطء:

- «ألم تنسَ شيئاً يا هنري؟»

نظر هنري حوله بلامبالاة وهز رأسه نافياً. ثم أعلن قائلاً:

- «لن تتناول القهوة اليوم»

سأل بيل قلقاً»

- «هل نفدت منا؟»

- «لا»

- «ماذا إذاً؟ هل تظن أنها ستؤذي معدتي؟»

- «لا»

كست نظرة غضب وجه بيل وقال:

- «حسناً أخبرني ما السبب؟»

أجاب هنري:

- «لقد اختفى أنيق»

أدار بيل رأسه ببطء كما لو أنه يترقب سوء الحظ الذي ينتظره وبدأ بعد الكلاب. ثم سأل بدون غضب:

- «كيف حصل ذلك؟»

رفع هنري كتفيه باستغراب وقال:

- «لا أعلم. إلا إذا قام ذو - الأذن - الواحدة بقطع السير المربوط حول رقبة أنيق لأن الكلب الأحمق لم يكن قادراً على فعل ذلك بنفسه»

لم يبدِ بيل علامات الغضب الذي يستعر في داخله لكنه قال بكآبة:

- «هذا الحيوان اللعين! لم يستطع قطع السير حول رقبته فأطلق سراح أنيق»

قال هنري في رثاء الكلب المفقود:

- «لقد انتهت معاناته الآن. لابد من أنه قد أصبح طعاماً يهضم في جوف عشرين ذئباً مختلفاً. هيا الآن تناول بعض القهوة»

هز بيل رأسه رافضاً رغم إلحاح صديقه الذي حاول صب القهوة له بنفسه. ثم قال:

- «لست أحمقَ لا يلتزم بوعوده. قلت إنني لن أتناول القهوة إن غاب كلب آخر ولذا فلن أفعل»

- «لكنها قهوة جيدة حقاً»

رفض بيل بعناد وفضل تناول طعامه جافاً لاعناً ذا - الأذن - الواحدة بين الحين والآخر.

حين استعدا للرحيل قال بيل:

- «سوف أربط كلاً من الكلاب المتبقية على حدة الليلة»

سار الرجلان لأكثر من مئة ياردة بقليل حين انحنى هنري الذي كان يسير أمام المزلاج ليلتقط شيئاً من على الأرض. كان الشيء أسود وغير واضح المعالم لكنه ميزه بفضل ملمسه ثم رماه إلى الخلف حتى قفز من على سطح المزلاج وسقط قرب قدم بيل. حينها قال:

- «قد تحتاج له الليلة»

تفحص بيل الشيء متعجباً فعرف فيه العصا التي ربطها قرب رقبة أنيق. كانت كل ما تبقى منه. قال بيل،

- «لقد أكلته بجلده! إن العصا نظيفة تماماً كما لو أنها أكلت السير الجلدي كذلك. إنها حيوانات جائعة للغاية. سوف تأكلنا نحن أيضاً يا هنري»

ضحك هنري متحديا وقال:

- «لقد لاحقتني الذئاب على هذا الطريق من قبل. وقد خضت رحلات أسوأ من هذه. لن تستطيع مجموعة من الحيوانات الغدارة النيل مني بسهولة يا صديقي»

- «لا أعلم يا هنري.. لا أعلم»

- «سوف تعلم أنني محق عندما نصل وجهتنا»

أصر بيل:

- «لا أشاركك حماسك»

- «إنك بحاجة لبعض الشراب الجيد وحسب. سوف أدعك تشرب حد الثمالة حين نصل ماكغوري»

أصدر بيل صوتاً يوحي بانزعاجه ثم صمت.

مر اليوم كالأيام التي سبقته. فقد أشرق النهار في التاسعة صباحاً وكست الشمس اللامرئية الأفق الجنوبي في الثانية عشرة. ثم بدأ ما بعد الظهيرة الرمادي وبعد ثلاث ساعات فقط حل المساء معلناً انتهاء سعي الشمس العقيم للظهور.

أخرج بيل سلاحه وقال:

- «ابقَ محلك يا هنري. سوف أذهب لأستطلع قليلاً»

اعترض هنري قائلاً:

- «من الأفضل أن تبقى قرب المزلاج. لديك ثلاثة خراطيش فقط ولا نعلم ما قد يحدث»

رد بيل ساخراً:

- «من الذي يكثر الشكوى الآن؟»

لم يرد هنري على سخرية رفيقه بل استمر بالمشي متثاقلاً ووحيداً. وكان يتطلع إلى الوراء بين الفينة والأخرى حيث اختفى رفيقه.

بعد ساعة ظهر بيل قرب الفسحة الخالية من الأشجار حيث أوقفا المزلاج وقال:

- «إنها تلاحقنا لكن دون تنظيم فهي تحاول البحث عن فريسة أخرى دون خسارتنا. تبدو متأكدة من النيل منا عاجلاً أم آجلاً لكنها تحاول العثور على أي ما يؤكل حتى تحين فرصة الهجوم علينا»

اعترض هنري بحدة:

- «هل تعني أنها متأكدة من اصطيادنا؟»

تجاهل بيل سؤال رفيقه وقال:

- «لقد رأيت بعضاً منها. أنا متأكد أنها لم تتناول شيئاً سوى ضفدوع وأنيق منذ أسابيع فهي نحيفة للغاية وبعضها بالكاد يقوى على المواصلة. إنها من الضعف بحيث تستطيع رؤية أضلاعها كألواح يلتصق عليها جلدها. تلك حيوانات يائسة وسوف تفقد عقلها بسبب الجوع عما قريب»

بعد دقائق أصدر هنري الذي كان يسير خلف المزلاج صفيراً محذراً رفيقه. فأدار بيل رأسه وأوقف الكلاب بهدوء.

كان هناك حيوان مغطى بالفراء يقف على الطريق الذي قطعاه تواً. تتبع الحيوان رائحتهما بأنفه بينما يمشي على مهل بطريقة غريبة كما لو أنه لا يبذل أدنى جهد. حين توقف الرجلان عن الحركة توقف الحيوان بدوره. ثم رفع رأسه وحدق بهما مترقباً.

قال بيل ببطء:

- «إنها أنثى الذئب»

استلقت الكلاب على الأرض بينما ذهب بيل ليقف بالقرب من رفيقه.

وقف الرجلان يراقبان الحيوان الغريب الذي لحق بهما لأيام وتمكن من القضاء على نصف كلابهما.

بعد تفحص المكان بدقة اقترب الحيوان بضع خطوات. ثم أعاد الكرة عدة مرات حتى أصبح على بعد مائة ياردة لا غير وحينها رفع رأسه مقرباً إياه من جذع شجرة صنوبر واستمر بمراقبة الرجلين بطريقة غريبة. فقد كان هناك توق شبيه بتوق الكلاب في عينه لكنه لم يظهر أثراً للتعلق كما لو أنه توق جائع لفريسة لا غير.

علق هنري قائلاً:

- «إن إرتفاعها يصل إلى قدمين ونصف القدم عند الكتفين. وربما يصل طول جسدها لخمسة أقدام»

رد بيل مشككاً:

- «ياله من لون غريب بالنسبة لذئب. لم أرَ في حياتي ذئباً أحمرَ كهذا. إنه أشبه بلون القرفة»

لم يكن الحيوان بلون القرفة في الواقع بل كان رمادياً ككل الذئاب. إلا أن مسحة احمرار مدهشة كست جسده، تظهر وتختفي كما لو أنها جزء من خدعة بصرية تجعل لون الفراء يتغير من الرمادي إلى الأحمر ومن الأحمر إلى الرمادي. كما كانت درجة احمرار يصعب وصفها.

قال بيل:

- «يبدو ككلب إسكيمو معتاد على المزلاج لا غير. لن أستغرب إن بدأ يهز ذيله فجأة»

نادى بيل على الحيوان:

- «تعال أيها الكلب مهما كان اسمك»

ضحك هنري وقال:

- «لا تبدو خائفة على الإطلاق»

لوح بيل بيديه مهدداً وصرخ بصوت عال. إلا أن الحيوان لم يظهر أي علامات خوف بل بدا كمن يترقب شيئاً ما وحسب واستمر يحدق بهما.

كانت الذئبة جائعة وكانا لحماً لا أكثر. فأرادت أن تتقدم منهما وتأكلهما لكنها لم تجرؤ.

قال بيل خافضا صوته دون قصد:

- «اسمع يا هنري. لدينا ثلاثة خراطيش لكنني متأكد من قدرتي على اصطيادها. علينا أن نوقفها الآن قبل أن تقضي على ما بقي من كلابنا. ما رأيك؟»

أومأ هنري برأسه موافقاً فأخرج بيل السلاح من مكانه وكان على وشك تقريبه من كتفه لكنه لم يحظ بالفرصة. فقد قفزت الذئبة واختفت بين الأشجار بلمح البصر.

أصدر هنري صفيراً. وقال بيل وهو يعيد السلاح لمكانه:

- «كان عليّ أن أعرف أن ذئباً معتاداً على مرافقة الكلاب والتقرب من البشر لابد أن يعرف شكل السلاح. صدقني هذا الحيوان سبب جميع مشاكلنا. لولاها لكنا ما زلنا نحتفظ بجميع كلابنا الستة. سوف أنال منها يا هنري. إنها أذكى من أن تصطاد في مكان مفتوح كهذا. لكن إذا ما اختبأت ونصبت كميناً لها فسأنال منها. أنا متأكد من ذلك كما أنا متأكد من اسمي»

أجاب هنري:

- «لا يجب أن تذهب بعيداً. إذا ما تمكنت الذئاب من مهاجمتك فلن تستطيع حماية نفسك بثلاثة خراطيش فقط. إنها حيوانات جائعة وستنال منك بكل تأكيد إذا ما واتتها الفرصة»

خيم الرجلان مبكراً تلك الليلة فلم تكن الكلاب الثلاثة قادرة على المسير مسافة طويلة ولا بسرعة كبيرة وكان الإنهاك بادياً عليها. كما خلدا إلى النوم مبكراً وذلك بعد أن تأكد بيل من ربط الكلاب كلاً على حدة وبمبعدةٍ عن بعضها الآخر.

لكن الذئاب ازدادت جرأة واضطر الرجلان للنهوض من الفراش بين الحين والآخر لزيادة حطب النار والاطمئنان على الكلاب المحمومة رعباً.

في إحدى هذه المرات قال بيل بينما يزحف عائداً إلى الفراش:

- «لقد سمعت بعض البحارة يتحدثون عن أسماك قرش تلاحق السفن. هذه الذئاب أشبه بقرش البرية. إنها تعرف المكان أفضل مما نفعل ولا تلاحقنا من أجل المرح وحسب. سوف تنال منا يا هنري. سوف تنال منا بالتأكيد»

رد هنري بنبرة حادة:

- «لقد نالت منك بالفعل. فالمرء ميت بالفعل فور أن يستسلم للأمر. يبدو من حديثك أنك على وشك أن تؤكل»

أجاب بيل:

- «لقد نالت من رجال أفضل مني ومنك»

انقلب هنري على جانبه غاضباً وقال:

- «اخرس.. إنك تصيبني بالتعب»

لم يرد بيل. وتعجب هنري، ذلك لأنه لم يعتد هدوء رفيقه. فقد كان بيل رجلاً سريع الغضب ودائماً ما يرد بحدة على التوبيخ. فكر هنري طويلاً بالأمر بينما يحاول النوم. وقبل أن يغط بنومه فكر في نفسه:

أن بيل حزين حقاً. عليّ أن أجد طريقة للتخفيف عنه غداً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-3-

صرخة الجوع

بشرت بداية اليوم بخير فلم يخسر الرجلان أياً من كلابهما خلال الليل.

انطلقا في طريقهما وسط الظلام والصمت والبرد المسكون بأرواح الشمال. وبدا أن بيل قد نسي الليلة الفائتة بكآبتها حتى أنه كان مرحاً بتعامله مع الكلاب رغم أنها قلبت المزلاج على جزء متعرج من الممر المائي عند منتصف النهار ووضعتهما في موقف حرج. فقد انقلب المزلاج على ظهره وعلق بين جذع شجرة وصخرة عملاقة وكان على الرجلين أن يحلا رباط الكلاب لإخراجها من المكان قبل رفع المزلاج.

كان الرجلان ينحنيان على المزلاج في محاولة لتدبير الوضع حين لاحظ هنري ذا - الأذن - الواحدة يبتعد عنهما. فوقف وصرخ بينما يحاول متابعته بنظره:

- «تعال يا ذا - الأذن - الواحدة»

جرى الكلب على الثلج تاركاً آثاره خلفه. ولاحظ هنري أن أنثى الذئب تقف على الثلج بانتظاره.

اقترب الكلب بحذر من الذئبة بخطوات متثاقلة ثم توقف مترقباً بحذر وبشيء من التوق. بدا أن الذئبة بدورها تبتسم نحو الكلب مظهرة أسنانها بتملق ثم تقدمت منه بضع خطوات وتوقفت كما لو أنها تمارس لعبة ما. فعاد الكلب يتقرب منها ناصباً ذيله ورافعاً أذنيه في الهواء بترقب.

حاول الكلب تقريب أنفه من الذئبة لكنها ابتعدت خطوة إلى الوراء. لقد كانت تستدرجه على مهل بعيداً عن رفقة البشريين. أدار الكلب رأسه إلى الوراء كما لو أنه شعر بالشر الذي تخبئه له.

نادى الرجلان على كلبهما وطلبا منه العودة لكن قبل أن يتمكن الكلب من إتخاذ قرار تبددت الفكرة التي كانت تتكون في رأسه حين اقتربت الذئبة منه وربتت بأنفها على أنفه مكافأة على جرأته.

حاول بيل إخراج السلاح من تحت المزلاج وتلقيمه لكنه كان عالقاً. ساعده هنري ونجحا معاً بإنجاز المهمة لكن الأوان كان قد فات. فقد أصبح الكلب من القرب من الذئبة بحيث لم يرد الرجلان المخاطرة بإصابته بدلاً عنها. وبدوره فقد أدرك الكلب ما يحصل متأخراً فاستدار وبدأ يجري عائداً نحو الرجلين.

فجأة شاهد الرجلان دزينة من الذئاب الرمادية النحيفة تظهر من يمين الممر المائي وتهرع قاطعة الطريق على ذي - الأذن - الواحدة. في تلك اللحظة اختفى كل أثر للعب والخجل الذي اكتسى ملامح الذئبة قبل دقائق. فقفزت مزمجرة نحو ذي -

الأذن - الواحدة لكنه تمكن من دفعها بحركة من كتفه وغير مجرى طريقه، بعد أن قطعت الذئاب عليه الطريق، مصراً على الوصول إلى المزلاج.

ازدادت أعداد الذئاب كل لحظة. ووقفت الذئبة بثبات على مسافة قفزة واحدة من الكلب.

سأل هنري فجأة واضعاً يده على كتف رفيقه:

- «أين تذهب؟»

أبعد بيل يد رفيقه وقال:

- «لن أسمح لها بالحصول على مزيد من كلابنا»

ثم قفز بين الشجيرات على جانب الممر حاملاً سلاحه وقد كانت نيته واضحة لرفيقه. فقد لاحظ بيل أن الكلب يجري في دائرة حول المزلاج وقرر أن يقطع الطريق على الذئاب بالتمركز في نقطة ما من الدائرة وإطلاق العيارات نحوها كي يتمكن من إنقاذ الكلب.

صرخ هنري برفيقه،

- «كن حذراً يا بيل ولا تخاطر بما تملك من ذخيرة»

جلس هنري على المزلاج يترقب ما سيحدث. فقد اختفى بيل عن النظر بين الشجيرات وكان ذو - الأذن - الواحدة يظهر بين الحين والآخر بين جذوع الصنوبر المتفرقة ثم يعود للاختفاء. ظن هنري بأن الكلب المسكين لن يتمكن من النجاة.

لقد كان الكلب واعياً للخطر المحدق به لكنه استمر يجري في دائرة حول المزلاج. بينما جرت الذئاب بدورها في حلقة أصغر كي تقطع طريقه إذا ما حاول ترك الدائرة والاتجاه نحو بر الأمان.

عرف هنري أن الكلب والذئاب وبيل سيلتقون عاجلاً أم آجلاً في نقطة ما لكن الأمر حدث أسرع مما كان يعتقد. فقد سمع صوت إطلاق عيار تلاه ثانٍ وثالث وأدرك أن رفيقه لم يعد يملك ذخيرة للدفاع عن نفسه. وعلى الفور سمع صرخة عالية وزمجرة عرف فيها نباح كلب تم اصطياده. وبالسرعة نفسها تقريباً خفتت الأصوات واختفت فساد المكانَ صمت موحش.

جلس هنري لفترة طويلة على المزلاج. لم يكن هناك من داعٍ لتفقد ما حصل فقد عرف كل شيء كما لو كان قد رآه بأم عينه. ورغم أنه نهض مرة حاملاً فأسه إلا أنه عاد وجلس فترة أطول يفكر بينما يرتجف الكلبان الباقين قرب قدميه.

أخيراً نهض متعباً كما لو لم يعد يملك أدنى مقاومة وشرع يربط الكلبين بالمزلاج. ثم أسدل حبلاً على كتفه وبدأ يجر المزلاج بمساعدة كلبيه.

لم يتمكن من السير طويلاً بالطبع. وفور أن حل الظلام توقف وأعد مخيمه ثم أعد العشاء وتناوله بصمت قبل أن يستلقي في الفراش.

لم يكن مقدراً لهنري أن ينام تلك الليلة. ففور أن أغمض عينيه سمع صوت الذئاب تقترب منه ولم يكن بحاجة للنظر عن كثب لرؤية أشكالها فقد شاهدها تتحلق حوله بوضوح. حتى أن بعضها قد عقصت أجسادها كالكلاب ونامت متكورة على الأرض.

لم يستطع هنري النوم واستمر بالنهوض وإضافة مزيد من الحطب للنار ليبقيها مشتعلة فهي الشيء الوحيد الذي وقف بينه وبين كل تلك الأنياب الجائعة.

احتشد الكلبان على جانبيه بحثاً عن الأمان مصدرين أنيناً وزمجرة كلما اقترب ذئب أكثر من العادة. وبدورها اقتربت الذئاب كلما سمعت صوت الكلاب المرعوبة.

بهذه الطريقة صغرت الحلقة المحيطة بالرجل وكلبيه حتى أصبحت الذئاب من القرب بحيث تستطيع الوصول اليه بقفزة واحدة.

وقف هنري بين الحين والآخر حاملاً عصا خشبية بعد أن أشعل طرفها ولوح بها مهدداً لتبتعد الذئاب قليلاً.

في الصباح وجد نفسه متعباً وشاحباً، خصوصاً وأنه لم يذق طعم النوم، لكنه نهض وحضر لنفسه فطوراً في الظلام.

حين أشرق ضوء النهار في التاسعة صباحاً ابتعدت الذئاب فشرع بمهمة أوكلها لنفسه في الليل. وبدأ بتقطيع الشجيرات الصغيرة وربط أغصانها ببعضها ثم ربط تلك الأغصان بجذوع الأشجار مستخدماً رباط المزلاج الجلدي كحبل لتكوين سلسلة. ثم تمكن بمساعدة كلابه من حمل التابوت وتعليقه على السلسلة.

حين أكمل قال موجها كلامه للرجل في التابوت:

- «لقد نالت الحيوانات من بيل وربما ستنال مني قريباً لكنها لن تنال منك أبداً»

ثم سار مع كلبيه محاولاً الوصول لبر الأمان فقد علم أن سبيل نجاته الوحيد يكمن في الوصول إلى قلعة ماكغوري.

استمرت الذئاب تلاحقه ظاهرة على جانبي الطريق بين الحين والآخر. رأى أجسادها النحيلة وألسنتها البارزة بسهولة فبدت له كأكياس جلدية تغلف هياكل عظمية وعضلات ضعيفة حتى أنه تعجب من قدرتها على المواصلة.

لم يجرؤ على المشي في الظلام رغم أن الشمس قد تجرأت على إظهار قمتها كخيط ذهبي شاحب في الأفق عند منتصف النهار. وهذا يعني أن النهارات بدأت تطول لتسمح للشمس بالشروق بوضوح.

حين غاب ضوء النهار توقف لنصب مخيمه. وقضى ساعات النهار الرمادي والشفق الكئيب بتقطيع كميات كبيرة من الحطب. وحين حل الرعب في المساء عادت الذئاب للاقتراب من المخيم.

بعد أن نال التعب منه غط في النوم رغماً عنه ملتفاً بأغطيته ومحتفظاً بفأسه بين ركبتيه بينما جلس الكلبان على جانبيه.

استيقظ هنري ليرى ذئباً رمادياً يقف على بعد اثنتي عشرة قدماً لا أكثر. لم يبدُ الذئب خائفاً بل تثاءب بلامبالاة ومطط جسده ككلب كسول محدقاً بالرجل بنظرة جائعة كما لو كان عشاءً متأخراً لا أكثر.

بدت الذئاب موقنة من اقتراب موعد تناولها للرجل. وتذكر الرجل بدوره الأطفال حين يتحملقون حول مائدة الطعام بانتظار أن ينالوا الأذن للشروع بالأكل.

لقد كان هنري الطعام. وهذا جعله يتساءل عن موعد أكله.

حين نهض لزيادة حطب النار اكتشف إعجاباً غريباً بجسده. فراقب حركات عضلاته وآلية تحريك يديه وقضى وقتاً يفتح أصابعه كلاً على حدة مراقباً إياها. ثم شكل قبضة بيده وفتحها مرة أخرى مراقباً عضلاته بمساعدة ضوء النار. وراقب شكل أظافره وأطراف أصابعه متأملاً الإحساس المصاحب لكل حركة.

بدا الأمر مذهلاً بالنسبة له فلم يكن قد شعر بحب مكنون تجاه جسده الذي يعمل بسهولة وأناقة من قبل. ثم نظر نحو الذئاب التي تتطلع إليه بشوق وأدرك أن هذا الجسد الرائع الذي يتمثل فيه ليس سوى قطعة لحم بالنسبة لحيوانات البرية، فريسة تسعى إلى تمزيقها بأنيابها الحادة كما فعل كثيراً وهو يتناول أرنباً أو حيواناً آخر.

صحا هنري من غفوته الشبيهة بالكابوس ليرى الذئبة تقف على بعد ستة أقدام منه لا غير. كان الكلبان يزمجران ويتذمران عند قدميه لكن الذئبة لم تلق بالاً لهما بل نظرت اليه ونظر لها بدوره.

لم تكن نظرة منبئة بالشر بل نظرة جائعة تواقة. فقد كان الرجل طعاماً بالنسبة لها وقد آثار منظره شهيتها.

فتحت الذئبة فمها مبينة أنيابها ومسدت بلسانها على الرغو النازل من فمها بمتعة الترقب. فشعر هنري بالخوف ومد يده ليمسك بغصن ساقط بغرض رميه نحوها لكنها قفزت إلى الخلف قبل أن يتمكن من رميه. وأدرك حينها أنها معتادة على أن يرمي أحدهم شيئاً تجاهها.

زمرجت الذئبة بينما تقفز مظهرة أنيابها حتى اللثة واستبدلت نظرة التوق بأخرى خبيثة جعلته يرتجف خوفاً فنظر إلى يده ولاحظ رقة أصابعه التي تحمل الغصن وكيف التفت حول السطح غير السوي للغصن.

لاحظ أن إصبعه الأصغر قريب أكثر من اللازم من الطرف المشتعل للغصن فأبعده بحركة لا إرادية بسرعة معدلاً مسكته ليبعد النار عن جلده. وتخيل في تلك اللحظة أصابعه تتكسر وتتمزق بين فكي ذئب من القطيع.

لم يدرك يوماً مدى تقديره لجسده كما فعل الآن وهو يواجه الخطر. قاتل القطيع الجائع طوال الليل ثم غفا مجدداً ليوقظه نباح أحد الكلبين.

في الصباح لم يجدِ ضوء النهار في إبعاد الذئاب كما فعل في الأيام السابقة. إنتظر الرجل طويلاً لكن الحيوانات لم تغادر المكان بل استمرت تحوم حول ناره بغطرسة متملكة هزت شجاعته التي ولدتها النهار.

ورغم أنه حاول مواصلة طريقه مرة إلا أن الذئاب منعته بقفزها نحوه فور ابتعاده عن النار. أنقذ نفسه بالعودة سريعاً إلى الوراء بينما أطبق أشجع الذئاب فكيه على بعد ستة إنشات من فخذه فقط.

كان بقية القطيع متيقظاً لكل حركة مما أضطر الرجل لرمي الأغصان المشتعلة في كل اتجاه عله يبعدها مسافة بسيطة. ثم قضى نصف يومه في محاولة توسيع المخيم حتى يصل شجرة صنوبر عملاقة ميتة كانت قد علت على بعد عشرين قدم منه. حين نجح أخيراً في الوصول إليها تفحص محيطه بحثاً عن أكبرتجمع للأشجار بنية إسقاط الشجرة نحوها وإشعال حريق هائل.

مرت الليلة كسابقتها لكن التعب جعله يغط في النوم بين الحين والآخر. حتى أن نباح الكلاب لم يعد يملك أي تأثير على حواسه المتكاسلة بعد أن اعتاده.

غفا هنري لفترة ثم استيقظ فزعاً ليرى الذئبة تقف على بعد ياردة واحدة منه أو أقل. وجه غصناً مشتعلاً نحوها بشكل آلي لكنه بدل أن يرميه ضربها على فمها المفتوح فزمجرت بألم وقفزت مبتعدة حين هبت رائحة الشعر واللحم المحترق من جسدها.

قبل أن يغفو مجدداً ربط غصناً مشتعلاً على يده اليمنى. وحين أغمض عينيه لم ينم سوى دقائق فقد أيقظه الألم في يده جراء اتصال النار بها. واستمر بفعل ذلك لساعات فقد نجحت هذه الخدعة بايقاظه في كل مرة يستسلم جسده للنوم ليبعد الذئاب ويزيد حطب النار ويعيد ربط غصن آخر بيده.

في إحدى المرات لم تكن ربطة يده محكمة فسقط الغصن من يده. وحينها حلم أنه في قلعة ماكغوري. ورأى نفسه يلعب الكريبج مع زملائه في جو دافئ لكنه عرف أن الذئاب تحاصر المكان فقد كانت تعوي بالقرب من البوابة. وكان زملاؤه يتوقفون بين الحين والآخر للإنصات للأصوات والضحك بسخرية من فشل محاولاتها.

فجأة سمع صوت تحطم وسط حلمه الغريب وفتحت الباب بقوة ورأى الذئاب تقفز نحوه مباشرة.

علت الأصوات بفضاعة مزعجة فقد كان حلمه يتحول تدريجياً لشيء آخر لكنه لم يدرك كنهه. واستمر عواء الذئاب بإصرار طوال الحلم.

استيقظ فجأة ليدرك أن العواء جزء من الواقع وأن هناك هرجاً ومرجاً يحيط به بينما تقترب الذئاب منه بسرعة.

أطبق أحد الذئاب فكيه حول ذراعه. فقفز هنري متبعاً حدسه نحو النار وشعر بأنياب تمزق ساقه. ثم بدأت معركة وسط النار.

وفرت قفازاته شيئاً من الحماية ليديه مما مكنه من حمل بعض الجمرات ورميها في جميع الاتجاهات حتى بدا المخيم شبيهاً ببركان هائج. لكن الأمر لم يدم طويلاً فقد بدأ وجهه يتقرح وحرق حاجباه ورموشه وشعر بالحرارة تسري في عروق قدميه. فقفز مبتعداً عن النار حاملاً غصناً مشتعلاً في كل يد.

تراجعت الذئاب وذاب الثلج بأزيز أينما وقع الجمر. وبين الحين والآخر قفز أحد الذئاب بهلع حين وطأ إحدى الجمرات على الأرض.

قذف الرجل العصوين على أقرب اعدائه وغرس يديه في الثلج. ثم بدأ يضرب قدميه بالأرض محاولاً تبريدها. كان كلباه مفقودين فأدرك أن الذئاب قد أكلتهما كما أكلت البقية بدءاً ببدين. كما عرف أنه سيكون اللقمة الأخيرة في هذه الوجبة التي بدأت قبل أيام.

رفع يديه بغضب تجاه الذئاب وصرخ:

- «لم تنلي مني بعد!»

زمجرت الذئاب بهياج عند سماع صوته واقتربت أنثى الذئب منه تراقبه بجوع كما فعلت سابقاً.

بعد ذلك بدأ العمل على فكرة جديدة خطرت له فشرع يمدد النار بهيئة حلقة كبيرة. ثم انحنى جاثماً وسط الدائرة التي شكلت واضعاً فراشه تحت جسده للحماية من الثلج الذائب.

حين اختفى الرجل وسط ملجأه الناري ظهرت الذئاب قرب حلقة النار تراقب بفضول ما فعل. وحين لم تستطع عبور النار جلست حول الدائرة مسترخية على الأرض تمدد جسدها مستمتعة بالدفء وتتثاءب كالكلاب.

رفعت الذئبة أنفها وبدأت العواء ثم تلاها بقية القطيع واحداً تلو الآخر حتى أصبحت جميع الذئاب تقف منتصبة موجهة عواءها نحو السماء في نداء جائع.

حل الفجر. ثم طلع ضوء النهار. كانت النار تختفي تدريجياً فلم يعد هناك وقود كافٍ. وحين حاول هنري الخروج من الدائرة لجمع مزيد من الحطب استعدت الذئاب لمهاجمته على الفور. ولم يفلح بإبعادها بالأغصان المشتعلة كما فعل من قبل فلم يجد بداً من الاستسلام والعودة إلى مركز الدائرة. حتى أن أحد الذئاب قد قفز نحوه لكنه تعثر وسقط على الجمر بأطرافه الأربعة فعاد زاحفاً مزمجراً إلى الثلج ليبرد أقدامه.

جلس القرفصاء على أغطيته وثنى جسده نحو الأمام من مفصل الفخذ. ثم أرخى كتفيه ووضع رأسه على ركبتيه بعلامة استسلام رافعاً رأسه بين الحين والآخر ليراقب انطفاء النار. حتى تحولت الحلقة التي صنع إلى أجزاء متفرقة تلتهب هنا وهناك.

حين أصبح الخطر وشيكاً غمغم لنفسه قائلاً:

- «أعتقد أنك ستنالين مني الآن.. سوف أخلد إلى النوم وحسب»

غفا هنري ليستيقظ بعد قليل ويرى الذئبة داخل الدائرة. كانت تقف أمامه مباشرة.

ثم غفا مجدداً واستيقظ بعد دقائق بدت كساعات ليكتشف أن تحولاً غريباً قد حصل. لم يدرك كنهه في البداية. ثم لاحظ اختفاء الذئاب لكنه رأى آثارها التي دلت على

قرب المسافة التي وصلتها منه باقية على الأرض.

أوشك النوم على النيل منه مجدداً لكنه رفع رأسه فزعاً ووقف على قدميه.

سمع أصوات صراخ بشرية تحيط به وأصوات مزاليج تسحب على الجليد وأصوات كلاب تنبح وصرير أسيرة جليدة. وفجأة رأى ستة رجال يتجمهرون حوله. بدا أنهم يحاولون إيقاظه من غفلته بهز جسده والنداء عليه.

نظر حوله وتحدث بصوت أجش غريب قائلاً:

- «ذئبة حمراء.. جاءت مع الكلاب وقت إطعامها.. أكلت طعام الكلاب.. ثم أكلت الكلاب.. ثم أكلت بيل..»

صرخ أحد الرجال به قائلاً:

- «أين اللورد ألفريد؟»

هز هنري رأسه ببطء وقال،

- «لم تنل منه.. إنه عند شجرة في المخيم الأخير»

جاء الصوت مجدداً ممسكاً كتفه بعنف،

- «ميت؟»

- «نعم.. وفي صندوق»

قال ذلك وانتفض مزيحاً قبضة الرجل عن كتفه. ثم أضاف:

«اتركني وشأني فأنا متعب للغاية. تصبحون على خير»

ثم أغلق عينيه وأرخى ذقنه على صدره. وارتفع صوت شخيره بينما يحمله الرجال ليرقدوه على الأرض.

كان هناك صوت آخر خافت قادم من مسافة بعيدة، صرخات الذئاب الجائعة وهي تتبتع فريسة أخرى غير الرجل الذي فلت من قبضة أفكاكها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثاني

-1-

معركة الأنياب

كانت أنثى الذئب أول من سمع صوت الرجال ونباح الكلاب وأول من قفز مبتعداً عن الرجل المحاصر وسط حلقة النار المتضائلة. أما بقية الذئاب فقد ترددت لبعض الوقت أملاً بالحصول على فريستها التي طاردتها طويلاً لكن بعد دقائق قليلة من الإنصات للأصوات المقتربة قفزت تباعاً نحو الطريق الذي رسمته الذئبة.

قاد القطيع ذئب رمادي كبير متتبعاً آثار خطوات الذئبة ومزمجراً بين الحين والآخر محذراً الذئاب الصغيرة أو موبخاً بحركة من طرفه إذا ما طمحت بتجاوزه وصولاً إلى المقدمة.

عندما لمح الذئبة أخيراً زاد سرعته وكذلك فعل البقية خلفه. خففت الذئبة بدورها سرعتها حتى أصبحت تسير بموازاة القائد كما هي عادتها. وحين أسرعت بين الحين والآخر منبئة بقدرتها على تجاوزه لم يوبخها أو يظهر غضبه بل عاملها بود وعطف لم يرق لها. حتى أنها اعتادت الزمجرة نحوه وإظهار أسنانها الحادة إذا ما اقترب أكثر من اللازم ولم تتردد بتسديد ضربة قوية لكتفه في بعض المرات. أما هو فقد اعتاد الابتعاد عنها بضع خطوات كلما حدث ذلك والتمهل بمشيته الخرقاء حتى يبدو كخنزير أليف.

مع ذلك لم يسبب له أحد آخر مشاكل بين القطيع. أما هي فقد واجهت مشاكل أخرى.

فقد كان هناك ذئب عجوز هزيل يسير دائماً إلى جانبها الآخر وقد غطت ندوب معاركه السابقة جسده وفقد عينه اليمنى. وربما لهذا السبب اختار المشي على جانبها الأيمن دائماً.

حاول الذئب العجوز التقرب منها دائماً والانحراف تجاهها حتى يمس خطمه جسدها أو كتفها أو رقبتها. قاومت اهتمامه بأسنانها كما تفعل مع الآخر لكن أحياناً كان الاثنان يظهران اهتمامهما في الوقت نفسه مما يضطرها للنهش بأسنانها متذمرة على الجانبين بغرض التخلص منهما ولتبقى في مقدمة القطيع وترى طريقها بوضوح.

كان المغرمان يظهران أنيابهما ويزمجران بوجه بعضهما الآخر. ولكانا تقاتلا لنيل حظوتها لولا أن مهمة أشد أولوية انتظرتهما وتلك مهمة إشباع الجوع.

بعد كل مرة تصد بها الذئبة القائد العجوز يبتعد هرباً من أسنانها المليئة بالرغبة ويبدأ بمضايقة ذئب بعمر ثلاث سنوات يسير على جانبه الأيمن. نمى الذئب الصغير مؤخراً لحجمه الكلي ولذا فقد بدا أكثر حيوية وقوة مقارنة بالذئاب التي أنهكها الجوع. ومع ذلك اعتاد المشي رافعاً رأسه بترقب. وإذا ما حاول تجاوز العجوز أبعده الأخير بزمجرة مرعبة ليعود إلى محله.

تسلل الذئب الصغير أحياناً بخفة ليسير بين الذئبة والقائد الشاب. وقد أنفرت خدعته هذه الخصمان والذئبة أيضا. فكان القائد العجوز يوجه غضبه نحوه ليبعده عن محبوبته. وكانت هي ذاتها تشاركه الاندفاع أحياناً. وكذلك فعل القائد الشاب على يسارها.

كلما حاصرت أفكاك الذئاب الثلاثة الذئب الصغير تراجع متشنج الأطراف ومتوعداً بعرض أنيابه وشعر عرفه المنتصب.

سبب هذا الارتباك المتكرر في مقدمة القطيع ارتباكاً في الخلف. فتزاحمت بقية الذئاب مع بعضها ومع الصغير وعبرت عن عدم ارتياحها بتسديد النهشات الحادة لجسده.

أثر الجوع بالذئاب فلم يكن من السهل تمالك غضبها لكن ثقة الصغير التي تصحب الشباب جعلته يصر على تكرار مناورته مسبباً لنفسه المشاكل.

منع الجوع وحده تفرق القطيع. ولولاه لاشتعلت معركة من أجل نيل ود الذئبة لكن اليأس صاحب الذئاب في كل خطوة. فقد أدى جوعها المتزايد لبطء حركتها وتعثر العجزة والضعفاء منها في نهاية المجموعة. أما في الأمام فقد سار الأكثر شباباً لكنها جميعاً بدت كهياكل عظمية أكثر من كونها ذئاباً قوية.

مع ذلك بدا أنها لم تبذل جهداً ملحوظاً ولم تتوقف عن التقدم. عدا القلة المتعثرة في الخلف. وبدت عضلاتها المنهكة كخطوط لانهائية كما لو أن تقلصاً عضلياً قد ربض خلف كل عضلة شبيهة بالمعدن ثم آخر وآخر إلى ما لانهاية.

ركضت الذئاب عدة أميال ذلك اليوم. ثم استمرت بالركض طوال الليل وفي النهار التالي كمن يجري على سطح عالم متمجد وميت. ولم تصدر حركة حياة أخرى عبر الجمود الواسع. بل كانت وحدها حية تبحث عن أحياء تلتهمها لتستمر الحياة.

عبرت الذئاب مفترقات واطئة ودزينة من الممرات المائية الصغيرة قبل أن تنال جائزة على سعيها الحثيث. فقد التقت بحيوان موظ كبير مثل لحماً وأملاً بالحياة. ولم تكن تحرسه نار غريبة أو قذائف مشتعلة ترمى في الهواء.

عرفت الذئاب الحوافر المتباعدة والقرون الشبيهة بكف اليد جيداً فتخلصت من حذرها وصبرها المعتاد واشتعلت معركة سريعة وعنيفة.

تمت محاصرة الحيوان من كل جانب. مقاوماً مزق أجساد الذئاب وحطم جماجمها بضربات هائجة من حوافره العظيمة وتمكن من تحطيم وتكسير بعضها بقرونه الكبيرة وأوقع بعضها على الثلج يصارع بجسده لكن لم يكن مقدراً له البقاء.

أخيراً سقط أمام الذئبة التي مزقت حنجرته بوحشية بينما حاصرته أسنان البقية من كل جانب وأكلته قبل أن يتوقف عن مقاومته الأخيرة مسبباً أكبرقدر ممكن من الدمار لها.

تجاوز وزن الحيوان الثمانمائة باوند فحظي كل من قرابة الاربعين ذئباً بعشرين باوناً لكن قدرتها الاستثنائية على الصوم صاحبتها شهية استثنائية. وبعد فترة

قصيرة لم يتبق سوى عظام قليلة متفرقة من الحيوان العظيم الذي واجهها قبل ساعات قليلة.

نامت الذئاب بمعدة مليئة. وبعد ذلك بدأ الخصام بين الذكور الشابة ليستمر لأيام قبل أن يتبعه تفرق القطيع. فقد انتهت المجاعة وأصبحت الأرض ذات وفرة.

رغم استمرار القطيع بالصيد كمجموعة إلا أنها فعلت ذلك بحذر أكبروفضلت إعتراض طريق الأبقار الثقيلة أو الثيران العجوز العرجاء من بين القطعان التي التقتها.

في أحد الأيام انقسمت المجموعة إلى مجموعتين وراحت كل واحدة في طريقها. فقادت الذئبة مجموعتها رفقة القائد الشاب والعجوز ذي العين الواحدة عبر نهر ماكنزي ثم عبرت بحيرة نحو الشرق وقل عدد أفراد المجموعة شيئاً فشيئاً. هجرت الذئاب المجموعة بأزواج من الذكور والإناث تدريجياً. وأحياناً ابتعد ذكر شاب بفعل أنياب غرمائه الحادة.

أخيراً تبقى أربعة ذئاب فقط. وهم الذئبة والقائد الشاب والعجوز والصغير الطموح.

ولدت الذئبة عصبية حادة حتى أن كل واحد من معجبيها الثلاثة حمل علامات أسنانها لكنهم لم يردوها يوماً أو يقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم بل أداروا ظهورهم لها مستقبلين الضربات الوحشية ورافعين ذيولهم أملاً باسترضاء غضبها.

كان الثلاثة ودودين تجاهها لكنهم شرسون تجاه بعضهم الآخر. فولد عنفوان الشباب طموحاً لدى الصغير وواجه العجوز ضارباً إياه على عينه الواحدة وممزقاً أذنه لأجزاء صغيرة.

لم يكن العجوز قادراً إلا على رؤية جانب واحد ضد قوة الشباب وجرأته إلا أنه تمتع بحكمة سنوات الخبرة الطويلة وحمل ندوب هذه الخبرة على خطمه وعينه المفقودة. لقد نجا من معارك عديدة فلم يتردد لحظة فيما يجب فعله.

بدأت المعركة بتكافؤ لكنها لم تستمر على هذه الشاكلة. لم يكن هناك طريقة لمعرفة النهاية لان القائد الشاب إنضم للعجوز وهاجما الصغير معاً حتى تمكنا من تدميره. حاصرته الأفكاك من الجانبين فقد نُسيت أيام الصيد والرفقة والفريسة التي اصطادوها والمجاعة التي عانوها. كل ذلك أصبح جزءاً من الماضي. والآن حان وقت المعركة من أجل الحب. وهي معركة أشد شراسة وقسوة من إيجاد الطعام.

جلست الذئبة على الثلج تراقب ما يحصل برضى واضح فقد جاء يومها أخيراً حين انتفضت الذئاب الثلاثة وتلاقت أنيابها ممزقة أجساد بعضها من أجل تملكها.

في شأن الحب استسلم الصغير الذي جعل من نيل حبها أول مغامراته وخسر حياته بينما وقف خصميه على جانبيه.

كان العجوز حكيماً للغاية. وحين أدار القائد الشاب رأسه ليلعق جرحاً في كتفه بدت رقبته مكشوفة فرأى خصمه الفرصة سانحة أمامه. لذا اقترب العجوز منه خافضاً

رأسه وأطبق فكيه على رقبته مسبباً جرحاً عميقاً ومزقت أنيابه وريد الحنجرة ثم قفز مبتعداً.

زمجر الشاب مرعوباً لكن زمجرته تحولت لسعال بغرغرة فقفز وهو ينزف نحو العجوز وتقاتلا بينما غادرته الحياة. حتى إنعكس ضوء النهار في عينيه وأصبحت ضرباته أضعف تدريجياً.

طوال الوقت جلست الذئبة مبتسمة. كانت سعيدة بطريقة غريبة فقد كانت تلك طريقة الحب في البرية. تراجيديا الجنس للعالم الطبيعي لكنها تراجيديا لمن يموت فقط ونصراً وإدراكاً لمن ينجو منها.

رقد القائد الشاب على الثلج دون حراك. فمشى العجوز متلصصاً حتى وصل الذئبة. وحملت ملامحه شعوراً بنصر يصاحبه الحذر. فقد كان يتوقع صدًّا منها لكن لمفاجأته لم تظهر الذئبة أسنانها بغضب بل قابلته بود لأول مرة. ومست أنفها لأنفه ثم قفزا في الأنحاء يلعبان على طريقة الجراء. وتصرف العجوز بسخف متناسياً خبرته الطويلة وسنوات عمره.

نسي كلاهما الخصومات الفائتة وحكاية الحب التي كتبت بالدم على الثلج إلا في مرة واحدة حين توقف العجوز ليلعق جراحه المتصلبة مظهراً أسنانه بزمجرة عنيفة وناصباً شعر رقبته وكتفيه بحركة لا إرادية. كما غرس مخالبه في الأرض ليقف باتزان أكبرلكنه سرعان ما قفز خلف الذئبة التي كانت تستدرجه بغنج لملاحقتها عبر الغابة.

بعد ذلك ركضا معاً كصديقين عثرا على تفاهم مشترك. ومرت الأيام وهما يصيدان فرائسهما ويقاتلان ويتناولان الطعام معاً.

بعد فترة بدأت الذئبة تشعر بقلق غريب وبدأت تبحث عن شيء لم تستطع العثور عليه. فكانت تنجذب للفراغات تحت الأشجار الواقعة وقضت وقتاً طويلاً تحشر أنفها بين الشقوق التي كونها تساقط الثلج على الصخور وفي الكهوف المشرفة على الضفاف.

لم يكن العجوز مهتماً بما تفعل وغالباً ما استلقى على الأرض مراقباً حركتها ريثما تكمل استطلاعها حتى تستعد للمواصلة.

لم يبقيا في مكان واحد بل سافرا عبر البلاد حتى عادا إلى نهر ماكنزي. وسارا بمحاذاة مجراه على أن يتركاه كل فترة للبحث عن فرائس قرب الممرات المائية التي تصب فيه لكنهما عادا إلى النهر دائماً.

التقيا أحياناً بذئاب أخرى على شكل أزواج من الذكور والإناث. لكن لم يبد أي من الطرفين سعادة او رغبة بالعودة إلى تشكيلة القطيع. كما التقيا ذكورا تسير منفردة بين الحين والآخر. وكان هؤلاء يصرون على الانضمام لهما. لكن العجوز إنزعج من الأمر وقاومه بينما تقف الذئبة إلى جانبه بارزة أسنانها ومزمجرة حتى يبتعد الذئب الغريب ويستمر بطريقه الموحش.

في إحدى الليالي وقف العجوز رافعاً خطمه وناصباً ذيله تحت ضوء القمر واتسعت فتحات أنفه تتربص رائحة الهواء حتى أنه رفع قدمه بطريقة الكلاب لكنه لم يشعر بالرضى واستمر بتشمم الهواء. حاول فهم الرسالة التي حملتها الأجواء. أما شريكته فقد أخذت نفساً واحداً لامبالياً ومشت مطمئنة. فتبعها العجوز بارتياب ولم يجد بداً من التوقف المفاجئ كل فترة لتفقد الأمر.

تسللت الذئبة بحذر على حافة فضاء رحب بين الأشجار. ثم وقفت لفترة ريثما تتبعها العجوز متيقظ الحواس. كان الشك اللانهائي يشع من كل شعرة في جسده.

وقفا ينظران ويستمعان ويشمان الهواء. كان هناك صوت كلاب تتشاجر وصرخات رجال غاضبة واصوات نساء حادة موبخة كما سمعا صرخة طفل حادة عالية. ولم يريا سوى ألسنة النار الملتهبة والاجساد الضخمة تتحرك حاجبة ضوءها بين الحين والآخر والدخان المعلق في الهواء الهادئ.

شما رائحة المخيم الهندي والذي حمل قصة تعذر فهما على العجوز لكن الذئبة عرفت كل تفصيلة منها. فتملكها شعور غريب جعلها تتقلص بترقب متزايد لكن العجوز بقي حذرا متشككاً حتى استدارت ممسدة بخطمها على رقبته تطمئنه. ثم نظرت إلى المخيم مرة أخرى.

سكن أسى من نوع ما تعابيرها لكن ترقبها لم يرتبط بالجوع المعتاد بل برغبة دفعتها للتقدم نحو المخيم والاقتراب من النار واللعب مع الكلاب والتدافع متجنبة أقدام الرجال.

تحرك شريكها بنفاد صبر فعاد القلق وعرفت مجدداً تلك الحاجة الملحة للعثور على الشيء الذي بحثت عنه. وعادت تمشي نحو الغابة مما أزاح الهم عن كاهل العجوز. ثم مشى خلفها حتى أصبحا ضمن نطاق الحماية التي وفرتها الأشجار.

بينما يبتعدان دون إصدار صوت كما لو كانا خياليين لا أكثر شاهدا آثار أقدام على الثلج فأنزلا أنفيهما يتتبعانها.

ركض العجوز بحذر تتبعه شريكته. وكانت أطرافهما متباعدة على الثلج الناعم كالمخمل. ثم رأى حركة جسد أبيض وسط بياض الثلج. كانت مشيته المنزلقة رشيقة لكنها لا تقارن بسرعة جريه الآن. فقد رأى الشكل الأبيض يهرع أمامه وركض ملاحقاً إياه عبر طريق تحيطه شجيرات الصنوبر اليافعة.

تمكن العجوز من رؤية نهاية الطريق يضيئها نور القمر. فاقترب بسرعة متزايدة من الشكل حتى أصبح على وشك القفز عليه وغرس أسنانه في جسده لكن الشكل الذي كان أرنباً معلقاً في الهواء رقص بقفزة عالية بعيداً عنه ولم يهبط أبداً.

قفز العجوز مزمجراً ثم هبط على الأرض. كان يهدد الطريدة التي لم يعرف كنهها لكن الذئبة قفزت بخفة متجاوزة شريكها ووقفت للحظة تستعد قبل أن تقفز مجدداً نحو الأرنب الراقص. وكررت حركتها عدة مرات دون أن تنال طريدتها فقد أغلقت اسنانها على الفراغ بفرقعة معدنية.

بدأ شريكها ينزعج من محاولاتها اليائسة فقفز بدوره قفزة عظيمة مكنته من إغلاق فكيه حول جسد الأرنب وجلبه إلى الأرض لكن في اللحظة الذي مست أطرافه الأرض رأى بعينه الواحدة شجيرة صنوبر تنحني نحوه كما لو كانت ستسقط فوقه. فأفلت الفريسة وقفز إلى الوراء مبتعداً عنها وانتصب شعره وزمجر بغضب جامح لكن الشجيرة عادت إلى الفور إلى محلها منتصبة وقفز الأرنب مبتعداً مرة أخرى.

كانت الذئبة غاضبة فغرست أنيابها في كتف شريكها مؤنبة. وضربها بدوره بقوة مقاوماً وغير عالم بسبب غضبها. وبخوف أكبرهاجم جانب خطمها مسبباً جرحاً عميقاً.

كانت ردة فعله غريبة بنفس القدر بالنسبة لها فقفزت نحوه مزمجرة بسخط. ثم اكتشف العجوز خطأه وحاول إرضائها مديراً ظهره ليتلقى الضربات الغاضبة على كتفه حينها قفز الأرنب مرة أخرى من فوقهما.

جلست الذئبة على الأرض. وقفز العجوز الذي انشغل عن خوفه من الشجيرة الغريبة بخوفه من شريكته نحو الأرنب. وهبط مجدداً يحمل الطريدة بين فكيه مبقياً نظره على الشجرة. حين تبعته كما فعلت سابقاً انحنى مستسلماً لضربتها لكنه قبض على الأرنب بإحكام في فمه.

ظلت الشجيرة تتحرك فوقه كلما تحرك لكنها توقفت عن الحركة كلما توقف. وبذلك استنتج أن من الأفضل البقاء ثابتاً. لكن دم الأرنب الدافئ في فمه أثار شهيته.

أخيراً أنقذته الذئبة من معضلته بأخذ الأرنب منه بينما تترنح الشجيرة فوقهما مهددة. وقطعت رأس الحيوان الصغير بهدوء فعادت الشجيرة على الفور إلى الموقع الذي قدرت لها الطبيعة النمو فيه ولم تزعجهما مجدداً بينما التهما الأرنب الذي اصطادته الشجيرة العجيبة لهما.

كان هناك طرق أخرى حيث علقت الأرانب في الهواء وتمكن الشريكان من التنقيب عنها جميعاً. حيث قادت الذئبة الطريق بينما يتبعها العجوز مراقباً ومتعلماً طريقة السرقة من الأفخاخ. وهي معرفة سيستفيد منها في الأيام القادمة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

العرين

بقي الذئبان ليومين بالقرب من المخيم الهندي. رغم توق العجوز للمغادرة إلا أن شريكته تملكها شعور بصعوبة الابتعاد.

في أحد الأيام ظهر سلاح وأطلق عياراً نارياً أصاب جذع شجرة على بعد إنشات من ذي - العين - الواحدة. وبعد تلك الحادثة لم يتردد الاثنان في الهرب مبتعدين حتى أصبحا على بعد أميال من الخطر.

حين أصبحا على بعد ميلين لا أكثر عادت الذئبة إلى بحثها فقد أصبحت ثقيلة الجسد وبطيئة الحركة. حتى أنها استسلمت مرة كانت تلاحق بها أرنباً لأمسكته بسهولة في أيامها الماضية وجلست على الأرض تستريح. حينها جاء العجوز ومس خطمه لرقبتها لكنها زمجرت بحركة عنيفة فقفز مبتعداً لتجنب أسنانها. فقد أصبح أكثر صبراً وعطفاً من أي وقت مضى.

أخيراً عثرت الذئبة على الشيء الذي بحثت عنه طويلاً بينما يسيران على بعد أميال من مجرى نهر ماكنزي الذي أصبح صلداً من منبعه حتى مصبه.

وصلا ضفة طينية معلقة فاستدارت الذئبة ومشت عبر الضفة التي نضفتها العواصف الأخيرة وذوبان الثلوج ووجدت كهفاً قد تشكل عند صدع ضيق. ثم توقفت عند مدخل الكهف وبدأت تتفقد جدرانه بحذر مضطرة للانحناء لمسافة ثلاثة أقدام تقريباً قبل أن تمشي داخله في القسم الأكبر والذي برز من بين الجدران الطبيعية الناعمة. حين وقفت رأت أن السقف يرتفع فوق غرفة دائرية صغيرة بقطر ستة أقدام تقريباً.

استمرت الذئبة تتفحص المكان بدقة بينما خرج العجوز ووقف قرب المدخل يراقبها من بعيد. ثم أنزلت رأسها تتشمم الأرض قرب أقدامها المتزاحمة ودارت في حلقة حول البقعة عدة مرات حتى جلست أخيراً مكورة جسدها في المكان الذي اختارته وزمجرت بارتياح موجهة رأسها نحو المدخل.

ضحك العجوز بأذنين منتصبتين. واستطاعت الذئبة رؤية ذيله كظل يتحرك بمرح وسط الضوء القادم من المدخل فحركت أذنيها برقة إلى الخلف حتى مس طرفاها المدببان رأسها من الخلف للحظة بينما فتحت فمها ودلت لسانها بحركة مسالمة لتعبر عن سعادتها وراحتها.

كان العجوز جائعاً وينام بشكل متقطع فقد استيقظ بين فترة وأخرى لينظر إلى شمس نيسان المشرقة والمكان من حوله. وحين غفا سمع صوت تقطر ماء حفيف فنهض وأصغى السمع مترقباً.

شعر بالعالم الشمالي العائد للحياة يناديه. الحركة العائدة تدريجياً في هواء الربيع والعصارة التي تتحرك في باطن الأشجار والبراعم التي تتفتح ممزقة الأصفاد التي

فرضها عليها الشتاء. حين نظر لشريكته بقلق لم تظهر نية للنهوض فعاد ونظر إلى الخارج حيث حلقت نصف دزينة من الطيور الثلجية في مدى رؤيته. ثم فكر بالنهوض لكنه عاد واستلقى على الأرض بعد أن ألقى نظرة نحو شريكته وغفا مرة أخرى.

سمع العجوز فجأة صوت غناء حاد. مس أنفه بطرفه مرة واثنتين ثم استيقظ ليرى بعوضة وحيدة تأز في الهواء قرب طرف أنفه. كانت بعوضة بالغة قد تجمدت في باطن قطعة خشب جامدة طوال الشتاء وقد أطلق سراحها أخيراً بفضل الشمس.

لم يستطع العجوز مقاومة نداء العالم والجوع له بعد الآن فزحف نحو شريكته وحاول إقناعها بالنهوض لكنها زمجرت نحوه فغادر وحيداً متجهاً نحو ضوء النهار الساطع. وشعر بسطح الثلج ناعما تحت أقدامه ووجد المسير صعباً.

اتجه العجوز نحو المجرى المائي المتجمد حيث مازال الثلج المضلل بالأشجار صلباًكالكريستال. وبعد ثماني ساعات عاد عبر الظلام أشد جوعاً مما قبل.

كان قد رأى فريسة لكنه لم يتمكن من اصطيادها. ووقف عند مدخل الكهف بشعور غريب بالشك فقد وصلت لأسماعه أصوات غريبة باهتة من الداخل. لم تكن الأصوات تعود لشريكته لكنها بدت مألوفة بطريقة ما.

دخل الكهف بحذر واستقبلته الذئبة بزمجرة محذرة فأطاع أمرها وبقي على مسافة آمنة لكنه تطلع للأصوات الأخرى التي بدت كنحيب وأصوات لعاب ضعيفة. استلقى قرب المدخل ونام لفترة.

في الصباح أظهر الضوء الخافت العرين بوضوح. فبدأ العجوز يبحث عن مصدر الأصوات.

كانت هناك نبرة غيورة في زمجرة شريكته جعلته أكثر حذراً لكنه تمكن من رؤية خمسة أجساد صغيرة قرب جسدها محتمية بها. كانت الأشكال ضعيفة وعاجزة لكن لأصواتها تذمر واضح ولم تكن عيونها قد رأت الضوء بعد.

فوجئ العجوز رغم أنها لم تكن المرة الأولى التي يحدث بها هذا الأمر في سنوات حياته الطويلة. لقد حصل عدة مرات في الواقع لكنه يفاجأ كل مرة كما لو كانت المرة الأولى.

نظرت شريكته نحوه بقلق وأصدرت صوت رغاء خافت بين الحين والآخر. ثم تحول رغاؤها لزمجرة حادة في حنجرتها.

لم تذكر الذئبة حصول الأمر معها لكن غريزتها احتوت تجارب جميع أمهات الذئاب من قبلها. وعرفت ذكرى اباءا تأكل ذريتها العاجزة وتجلت الذكرى في خوف جعلها تمنع العجوز من المجيء لتفحص الجراء التي أنجبتها منه.

شعر العجوز بدوره بحافز ملح قد توارثه من جميع أباء الذئاب من قبله. ولم يتساءل عن مصدر هذه الغريزة أو يحاول تفسيرها فقد كانت جزءا طبيعيا من وجوده كأي

شيء آخر. وعلم بأن عليه أن يطيع أمر شريكته ويبتعد عن العائلة الجديدة. وأن عليه تتبع مسار الفريسة الذي أصبح مكان إقامته الجديد.

انقسم مجرى الماء إلى مجريين على بعد خمسة أو ستة أميال من العرين فتفرع أحد المجريين عبر الجبال إلى جهة اليمين وتفرع الآخر إلى جهة اليسار.

عند بداية المجرى الأيسر رأى العجوز آثار أقدام حديثة فتشمم الأرض متتبعاً اتجاهها بنظره. كانت الآثار أكبرمن تلك التي صنعتها أقدامه فعرف بأن تتبعها لن يجدي في الحصول على اللحم الوفير الذي يرغب به. لذا إستدار بتأن وانطلق بمحاذاة المجرى الأيمن.

بعد أن سار العجوز لنصف ميل سمع صوت أسنان تقضم فمشى متسللاً تجاه مصدر الصوت ليجد حيوان نيص يقف مقابل جذع شجرة ويحاول قضمه بأسنانه. تقرب منه بحذر لكنه لم يملك أملاً باصطياده فقد عرف هذا النوع من الحيوان لكنه لم يره بعيداً في الشمال من قبل ولم يتناوله في حياته.

تعلم العجوز منذ وقت طويل بأن الحياة قد تمنح فرصة أو مصادفة حسنة أحياناً لذا استمر بالتقرب منه أملاً بحصول شيء ما. لم يعرف كنه الشيء لأن الأمور لم تكن دائماً تحدث وفق التوقعات مع الأحياء.

بدأ الحيوان يكور جسده وبرزت أبره الحادة الطويلة في كل اتجاه مغلقة الطريق على أي هجوم. لقد حاول العجوز في شبابه اصطياد حيوان مشابه وتقرب منه أكثر من اللازم لكنه شعر بلسعة ذيل النيص تلدغ أنفه وتسبب له ألما حارقا لأسابيع وقتها حتى أخرج الإبرة من أنفه أخيراً.

هكذا استلقى يتذكر خبراته السابقة. وأبقى أنفه على بعد قدم كامل من النيص ليبقى بعيداً عن مدى الذيل. وانتظر في هدوء تام علّ الحيوان يخفض دفاعاته وتسنح له فرصة لغرس مخلبه في الجزء الطري من الحيوان.

بعد نصف ساعة من الانتظار زمجر العجوز بغضب نحو الكرة المحكمة الإغلاق. ولم يرد تضييع المزيد من الوقت فقد كانت غريزة الابوة المتيقظة تدفعه بإلحاح للعثور على اللحم لذا انطلق مكملاً مسيره بمحاذاة مجرى الماء.

في منتصف النهار رأى طائر برتمجان وسط فسحة بين الأشجار حيث جلس على غصن على بعد أقل من قدم من أنف العجوز.

رأى الخصمان بعضهما. وعلى الفور حاول الطير قليل الحيلة التحليق بعيداً لكن العجوز تمكن من ضربه بأحد أطرافه وإسقاطه أرضاً. وشعر باللحم الطري يتمزق بين أسنانه والعظام الضعيفة تتكسر فجلس على الأرض يتناول طعامه.

تذكر العجوز مهمته فجأة فحمل طريدته بين فكيه عائداً من حيث جاء.

ركض بخفة كما لو كان ظلاً يتحرك على الطريق متفحصا المكان من حوله حين رأى آثار الحيوان الكبيرة التي عثر عليها في الصباح.

سار العجوز مترقباً لقاء صاحب الآثار وتتبع تعرجات مجرى الماء حتى وصل انحناءة واسعة حول صخرة. حينها رأى بنظره الخاطف شيئاً جعله ينحني على الأرض.

كانت صاحبة الآثار أنثى وشقٍ كبيرة. وكانت تربض كما فعل العجوز سابقاً مراقبة الكرة الشوكية.

لو كان العجوز شبيهاً بظل من قبل فقد أصبح الآن أقرب لشبح ظل لا أكثر. فقد تسلل ولف حول المكان حتى اقترب من مواجهة الحيوانين الساكنين في صمت رهيب واضعاً طريدته جانبه ومستلقياً على الأرض وثانياً جسده مراقباً لعبة القدر القاسية من بين شجيرات الصنوبر الواطئة.

تشبث الحيوانان بالحياة. فقد كانت اللعبة تقضي بنجاة أحدهما إذا ما أكل خصمه ونجاة الآخر إذا ما تجنب أن يؤكل. أما العجوز فقد لعب دوره بالمراقبة من بين الظلال وانتظار فرصة عجيبة ليحصل على طريدة تضمن نجاته.

مرت نصف ساعة ثم ساعة كاملة. ولم يحدث شيء.

بدت الكرة الشوكية أشبه بحجر. وبدت أنثى الوشق كتمثال. أما العجوز فبدا كما لو كان ميتاً.

لكن كان الثلاثة أكثر حياة من أي وقت مضى بينما يترقب كل منهم بتشنج قلق حد الألم تقريباً حتى تحرك العجوز قليلاً ونظر بتوق متزايد فقد حصل شيء ما أخيراً.

بدأ حيوان النيص ببسط جسده ظاناً أن عدوه قد غادر المكان. تدريجياً وبحركة دقيقة لا ارتعاش فيها فكت الكرة وتحولت لجسد طويل مستقيم. شعر العجوز بلعابه يسيل رغماً عنه وهو يحدق باللحم الذي يتجلى كوجبة أمامه.

لم يكن النيص قد أكمل إنبساطه حين اكتشف عدوه رابضاً يراقبه. في اللحظة ذاتها قفزت أنثى الوشق بهجمة سريعة كصاعقة وضربت بطرفها ذي المخالب المنحنية الحادة بطن الفريسة الطرية فصدر صوت تمزق سريع. ولولا أن النيص قد لاحظ عدوه قبل لحظة من الهجوم، ولولا أنه لم يكمل إنبساطه قبل أن يتلقى الضربة، لانتصرت أنثى الوشق باللعبة لكن الحيوان المتألم أطلق حركة خاطفة من ذيله وغرس أبر حادة في طرف عدوه بينما يبتعد عنه.

حدث كل ذلك بلمح البصر - الضربة والرد عليها وصرخة الطريدة المتألمة وعواء مطاردتها المتفاجأة ـ.

انتصب العجوز على قوائمه من شدة الحماس مقوسا ذيله في الهواء.

قفزت الأنثى الشبيهة بقطة عملاقة نحو الطريدة بنفاذ صبر. وحاول النيص باضطراب واضح العودة لتكوره دون جدوى. فاستمرت الأنثى بتوجيه الضربات له صارخة بألم واستمر بدوره بضربها بذيله.

ثم بدأت الأنثى تتراجع محاولة إبعاد السهام الحارقة التي جلعت فمها يبدو كوسادة أبر وحشية عملاقة. ومسدت أنفها بطرفها وغرسته في الثلج وفركته بأغصان الأشجار المحيطة بها بينما تتحرك في جميع الاتجاهات بنوبة هلع من الألم والخوف. واستمرت بالعطاس وتحريك ذيلها الكعبي الصغير برعشات عنيفة. ثم توقفت وهدأت للحظة طويلة حتى قفزت محلقة في الهواء ومصدرة صرخة رهيبة.

لم يستطع العجوز الحؤول دون إنتصاب كل شعرة من جسده وهو يراقب هروبها على الطريق صارخة مع كل خطوة.

حين اختفى الهيجان الذي سببته أخيراً في المسافة وابتعد الصوت تحرك العجوز من مخبأه ومشى بحذر كما لو كان الثلج مغطى بإبر النيص المستعدة لغرس ذاتها في باطن أقدامه.

كان الحيوان يصرخ غاضباً مبرزاً أسنانه الطويلة. فقد حاول التكور مجدداً لكنه لم ينجح بالعودة للكرة المحكمة الإغلاق التي كان عليها سابقاً بعد أن تمزقت عضلاته ولم يعد يقوى على فعل ذلك وكاد جسده ينقسم إلى نصفين بينما ينزف بغزارة.

ارتشف العجوز الثلج المغطى بالدم ومضغه وابتلعه متذوقاً ففتح الطعم شهيته وعاد جوعه إليه لكنه لم ينسَ حذره الذي نما بخبرته الطويلة.

أخيراً استلقى العجوز يشاهد النيص يصر بأسنانه ويصرخ بحدة أحياناً.

بعد فترة قصيرة لاحظ العجوز تدلي الأبر وارتجاف الحيوان الذي بدأ وانتهى فجأة. كما كان هناك صرير أسنان ناتج عن مقاومة أخيرة قبل أن يسترخي جسده ولم يتحرك بعد ذلك.

بطرف حذر بدأ العجوز يبسط جسد جائزته حتى فرده على طوله ثم قلبه على ظهره. وحين لم يحدث شيئاً تأكد من أنه قد فارق الحياة فتفحصه لمرة أخيرة ثم حمله بين فكيه وجره مديرا رأسه لتجنب الخطو على الكتلة ذات الأشواك.

عاد العجوز إلى حيث ترك الطير مدركاً ما يجب فعله. فأسقط طريدته الأخيرة ليتناول الطير ثم حمل النيص وعاد أدراجه متجها إلى المنزل.

حين وصل العجوز الكهف رفقة حصيلة يومه تفحصته الذئبة بحذر. ثم رفعت خطمها نحوه ولعقت رقبته لكنها بعد لحظات عادة لإبعاده عن جرائها بزمجرة محذرة بدت أقل قسوة من المعتاد وتحمل نبرة اعتذار.

كان خوفها الغريزي من والد نسلها يقل تدريجياً فقد تصرف كأب جيد ولم يظهر تلك الرغبة المشينة لإفتراس صغاره التي جلبتها مؤخراً إلى العالم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-3-

الجرو الرمادي

كان أحد الحيوانات الخمسة الصغيرة جرواً رمادياً مختلفاً عن أشقائه. فقد حملت البقية في شعر جسدها لمحة حمراء ورثتها عن والدتها الذئبة. لكنه الوحيد الذي شابه أباه في هذه النقطة. أي الوحيد الذي ورث شكل الذئاب التقليدي. بل أنه كان نسخة من والده العجوز فيما عدا امتلاكه عينين بدل عين والده الوحيدة.

لم تكن عيناه قد فتحتا تماماً بعد لكنه رأى بوضوح. وقبل ذلك استعمل حواس الشم واللمس والتذوق ليتعرف على عالمه. فقد عرف أختيه وأخويه جيداً وبدأ اللعب معهم بطريقة ضعيفة مضطربة والشجار أحياناً. وأصدر صوت خرخشة غريباً باهتزاز حنجرته بشغف كبير بما يسبق الزمجرة. وقبل أن تفتح عيناه تماماً تعرف على رائحة والدته وخطمها ولمستها الشبيهة بشلال من العطف والدفء والطعام السائل. فقد امتلكت والدته لسانا ناعما يمسده حتى يهدأ وتمرره على جسده الصغير لتدفعه لاحتضانها حتى يغط في النوم.

قضى أغلب الشهر الأول من حياته في النوم لكنه استطاع الآن رؤية العالم حوله وبقي مستيقظاً لفترات أطول. وبدأ تعلم المزيد عن عالمه القاتم لكنه لم يدرك قتامته لأنه لم يعرف أي عالم آخر ولم ترَ عيناه أي شيء غير الضوء الخافت في عالمه الصغير.

كانت حدود عالمه تتمثل في جدران العرين. وبنفس الطريقة لم يدرك وجود عالم واسع في الخارج لذا لم يزعجه ضيق عالمه لكنه اكتشف أن أحد جدران عالمه مختلف عن البقية. فقد كان هذا الجدار مدخل الكهف من حيث يأتي الضوء. واكتشف ذلك الاختلاف قبل أن يمتلك فكره الخاص وإرادته الواعية فمثل له شيئاً مثيراً للاهتمام قبل أن يفتح عيناه ويراه.

كان الضوء القادم من الجدار يضرب أجفانه المغلقة ويجعل أعصابه البصرية تخفق مقابل الضوء القادم على شكل بريق متقطع دافئ اللون ومريح بشكل غريب. وتاقت الحياة في كل ذرة من جسده لهذا الضوء ودفعته للتقدم منه كما تدفع كيمياء النبات البارعة النبتة نحو ضوء الشمس.

في البدء كان يزحف نحوه قبل أن يعي وجوده وكذلك فعل أخوته لكن أحداً منهم لم يزحف نحو الجدران المظلمة في الداخل. فقد جذبها الضوء كما لو كانت كيمياء الحياة التي كونتها راغبة به وعالمة بضرورته للوجود وزحفت أجسادها الصغيرة العمياء دون إرادة منها كما لو كانت أغصان شجرة كرمة.

لاحقاًعندما طور كل منها شخصيته ووعيه الخاص وأصبح واعياً لرغباته ازداد الانجذاب نحو الضوء. فكانت الصغار تزحف نحو المدخل وتتمدد مقتربة منه بينما تحاول الوالدة إبعادها.

تعرف الجرو الرمادي في هذه الفترة على جوانب أخرى من والدته بجانب لسانها العطوف الناعم. فقد اكتشف وهو يصر على التقرب من الضوء أن لها أنفاً يوبخه بحركة حادة واكتشف لاحقاً طرفاً يوقف حركته بدفعة لطيفة لكنها دقيقة. وتعلم معنى الأذى وكيفية تجنبه. وذلك بعدم المخاطرة أولاً وبتجنب الضربات والتراجع إلى الخلف إذا ما اضطر لمواجهة الأذى.

كانت تلك أفعالاً واعية ناتجة عن تعرفه على العالم. قبل ذلك كان يتجنب الأذى لا إرادياً كما إنجذب نحو الضوء لا إرادياً. أما الآن فقد أصبح يتجنب الأذى عارفاً أنه أذى.

كان جرواً صغيراً قوياً كأخوته وقد كان ذلك متوقعاً فهم نسل حيوان لاحم عاش يقتل ويتغذى على اللحم. تناولوا في بداية حياتهم حليباً ناتجاً عن تناول اللحم. ثم تناولوا اللحم نفسه بعد أن مضغته الوالدة وهضمته وتقيأته لأطفالها الذين أصبحوا عبئاً على أثدائها.

علاوة على ذلك كان الجرو الرمادي أقوى أخوته. وكان أول من أصدر صوتاً أعلى من البقية وأول من مر بنوبات غضب ضئيلة أشد رهبة من الآخرين وأول من تعلم حيلة قلب أحد أخوته بضربة ماكرة من طرفه وأول من أمسك أحدهم من أذنه وسحبه وزمجر عبر فكيه المغلقين بإحكام وأول من سبب المشاكل لوالدته حين حاولت جاهدة إبقاءه بعيداً عن مدخل الكهف.

ازداد اهتمامه بالضوء يوماً بعد الآخر. وأصبح دائم الاقتراب من المدخل بعد خوض مغامرة بقطع مسافة ياردة كاملة ودائم العودة بفعل ضربات والدته لكنه لم يعلم أنه مدخل. فلم يكن يعرف شيئاً عن المداخل والطرقات التي تنقلك من مكان لآخر ولم يعرف حتى وجود أماكن أخرى أو طرق للوصول إليها. لذا فقد كان المدخل بالنسبة له مجرد جدار أخر لكنه من ضوء. كما كانت الشمس بالنسبة لمن يسكن العالم الخارجي.

جذبه الضوء كما يجذب لهيب الشمعة حشرة عثة وكان دائم السعي للوصول إليه. بينما كانت الحياة تتوسع برقة داخله وتدفعه نحو الضوء فقد عرفت الحياة في الضوء طريقا للنجاة لكنه لم يدرك ذلك ولم يعرف أن هناك مكاناً للذهاب إليه.

لاحظ الجرو شيئاً غريباً في ذلك الجدار. فقد امتلك والده طريقة للمشي عبره والاختفاء. وقد عرف في والده الساكن الآخر الوحيد الشبيه بوالدته والذي ينام قرب الضوء ويجلب اللحم لكنه لم يفهم كيف قام بتلك الخدعة. ورغم أن والدته لم تسمح له بالاقتراب من جدار الضوء. إلا أنه تمكن من الوصول للجدران الأخرى وعرف فيها حاجزاً صلداً يؤلم أنفه الطري إذا ما حاول اختراقه. وبعد عدة مغامرات عرف أنها مؤذية وتعلم تركها وشأنها.

لم يفكر بمعنى الأمر لكنه تقبل أن الاختفاء عبر الجدار غرابة خاصة بوالده كما كان الحليب واللحم المهضوم خاصية تعود لوالدته.

في الواقع لم يكن الجرو الرمادي قادراً على التفكير كما يفعل البشر على الأقل. لقد عمل دماغه بطرق باهتة لكن إستنتاجاته كانت دقيقة وواضحة كالتي يصل إليها الإنسان. فقد امتلك طريقة لتقبل الأمور دون التساؤل عن مصدرها وسببها. وكان هذا الأمر نوعاً من التصنيف.

لم ينزعج أبداً لعدم معرفته سبب حدوث شيء ما فقد اكتفى بمعرفة كيفية حدوثه. وحين ضرب أنفه بالجدار الخلفي عدة مرات تقبل حقيقة أنه لن يختفي عبره وحسب. كما تقبل بالطريقة ذاتها حقيقة أن والده قادر على فعل ذلك لكنه لم يمتلك رغبة بالعثور على سبب الاختلاف بينه وبين والده. فلم يكن المنطق ولا الفيزياء جزء من تكوينه العقلي.

كأغلب مخلوقات البرية اختبر المجاعة في وقت مبكر من حياته. فقد جاء وقت لم يعد هناك لحم ولم تعد والدته تمنحه الحليب.

في بداية الأمر بكت الجراء وتذمرت لكنها نامت أغلب الوقت. بعد ذلك تحول النوم لإغماء جوع ولم يعد هناك شجار أو مشاحنات ولا نوبات غضب ومحاولات للزمجرة. كما لم يعد هناك مغامرات للوصول إلى الضوء بل نامت الجراء بينما تومض الحياة في أجسادها وتختفي تدريجياً.

يئس العجوز فغادر إلى أماكن بعيدة باحثا طويلاً عن الطعام ولم ينم إلا قليلاً في العرين الذي أصبح مزرياً وبائساً. وغادرت الذئبة بدورها تاركة جراءها للبحث عن اللحم.

في الأيام الأولى بعد ولادة الصغار اعتاد العجوز الذهاب إلى المخيم الهندي وسرقة الأرانب من الأفخاخ لكن ذوبان الثلج وفتح المجاري المائية دفع البشر لمغادرة المخيم وبذلك لم يعد مصدراً للغذاء.

حين عاد الجرو الرمادي للحياة وبدأ يهتم بالجدار مجدداً وجد سكان عالمه أقل مما قبل. لم يتبقَ سوى أخت واحدة أما البقية فقد اختفوا جميعاً. ثم وجد نفسه يكتسب القوة ويعود للعب وحيداً بينما لم تعد أخته ترفع رأسها أو تتحرك في الأرجاء. وحين بدأ جسده الصغير يمتلئ باللحم الذي تناوله كان الطعام قد جاء متأخراً بالنسبة لأخته. فنامت أغلب الوقت كهيكل عظمي بالغ الصغر يغطيه الجلد وغادرتها الحياة شيئاً فشيئاً حتى إختفت تماماً.

ثم جاء وقت لم يعد يرى فيه والده يظهر من الجدار أو ينام قرب المدخل وحصل ذلك في نهاية مجاعة أخرى أقل وطأة.

عرفت الذئبة سبب غياب العجوز لكنها لم تمتلك طريقة لإخبار صغيرها ما رأت. فقد كانت تبحث ذات يوم عن اللحم بمحاذاة المجرى الأيسر لتفرع النهر حين رأت آثار العجوز وتتبعتها لترى ما تبقى منه في نهاية الأثر. كان هناك آثار معركة وآثار تراجع أنثى الوشق لعرينها بعد أن ربحت المعركة. قبل العودة وجدت عرين الوشق وعلمت أن الأنثى تسكنه فلم تجرؤ على الدخول.

بعد ذلك تجنبت الذئبة المجرى الأيسر لأنها علمت بوجود مجموعة من القطط الصغيرة في العرين. وعرفت في الوالدة كائناً عنيفاً حاد المزاج ومقاتلاً شرساً. قد تتمكن نصف دزينة من الذئاب على اجبارها على الهرب نحو شجرة بينما تصرخ وتتعذب لكن الأمر مختلف إذا ما واجهت هذا الحيوان وحيدة خصوصاً إذا ما كان لها أطفال جائعون لترعاهم.

لكن البرية هي البرية والأمومة هي الأمومة. ودائماً ما تتغلب غريزة الحماية على أي شيء آخر في البرية وخارجها. وسيجيء وقت تضطر الذئبة فيه لخوض مغامرة قرب المجرى الأيسر والعرين بين الصخور. وتواجه غيظ أنثى الوشق لمصلحة جروها الرمادي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

جدار العالم

في الوقت الذي بدأت فيه والدة الجرو الرمادي بمغادرة الكهف في مغامرات الصيد تعلم القانون الذي يمنعه من الاقتراب من المدخل. فلم يكن هذا مجرد قانون لقن له بشكل صارم من قبل طرف والدته وأنفها بل أن غريزة الخوف بدأت تتطور لديه.

لم يواجه في حياته القصيرة أي شيء يسبب له الخوف داخل الكهف لكن الخوف جزء منه. فقد ورثه من أسلافه البعيدة عبر الاف الحيوات. أنه إرث حصل عليه من العجوز والذئبة مباشرة لكنهما بدورهما قد ورثاه عبر جميع أجيال الذئاب التي رحلت قبلهما.

الخوف هو إرث لا يهرب منه أحد في البرية ولا يستبدله باللحم. لذا فقد عرف الجرو الخوف رغم عدم معرفته بمسبباًته. وربما تقبل الحدود كأحد قيود حياته وحسب لأنه تعلم بالفعل وجود قيود كهذه.

عرف الخوف وحينما لم يستطع تجاوزه عرف قيوده. فعرف حدود الكهف الصلدة المتمثلة بالجدران ودفعة والدته الحنونة وضربة طرفها. وعرف الجوع الذي لم يشبع بعد مجاعات عدة.

كل ذلك ولد فيه معرفة بأن الحرية ليست مطلقة في العالم. وأن هناك قيود وحدود للعالم. هذه الحدود والقيود قوانين عليه طاعتها كي يتجنب الألم وينال السعادة.

لم يفكر بالأمر من منطق بشري لكنه صنفه ببساطة إلى أشياء تسبب الأذى وأخرى لا تفعل. وبعد هذا التقسيم تجنب كلما يسبب له الأذى وأطاع الحدود والقيود ليتمتع بنعيم الحياة ومكافآتها. وبهذا أطاع القانون الذي وضعته والدته والقانون الذي وضعه الشيء الذي لا اسم له - أي الخوف - وابتعد عن مدخل الكهف.

حين غابت والدته قضى معظم وقته في النوم. وبقي هادئاً بقية الوقت مقاوما الآنين المتذمر في حنجرته والتوق للضوضاء.

في مرة بينما يستلقي سمع صوتاً غريباً قادماً من الجدار الأبيض. لم يعرف أنه صوت حيوان ذئبي يقف في الخارج مرتجفاً بينما يتشمم محتويات الكهف بحذر لكنه عرف أن الصوت يعود لشيء غريب لم يصنفه من قبل. ولذا فقد صنفه على أنه مجهول وفظيع لأن المجهول أحد العناصر الأساسية التي كونت الخوف.

انتصب شعر الجرو على ظهره بصمت. كيف عرف أن ردة الفعل المناسبة تكمن بإنتصاب الشعر؟ لم يكن يعرف بالطبع لكنه كان التعبير الواضح للخوف. ولم يملك ذكرى عن موقف كهذا في حياته سابقاً لكن الخوف رافقه كغريزة أساسية.

كانت هناك غريزة أخرى ترافق الخوف وهي غريزة التحفظ. فمر الجرو بنوبة هلع لكنه بقي مستلقى على الأرض دون حراك أو صوت كما لو أنه متحجر في مكانه

وبدا للناظر كجسد ميت.

عندما عادت والدته مزمجرة وهي تتشمم المكان دخلت الكهف على عجل ولعقت الصغير ومسدته بخطمها بحب مفرط. وشعر الصغير بطريقة ما بأنه هرب من أذى عظيم. لكن كان هناك قوى أكبرفي داخله وأهمها نموه.

تطلبت غريزة الخوف والقانون الطاعة التامة منه لكن نموه تطلب منه العصيان ودفعه تصرف والدته وخوفه للابتعاد عن الجدار الأبيض لكن الحياة التي تنمو في داخله قدرت له الاتجاه نحو الضوء. ولم يكن هناك سد يوقف موج الحياة الذي يرتفع فيه مع كل لقمة لحم تناولها وكل نفس استنشقه.

في النهاية تغلبت مقاومة الحياة على الخوف والطاعة فمدد جسده نحو المدخل ومشى على مهل. ثم بدا الجدار كما لو انه يتراجع أمامه كما لم يفعل أي جدار من قبل ولم يصطدم أنفه بسطح صلد بينما يدفعه أمامه بإصرار كما يحدث كل مرة. بل بدا أن الجدار مكون من مادة مطواعة وقابلة للنفاذ عبرها كالضوء. وبدأت الأشياء تتشكل أمام عينيه وهو يسير عبر الجدار ويسبح عبر المادة المكونة له.

كان الأمر مذهلاً فقد كان يمر عبر المادة الصلبة وأصبح الضوء أشد تدريجياً.

دفعه الخوف للعودة لكن الحياة حثته على التقدم. حينها وجد نفسه فجأة عند مدخل الكهف فإذا بالجدار يقفز عائداً إلى هيئته السابقة لمسافة إمتدت على مدى بصره. وأصبح الضوء ساطعا لدرجة مؤلمة فشعر بالآنبهار لكنه عانى من الدوار في الوقت نفسه من هذا التوسع العملاق للمكان.

اعتادت عيناه آلياً على الضوء وتركز نظره على الأشياء البعيدة حوله.

في البداية قفز الجدار خلف مجال رؤيته. حين نظر إليه مجدداً بدا أنه يملك بعدا وشكلاً جديدين. وأصبح كجدار منقوش من الأشجار التي أحاطت بمجرى الماء والجبل الذي يعلو فوقها والسماء التي تعلو فوق كل شيء.

سكنه خوف عميق. فقد كان يقف وسط المزيد من المجهول لذا ربض على الأرض عند مدخل الكهف وحدق بالعالم الجديد خارجه.

كان خائفاً للغاية لأن كل مجهول مثل شيئاً عدائياً بالنسبة له. فانتصب الشعر مجدداً على ظهره وتجعدت شفتاه في محاولة لإصدار زمجرة عنيفة ومخيفة لكنه تحدى العالم الواسع رغم ضعفه وخوفه.

لم يحدث شيء فاستمر الجرو بالتحديق ونسي أن يزمجر لشدة اهتمامه ونسي خوفه تدريجياً. فقد حجب الضوء الخوف مؤقتا وألبسه قناع الفضول بدلا منه.

بدأ بملاحظة الأشياء القريبة منه - جزءا من مجرى الماء حيث إنعكس ضوء الشمس وشجرة صنوبر ذابلة قرب قاعدة المنحدر والمنحدر الذي بدا كشيء يقترب منه حتى وصل إلى بعد قدمين من المدخل حيث جلس رابضاً.

عاش الجرو حياته على أرض مستوية حتى تلك اللحظة ولم يجرب ألم السقوط ولم يعرف ماهيته من قبل. لذا خطى بجرأة نحو الهواء.

كانت أطرافه الخلفية ما تزال على حافة المدخل لذا وقع إلى الأمام ورأسه إلى الأسفل ففاجئته الأرض بضربة قاسية على أنفه جعلته يعوي بألم. ثم بدأ يتدحرج على المنحدر.

كان في نوبة هلع وحشية وعلى وشك الإصابة بألم فظيع فتفوق الخوف على النمو حينها وبدأ ينبح كأي جرو كلب مرعوب لأن المجهول يحمله نحو ألم مرعب. واستمر بالعواء والنباح دون توقف.

إختلف هذا الوضع عن الربض متجمدا من الخوف بينما يقف المجهول في الخارج. أما الآن فقد أمسكه المجهول بإحكام ولن يجدي الصمت. إضافة لأنه لم يكن خائفاً وحسب بل تملكه الرعب تماماً. لكن المنحدر أصبح أقل إنحدارا وكانت قاعدته مغطاة بالعشب. وهنا فقد الجرو زخمه.

عندما توقف أخيراً نبح مرة أخيرة بهلع ثم أصدر صرخة مرتجفة طويلة. وكما لو أنه فعل ذلك مرات عدة في حياته بدأ يلعق الوحل الجاف الذي وسخه.

بعد ذلك جلس وحدق حوله كما لو أنه أول رجل يطأ أرض المريخ. لقد عبر الجرو جدار العالم وأطلق المجهول سراحه ولم يعد في خطر من الأذى لكنه مر بتجارب أكثر مما كان ليمر بها الرجل الأول على المريخ. ووجد نفسه دون معرفة سابقة ودون أي تحذير يستكشف عالماً جديداً لم يعرف بوجوده.

كان واعياً للفضول نحو كل شيء حوله بعد ان أطلق المجهول الفظيع سراحه ونسي الخوف. فتفحص العشب تحت أقدامه ونبتة توت المستنقع بالقرب منه وجذع شجرة الصنوبر الذابلة التي وقفت في فسحة بين الأشجار ولاحظ سنجاباً يركض حول قاعدة الجذع.

حين قفز السنجاب أمامه مباشرة أفزعه بشدة. فانحنى نحو الأرض بخوف وزمجر لكن السنجاب خاف بدوره وهرب متسلقاً الشجرة. وحين ابتعد مسافة آمنة بدأ الأخير يثرثر بوحشية.

ساعد هذا بزيادة شجاعته ورغم لقائه التالي بنقار خشب أفزعه استمر بالتقدم بثقة. وكانت ثقته أكبرعندما التقى طائر موس وقفز نحوه على الفور. ثم مد طرفه بمرح نحوه فإذا بالطائر يسدد نقرة حادة على طرف أنفه جعلته ينحني بخوف وينبح مجدداً. وأصدر صوتاً عالياً جداً لدرجة أن الطائر حلق باحثاً عن الآمان.

تعلم الجرو أشياء جديدة. وقام دماغه المشوش بتصنيف لا واع. فقد كان هناك أشياء حية وأشياء غير حية. وكانت الأشياء الحية تتحرك ولا يعرف ما ستقوم به لاحقاً ولذا وجب الحذر منها والبقاء على أهبة الاستعداد. بينما بقيت الأشياء غير الحية ثابتة في مكان واحد.

مشى متخبطا وتعثر بالاغصان الساقطة على الأرض وغيرها. وكلما اعتقد أن غصا بعيداً عنه تفاجئ باصطدامه بأنفه أو خدش جسده قرب أضلاعه.

كما كانت الأرض متعرجة في بعض الأماكن فتعثر أحياناً وضرب أنفه بالأرض. وكثيراً ما كانت خطواته أوسع من اللازم فداس على أنفه أو أضيق من اللازم فتعثر بقدمه. ثم كان هناك الأحجار وحبات الرمل التي تتحرك حين حاول أن يخطو فوقها. وتعلم من ذلك أن الأشياء غير الحية لم تكن جميعاً بنفس درجة الثبات كما هو الحال في كهفه. وأن الأشياء الصغيرة غير الحية تشكل عقبة أصعب من الأشياء الكبيرة واحتمالية أكبر للسقوط أو الآنقلاب.

لكن مع كل حادث واجهه تعلم الجرو شيئاً جديداً وكلما مشى لمسافة أطول كلما أصبحت مشيته أفضل.

تعلم حساب حركة عضلاته وعرف حدود مقدرته الجسدية. وتعلم قياس المسافة بين الأشياء وبين جسده والأشياء لكنه كان يملك حظ المبتدئين. فقد ولد لصائدي لحم - رغم أنه لم يدرك ذلك - والتقى صدفة بلحم خارج كهفه في أول رحلاته في العالم بمصادفة لا أكثر.

وصل عش طائر برتمجان مخباً بدهاء حين وقع فوقه بعد أن حاول المشي عبر جذع شجرة صنوبر ساقط على الأرض فتحطم الجزء المتعفن من الجزء تحت أقدامه ووقع بنباح يائس عبر الجزء الهلالي منه محطماً بجسده تجمع الأوراق والشجيرة الصغيرة حيث كان العش في قلبها ليجد نفسه وسط سبعة فراخ.

في البداية شعر بالخوف من الصوت الذي أصدرته. ثم لاحظ صغر حجمها وأصبح أكثر جرأة. تحركت الفراخ فوضع طرفه على إحداها وشل حركتها. ومثل ذلك مصدر سعادة له. ثم شم رائحتها وحملها بفمه بينما تصارع وتدغدغ لسانه.

في الوقت نفسه شعر بالجوع فأغلق فكيه وصدر صوت تحطم العظام الضعيفة وتذوق طعم الدم الجيد في فمه مدركاً أنه عثر على لحم شبيه بذاك الذي تمنحه والدته له لكنه كان حياً بين أسنانه وكان ذلك أفضل. لذا تناول الفرخ ولم يتوقف حتى التهم مجموعة الفراخ كاملة. ثم لعق أطرافه كما فعلت والدته وبدأ بالزحف خارج الشجيرة.

صادف فجأة زوبعة من الريش تحيطه وشعر بحيرة بينما لم يستطع الرؤية بوضوح. كما شعر بضرب أجنحة غاضبة بحركة سريعة فخبأ رأسه بين أطرافه وأصدر عواء عالياً قبل أن يتملكه الغضب. ثم نهض مزمجراً وضرب بأطرافه. وغرس أسنانه الصغيرة في إحدى الأجنحة وبدأ يسحب ويجر بثبات.

قاومته أنثى الطائر ضاربة بجناحها الحر في أول معاركه فشعر بالحماس ونسي كل شيء عن المجهول. لم يكن خائفاً من أي شيء الآن بل كان يقاتل ويمزق الشيء الحي الذي ضربه. وكان هذا الشيء لحماً.

بدت شهوة القتل حية فيه فقد دمر لتوه أشياء صغيرة حية وكان على وشك قتل شيء كبير حي. وكان مشغولاً وسعيداً لدرجة عدم إدراكه أنه سعيد. كما كان متحمساً

بطريقة جديدة بالنسبة له وأعظم من أي وقت مضى.

تمسك بالجناح وزمجر بين أسنانه المغلقة بإحكام. ثم سحبه خارج الشجيرة لكن أنثى الطائر إستدارت وحاولت سحبه نحو ملجئ الشجيرة مرة أخرى. فسحبها بعيداً ووجهها نحو الفسحة الخالية بينما تصرخ طوال الوقت وتضرب بجناحها الحر ويتطاير ريشها كعاصفة ثلجية.

وصل شغف الجرو مرحلة عملاقة فقد كانت جميع دماء أسلافه المقاتلة تجري في عروقه ومثل القتال غاية حياته وإن لم يدرك ذلك. ومع ذلك شعر بمعنى وجوده في الحياة فقد كان يقوم بما قدر له فعله - أي قتل اللحم والصراع من أجله ـ.

بمعنى أدق كان يبرر وجوده وهو أكبرما يمكن للحياة تقديمه. فالحياة تصل قمتها حين تفعل ما قدر لها فعله.

بعد فترة توقفت أنثى الطائر عن المقاومة بينما ما زالت في فم الجرو. ثم استلقى الجرو على الأرض ونظر الحيوانان لبعضهما.

حاول الجرو تهديد طريدته بزمجرة عنيفة. ونقرت أنثى الطائر بدورها أنف الجرو الذي أصبح متورماً من تجاربه السابقة.

جفل الجرو لكنه وقف مكانه فنقرته أنثى الطائر مجدداً ومجدداً حتى أزعجه الأمر فحاول الابتعاد عنها محتارا بينما يتمسك بها.

أخيراً سقطت عاصفة مطرية على أنفه المتورم وجرفه فيضان المعركة للخسارة. فأطلق سراح طريدته ثم استدار وهرب بتراجع مخزٍ.

جلس الجرو ليستريح في الجانب الآخر من الفسحة قرب الشجيرة بينما يتدلى لسانه خارج فمه وتنفس بصعوبة متذمراً من الألم في أنفه. وبينما يستلقي هناك شعر فجأة بأن شيئاً فظيعاً على وشك الحدوث كما لو أن المجهول بكل رعبه يهرع نحوه فقلص جسده غريزيا باتجاه ملجئ الشجيرة. ثم شعر بهواء يتحرك حوله وهرع جسد كبير ذو أجنحة بصمت وهدوء فوقه.

هبط صقر من اللامكان وأدرك أنه نجا بحياته لتوه. فبينما رقد وسط الشجيرة يتعافى من خوفه ويترقب المكان رأى أنثى طائر البرتمجان تحلق من الجانب الآخر للفسحة خارج العش المحطم. ربما ببسبب خسارتها لم تكن أنثى الطائر تلقي بالاً للصاعقة المحلقة في السماء لكن الجرو رأى كل شيء - الهبوط الرشيق للصقر وجسده الممشوق يقترب من الأرض وضربة مخالبه التي غرست في الطريدة وصرخة أخيرة مليئة بالرعب والمعاناة من أنثى الطائر وتحليق الصقر نحو الأعلى حاملاً جائزته ـ.

مثل ذلك درسا وتحذيرا للجرو وعلى أثره مر وقت طويل قبل أن يغادر مخبأه.

لقد تعلم الكثير في مغامرته.

تعلم أن الأشياء الحية لحم وهي جيدة لتناولها. وأن الأشياء الحية تسبب الأذى إذا ما كانت كبيرة كفاية. وأن من الأفضل تناول الأشياء الحية الصغيرة كفراخ الطيور وترك الأشياء الحية الكبيرة كالطيور البالغة.

مع ذلك شعر بشيء من الطموح ورغبة لخوض معركة أخرى ضد الطائر الكبير لكن الصقر قد حمله بعيدا. لربما كانت هناك فراخ أخرى في مكان ما. فقرر أن ينهض ويستكشف.

وصل إلى ضفة تنحدر باتجاه المجرى المائي. ولم يكن قد رأى ماء من قبل في حياته لكن سطحه بدا صلباً كفاية ولم يكن هناك أي تعرجات واضحة فيه فخطى بجرأة نحوه وغطس في الماء على الفور.

بدأ بالصراخ برعب بينما يتحرك في قبضة المجهول. دخل الماء البارد رئتيه بدلاً من الهواء الذي رافق عملية التنفس عادة. وبدا الاختناق الذي اختبره شبيهاً بقبضة الموت. ورغم أنه لم يملك معرفة واعية بمعنى الموت لكنه ملك غريزة الموت ككل حيوانات البرية ومثل له الخوف الأكبر على الإطلاق. فهو جوهر المجهول وحصيلة الرعب المنطلقة منه وكارثة لا يفقه عنها شيئاً لكنه يخاف كل تفاصيلها ويمكن أن تحصل في أي وقت.

وصل إلى السطح وهرع الهواء الحلو عبر فمه. ولم يغطس بعد ذلك كما لو كان تصرف تعلمه منذ مدة طويلة بل بدأ يحرك أطرافه ويسبح.

كانت الضفة الأقرب إليه على بعد ياردة واحدة لكنها كانت تواجه ظهره. وأول ما رآه كان الضفة الأخرى فبدأ يسبح تجاهها على الفور بينما توسع المجرى الصغير حوله لحوالي عشرة أقدام.

في منتصف الطريق حملته الأمواج وجرفته عبر مجراها وأسره جريان الماء المتسارع حتى أسفل المجرى ولم يعد يملك فرصة للسباحة. فقد تحول هدوء الماء إلى غضب فجأة وأصبح يتقلب تحته وفوقه وشعر بحركة عنيفة وتقلب دائم. كما ضرب بصخرة مراراً وتكرارا وكلما فعل ذلك أصدر عواء متألما. حتى أن تقدمه أصبح عبارة عن سلسلة من الصرخات ولكان بالإمكان حساب عدد الصخور التي ضربت جسده من عدد صرخاته.

وصل بحيرة أخرى بعد الأولى وأسر في دوامة محمولا على مهل نحو الضفة. ثم تخلصت الأمواج منه على سرير من الحصى فزحف مضطربا وابتعد عن الماء واستلقى على الأرض.

هكذا تعلم مزيداً عن العالم.

لم يكن الماء حياً لكنه تحرك وبدا شكله صلباً كالأرض لكنه لم يملك أي من صلادتها على الاطلاق.

استنتج من ذلك ان الأشياء لم تكن دائماً ما بدت عليه. كان قد ورث عدم ثقته من أسلافه لكن شعوره تأكد بعد هذه التجربة ومن حينها سيمتلك عدم ثقة ملزمة من

المظاهر وسيكون عليه تعلم حقيقة الأشياء قبل أن يضع ثقته فيها.

بقيت مغامرة أخيرة مقدرة له ذلك اليوم.

تذكر فجأة وجود والدته وشعر برغبة عميقة للتواجد بقربها أكثر من أي وقت مضى فلم يكن جسده متعباً من مغامراته وحسب بل أن عقله الصغير بدوره تعب لأنه لم يعمل بهذا القدر في حياته كما فعل في يوم واحد. علاوة على ذلك شعر بنعاس شديد لذا بدأ البحث عن الكهف ووالدته وشعر بالوحدة والعجز.

كان يتمشى بين الشجيرات حين سمع صرخة حادة مرعبة ورأى ومضة لون أصفر أمام عينيه. ثم شاهد حيوان ابن عرس يقفز مبتعداً عنه.

عرف في الحيوان شيئاً صغيراً وحياً لذا لم يشعر بالخوف. ثم رأى عند أقدامه شيئاً حياً بالغ الصغر على بعد إنشات فقط وكان ذلك حيوان ابن عرس يافع خارج في مغامرة رغم تعليمات والدته كما فعل الجرو.

حاول الحيوان الصغير التراجع أمام الجرو لكن الأخير تمكن من قلبه بطرفه وأصدر صوت زمجرة غريب.

في اللحظة التالية عاد الحيوان الأول للظهور أمام عينيه وسمع الصرخة الحادة مجدداً. في الوقت نفسه شعر بضربة حادة على جانب رقبته وأسنان حادة تغرس في جسده.

صرخ الجرو ونبح متراجعا إلى الخلف. ثم رأى الوالدة تقفز نحو صغيرها وتختفي بين تكتل الأشجار القريب. آلمه جرح رقبته لكن مشاعره تأذت أكثر فجلس يتأمل ضعفه مفكراً بصغر الأم وعنفها.

لم يتعلم بعدُ أن حيوان ابن عرس من أشرس وأفظع وأكثر القتلة عنفاً في البرية مقارنة بحجمه لكن جزءاً من هذه المعرفة كان على وشك أن يصبح ملكاً له.

كان ما يزال يتذمر حينما عادت الوالدة للظهور لكنها لم تركض بعد أن تأكدت من سلامة صغيرها بل اقتربت منه بحذر. وتمكن بدوره من مراقبة حركتها الرشيقة ورأسها وجسدها المنتصب المتوق كجسد ثعبان.

جعلت الصرخة الحادة الحاقدة شعر جسده ينتصب على ظهره وبدأ يزمجر محذراً إياها لكنها اقتربت منه أكثر. ثم قفزت بخفة لم تعتادها عيناه واختفى الجسد الأصغر للحظة خارج مدى نظره. وفي اللحظة التالية غرست الوالدة أسنانها في شعر ولحم حنجرته.

في البداية زمجر الجرو وحاول المقاومة لكنه كان صغيراً للغاية ويقضي أول يوم له في العالم. فأصبحت زمجرته تذمراً بينما يصارع للهرب لكن الوالدة لم ترخِ قبضتها بل تعلقت صاكة أسنانه على وريد الحنجرة حيث يجري دمه.

أن حيوان ابن عرس شارب للدماء ويفضل الشرب من الحنجرة النابضة بالحياة.

كان الجرو على وشك الموت ولم تكن لتوجد قصة تروى عنه لولا ظهور والدته عبر الشجيرات. فتركت والدة ابن عرس الجرو وقفزت نحو الذئبة لكنها لم تتمكن من غرس أسنانها في حنجرتها بل أحكمت فكيها على فك الذئبة بدلا من ذلك.

هزت الذئبة رأسها بضربة حادة كالسوط وأفلتت الحيوان المعلق في رقبتها رامية إياه في الهواء. وبينما ما زال في الهواء أغلقت فكيها على الجسد الصغير الأصفر وعرف الحيوان الموت بين أسنانها المدمرة.

شعر الجرو بحب غامر تجاه والدته وبدت سعادتها بالعثور عليه أكبرمن سعادته حين مسته بخطمها ولعقت جراحه من المعركة الأخيرة. ثم تناولا الحيوان شارب الدماء معاً وعادا إلى الكهف وناما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

قانون اللحم

بعد أن أخذ الجرو يومين للراحة خرج من الكهف مرة أخرى. وخاض مغامرة العثور على ابن عرس الصغير الذي ساعد في إلتهام والدته ثم ألحقه نفس المصير.

لكنه في هذه الرحلة لم يضيع طريقه كالمرة السابقة فعندما شعر بالتعب وجد طريقه إلى الكهف بسهولة ونام. وبعد ذلك أصبح يخرج كل يوم ويغطي مساحة أكبرمن البرية.

بدأ يقدر نقاط قوته ونقاط ضعفه بشكل أدق. وتعلم متى يعتمد على جرأته ومتى يعتمد على حذره. فقد اكتشف أن الحذر ملائم في أغلب الاوقات عدا تلك الأوقات النادرة حين وثق ببسالته ليتبع شهواته ورغباته في نزاعات تافهة.

لطالما تصرف ككتلة من الغضب كلما إلتقى بطائر برتمجان. ولم يتردد مرة بالرد بوحشية على ثرثرة السنجاب الذي إلتقاه في أول مغامرة على شجرة الصنوبر المتحطمة. وسبب طائر الموس نوبات غضب فظيعة له فهو لم ينسى أبداً تلك النقرة التي تلقاها على أنفه عندما إلتقى أول فرد من نوعه.

في أوقات معينة لم ينجح حتى طير الموس بالتأثير به. وذلك حين شعر بالخطر من صائد آخر قريب منه. فلم ينسى الصقر وظله المتحرك ودائماً ما إختبئ بين الشجيرات كلما رآه. كما لم يعدد يتمدد ويتمطى وحسب بل طور مشية شبيهة بمشية والدته الماكرة والخفيفة والتي بدت كإنزلاق دقيق بخفة مخادعة.

امتلك حظاً وافرا فيما تعلق باللحم في البداية فقط فقد مثلت الفراخ السبعة وابن عرس الصغير حصيلة ما قتل. لكن قوته ازدادت يوماً بعد يوم واعتز بتوقه الجائع للسنجاب الذي ثرثر بفصاحة كلما اقترب منه ليعلم جميع مخلوقات الغابة بوجوده. وبينما حلقت الطيور واستطاعت السناجب تسلق الأشجار لم يستطع الجرو فعل شيء سوى محاولة التسلل على الأرض دون أن يراه أعدائه.

كنّ الجرو احتراما كبيرا لوالدته فقد استطاعت الحصول على اللحم ولم تفشل أبداً بجلب حصة له. علاوة على ذلك لم تكن خائفة من الأشياء. ولم يخطر بباله أن عدم خوفها مبني على خبرات ومعرفة سابقة بل مثلت له السلطة وعرف فيها قوة كامنة. وشعر بقوتها عبر ضربات طرفها الموبخة التي أصبحت أقوى ولمسات أنفها المرضية التي تعوض عن جروح أنيابها فأجبرته على طاعتها. وكلما كبر قل صبرها في التعامل معه.

حلت المجاعة مجدداً وعرف الجوع بوعي أكبر.

بدت الذئبة قليلة الحيلة في مسعاها للحصول على اللحم ولم تعد تنام في الكهف إلا قليلاً. بل قضت أغلب وقتها في البحث عن اللحم دون جدوى.

لم تكن المجاعة طويلة لكنها شديدة. ولم يعد الجرو يجد حليبا في صدر والدته أو لقمة لحم لنفسه.

اصطاد سابقاً من أجل المرح والمتعة لا غير أما الآن فأصبح يصيد بغير هزال. ومع ذلك لم يجد شيئاً لكن فشله سرع من نموه. فقد بدأ بدراسة عادات السنجاب بحذر أكبروسعى بحنكة أوسع للتسلل إليه ومفاجئته. كما درس فئران الغابة وعمل على إخراجها من مهاجعها بحفر الأرض. وتعلم الكثير عن طرائق طائر الموس ونقار الخشب.

جاء يوم لم يعد يخاف ظل الصقر فيه فقد أصبح أكثر حكمة وقوة وثقة. كما كان يائسا لذا جلس على أطرافه في مكان مفتوح من الغابة بوضوح وتحدى الصقر الذي هبط من السماء لأنه عرف أن هبوطه يعني وجود لحم في مكان ما معلق فوقه - اللحم الذي توقت إليه معدته بإصرار ـ. لكن الصقر رفض الهبوط ومقاتله واستمر الجرو يمشي نحو تكتل الأشجار متذمرا خائب الظن وجائعاً.

إنحسرت المجاعة حين جلبت الذئبة لحماً إلى الكهف. كان لحماً مختلفا عما جلبته سابقاً فقد كان يعود لصغير وَشَقٍ غير كامل النمو مثل الجرو لكنه أصغر حجماً. ومنحته الطريدة كاملة لكونها قد تناولت طعامها في مكان آخر.

لم يعلم الجرو أنها قد أكلت بقية مجموعة القطط. ولم يعِ مدى اليأس الذي صاحب ما فعلت بل عرف فقط أن الحيوان الذي أمامه لحم وشعر بسعادة مع كل لقمة تناولها.

يفضي الشبع إلى الكسل. لذا حين أكمل الجرو أكله استلقى على الأرض ونام بجانب والدته ليستيقظ لاحقاًعلى صوت زمجرة هائلة. أطلقت والدته زمجرة ربما هي الأكثر وحشية في حياتها ولسبب معروف لها. فهي تعلم أن من المستحيل مهاجمة عرين الوشق دون عواقب.

رأى الجرو أنثى الوشق تقف عند مدخل الكهف وسط ضوء النهار الساطع فانتصب شعره على ظهره من المنظر. ولم يكن يحاجة لغريزة تخبره بضرورة الخوف فقد صاحب المنظر صرخة غيظ أطلقتها الدخيلة. تحولت الصرخة تدريجياً إلى صياح أجش فشعر الجرو بدافع الحياة ووقف يزمجر بشجاعة قرب والدته. لكن الوالدة دفعته خلفها دون كلفة.

لم تستطع أنثى الوشق القفز بسبب سقف الكهف الواطئ فقفزت الذئبة فوق عدوتها حين أصبحت بالقرب الكاف وثبتتها على الأرض.

رأى الجرو القليل من المعركة لكنه سمع كل الزمجرات الهائلة والصراخ والتذمر بينما تضرب العدوتين بعضهما. استعملت أنثى الوشق أسنانها ومخالبها لتمزق جسد الذئبة واستعملت الأخيرة أسنانها فقط.

في مرة قفز الجرو وغرس أسنانه في طرف خلفي لأنثى الوشق وتمسك بها يهذر بوحشية دون أن يعلم أن حركته الجريئة قد وفرت خسائر فادحة على والدته. ثم أسقطه تغير في المعركة تحت جسدي الآنثيين المتشابكتين وأفلتت قبضته.

في اللحظة التالية إنفصلت الوالدتان وضربت أنثى الوشق الجرو بطرف أمامي عملاق على كتفه جارحة إياه حتى العظم. ثم رمته على الحائط الجانبي فبكى الجرو بينما علت صرخة ألم ورعب حوله.

استمر القتال طويلاً حتى أن الجرو قد تمكن من تجميع شجاعته للقيام بهجمة أخرى. وفي نهاية المعركة وجد نفسه يتعلق بالطرف الخلفي لأنثى الوشق مرة أخرى مزمجراً بين أسنانه بعنف.

ماتت أنثى الوشق ومسدت الذئبة جروها ولعقت جرحه. ثم استلقت على الأرض مريضة وضعيفة جداً واستمرت على هذه الهيئة ليوم وليلة دون حراك وبالكاد تتنفس. كما لم تغادر الكهف بعد ذلك لإسبوع كامل إلا لشرب الماء وكانت حركتها بطيئة ومؤلمة.

في نهاية الاسبوع كانا قد تناولا أنثى الوشق كاملة وتعافت الذئبة من جروحها كفاية لتخرج للصيد مرة أخرى. ورغم أن كتف الجرو كان ما يزال متورما ومؤلما إلا أن العالم بدأ يتغير حوله. وأصبح يملك ثقة أكبروشعور بطولي لم يملكه من قبل. فقد كان ينظر للعالم من منظار أكثر قوة بعد أن قاتل وغرس أسنانه في جسد عدوه ونجا من المعركة. وبفضل ذلك أصبح يمشي بجرأة ويملك لمسة من جموح لم يعهده من قبل. ولم يعد خائفاً من الأشياء الثانوية واختفى أغلب تحفظه. رغم أن المجهول لم يتوقف عن أسره بخباياه ورعبه الغامض المتوعد.

بدأ الجرو يرافق والدته في رحلات الصيد ورأى عمليات القتل وشارك بها بنفسه. وتعلم بطريقته الخاصة قانون اللحم فصنف الحياة لنوعين هما حياته وحياة أخرى.

شمل النوع الأول نفسه ووالدته. بينما شمل النوع الآخر كل الحياة التي تتحرك عداهما. وصنف النوع الآخر لأقسام. فهناك القسم الذي يقتله نوعه ويأكله ويشمل الأحياء غير القاتلة والقتلة الصغيرة. والقسم الذي قتل نوعه وأكله أو قُتل من قبله. ومن هذا التصنيف ظهر القانون.

أن هدف الحياة هو اللحم. والحياة بذاتها تتمثل في اللحم وتعيش على اللحم. وهناك في العالم آكل ومأكول. والقانون يقول: تأكل أو تؤكل.

لم يصيغ الجرو القانون بهذه الطريقة الواضحة أو يحاول إيجاد الجانب المنطقي والأخلاقي منه. حتى أنه لم يفكر بالقانون بل عاش وفقا له دون التفكير به على الإطلاق. ورأى القانون يعمل حوله في الطبيعة. فلقد أكل فروخ الطائر وأكل الصقر الوالدة وكان ليأكله أيضا.

لاحقاًعندما أصبح أكثر هيبة أراد أكل الصقر بينما أكلت والدته صغار الوشق ولأكلت والدتها والدته لولا أنها قُتلت وأُكلت.

وهكذا عاشت الأحياء وفقاً للقانون الذي كان هو جزءاً منه. فهو قاتل يقتات على اللحم الذي يهرب أمامه راكضاً أو يحلّق في الهواء أو يتسلق الأشجار أو يختبئ في الأرض أو يواجهه في منازلة أو يقلب الطاولة ويلاحقه.

لو كان الجرو يفكر كما يفعل الإنسان لربما تجسدت الحياة له بشهية شرهة. والعالم بمكان مكون من شهيات متفاوتة تلاحق ويتم ملاحقتها. أي تصيد وتصطاد، تأكل وتؤكل. ويتم كل ذلك في حيرة مغمورة بالعنف وفوضى النهم والقتل وتحت إطار الفرص بصورة أبدية لا رحمة فيها ولا تخطيط.

لكنه بطبيعة الحال لم يفكر بتلك الطريقة ولم ينظر للأمور بذاك المنظار الواسع بل كان له هدف واحد ويفكر بفكرة واحدة أو رغبة واحدة على حدة.

إضافة لقانون اللحم كان هناك عدد كبير من القوانين الأخرى الأقل أهمية التي عليه تعلمها وطاعتها فالعالم مليء بالمفاجئات.

آثارت الحياة في جسده وحركة عضلاته إعجاباً لانهائيا بالنسبة له. ومثلت ملاحقة اللحم واصطياده تجربة تثير الحماس وتختبر العلاقات. أما نوبات غضبه ومعاركه والخوف نفسه والغموض المجهول فقد قادته للحياة.

كانت هناك أشياء تؤدي إلى الراحة والرضى - المعدة الممتلئة والتمدد بكسل تحت نور الشمس - مثلت مكافآت على كده وكفاحه. رغم أن كده وكفاحه بحد ذاته مكافئة.

فقد كانت تلك تعابير عن الحياة. وتكون الحياة في قمة سعادتها عندما تعبر عن ذاتها. لذا لم يكن للجرو خصام مع بيئته المعادية بل كان حياً بالفعل وسعيداً للغاية وفخوراً جداً بنفسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الثالث

- 1 -

موقدو النار

أدرك الجرو النار فجأة.

كان قد غادر الكهف واقترب من مجرى النهر بدون حذره المعتاد ليشرب الماء بعد أن قضى الليل يسير ثم نام واستيقظ لتوه ناعساً.

ربما لم يلتزم الحذر لمعرفته بالطريق جيداً فقد ارتحل فيه كثيراً ولم يواجه الخطر. فسار قرب شجرة صنوبر قريبة من فسحة بين الأشجار ورأى وشمّ في الوقت نفسه شيئاً غريباً. ثم جلس على أطرافه صامتاً.

رأى خمسة أشياء حية لم يرَ شبيهاً لها من قبل. ولم ينهض أي منها حين اقترب أو يظهر أسنانه أو يزمجر بل جلست جميعاً بصمت وعلامات الشؤم تعلوا وجوهها. ولم يتحرك الجرو مهاجما كما تدفعه غريزته للفعل عادة بل شعر بإعجاب عميق مصاحبا لإدراكه بضعفه وصغر حجمه. فقد رأى في الكائنات البشرية أمامه شيئاً من القوة والسيادة. ورغم أنه لم ير بشراً في حياته من قبل إلا أن غريزة الطاعة تحركت داخله. فقد علم دون وعي أنها النوع الوحيد من الأحياء الذي كافح حتى وصل أعلى الهرم متسيدا على جميع حيوانات البرية.

لم يكن الجرو ينظر لها بعينيه وحسب بل بعيون جميع أسلافه - عيون حامت في الظلام حول عدد لا يحصى من نيران المخيمات تحدق بالحيوانات الغريبة ذات القدمين والتي تتسيد جميع الأحياء الأخرى من مسافة آمنة ـ. فسكنته فتنة توارثها من أسلافه وخوف واحترام كنته أجيال وأجيال. وهو إرث ملزم لجراء نوعه.

لو كان الجرو ذئباً بالغاً لهرب راكضا لكنه انحنى بجبن وخوف شل حركته. ومد يد الطاعة التي مدها نوعه منذ أول مرة جاء فيها ذئب ليجلس قرب نار إنسان ويتدفأ.

نهض أحد الهنود وتقرب من الجرو. ثم انحنى أمامه فأثنى الجرو جسده ليلتصق بالأرض أكثر. لقد تمثل المجهول أمامه أخيراً بهيئة من اللحم والدم وحاول الوصول إليه. كما انتصب الشعر على جسده لا إراديا وأظهر أنيابه الصغيرة.

وقفت اليد كقدر غاشم يتردد فوقه. ثم تحدث الرجل ضاحكا وقال،

- «وأيام وابيسكا أيب بيت تاه»

أي - أنظر لهذه الأنياب البيضاء ـ.

ضحك بقية الهنود بصوت عال وشجعوا الرجل على حمل الجرو.

إحتدمت معركة من الغرائز المتضاربة في عقل الجرو بينما تقترب اليد منه. فقد شعر بدافعين عظيمين في الوقت نفسه - الخضوع والمواجهة ـ.

في النهاية نتج تصرف بين الاثنين فقد خضع حين مسته اليد ثم هاجم غارسا أسنانه بسرعة فيها.

في اللحظة التالية حطت ضربة على جانب رأسه وأسقطته. حينها لم يعد يملك أدنى مقاومة بل سيطرت غريزة الخضوع عليه تماماً. فجلس على أطرافه وتذمر لكن الرجل الذي عضه كان غاضباً فضربه على الجانب الآخر من رأسه. بعد ذلك استسلم الجرو جالسا يتذمر بصوتٍ أعلى من أي وقت.

ضحك الهنود الأربعة بصوت عال. وبدأ الرجل الذي عضه بالضحك أيضاً بينما عوا الجرو بألم ورعب. وفي وسط ذلك كله سمع صوتاً سمعه الهنود كذلك لكنه وحده علم مصدره. فأصدر عواء أخيراً طويلاً بشيء من الزهو المتفوق على الحزن. ثم توقف عن إصدار الضوضاء وانتظر قدوم والدته.

كانت والدته الشرسة التي لا تهاب شيئاً والتي قاتلت وقتلت كل شيء تركض نحوه مزمجرة فقد سمعت صرخة صغيرها وهرعت لإنقاذه.

قفزت الذئبة بين الرجال مستعدة للقتال. ولم يكن منظرها سارا للنظر لكن الجرو سعد لرؤية غضبها وغريزة أمومتها فأصدر صرخة صغيرة سعيدة وقفز لملاقاتها بينما تراجع الرجال عدة خطوات.

وقفت الذئبة بجانب صغيرها تحميه في مواجهة الرجال بشعر منتصب وزمجرة تهز حنجرتها. وعلت وجهها نظرة مهددة جعدته من جسر أنفها حتى عينيها.

فجأة صدرت صرخة من أحد الرجال،

- «كيتشي؟»

كان لكلمته نبرة متفاجئة.

شعر الجرو بوالدته تتردد حين سمعت الصوت. ثم أعاد الرجل صراخه بحدة وسلطة هذه المرة،

«كيتشي!»

رأى الجرو والدته الشجاعة تنحني حتى مست بطنها الأرض. وبدأت تتذكر وتهز ذيلها بعلامة خضوع فلم يستطع فهم ما يحدث.

كان فزعا رغم إعجابه بالإنسان فقد أدرك أن غريزة الخضوع لديه هي الأحق. وأكدت والدته ذلك حين أظهرت الطاعة للرجال. ثم اقترب الرجل الذي نادى عليها منها ووضع يده على رأسها فإذا بها تنحني وتقترب منه دون أن تعضه أو تزمجر نحوه مهددة.

جاء البقية وأحاطوا بها. ثم بدأوا يتلمسون رأسها ويمسدونه دون أن تظهر أي مقاومة وأصدروا عدداً من الأصوات المتحمسة بأفواههم.

لم تكن هناك إشارة للغضب فيها. فقرر الجرو الذي وقف بشعر منتصب رغماً عنه أن يقوم بأفضل ما بإمكانه للخضوع.

قال أحد الهنود:

- «ليس بالأمر الغريب حقاً فقد كان والدها ذئباً. كانت والدة كيتشي كلبة امتلكها أخي. وقد ربطها في الغابة لثلاث ليالي في موسم التزاوج ولهذا فإن والدها ذئب»

تحدث آخر وقال:

- «لقد مرت سنة كاملة منذ هربت أيها القندس - الأشيب»

أجاب الأول:

- «ليس بالأمر الغريب يا لسان - السلمون. لقد هربت في موسم المجاعة حين لم يكن هناك طعام للكلاب»

قال ثالث:

- «لقد عاشت مع الذئاب طوال تلك الفترة»

أجاب القندس - الأشيب مرة أخرى:

- «على ما يبدو يا ذا - العقاب - الثلاثة. وها هو الدليل»

وضع القندس - الأشيب يده على الجرو الذي زمجر بصوت خافت لكن اليد ارتفعت لتنهال عليه بضربة أخرى فغطى أنيابه وانحنى راضخا. ثم أكمل الرجل حديثه ممسدا رأس الجرو وأذنيه،

«ها هو الدليل.. من الواضح أن هذا الجرو ابن كيتشي لكن والده ذئب. لذا فهو نصف ذئب ونصف كلب. أن أنيابه في غاية البياض ولذا سأطلق عليه اسم ذي - الناب - الأبيض. وسيكون كلبي من الآن فصاعداً فقد كانت والدته ملكاً لأخي. وقد توفي أخي الآن»

بهذا أصبح للجرو اسم في هذا العالم.

بعد ذلك استلقى ذو - الناب - الأبيض على الأرض وشاهد البشر يصدرون الأصوات من أفواههم.

أخذ القندس - الأشيب سكين وذهب ليقطع عصا من شجرة. وحين عاد صنع حزًّا في نهايتي العصا ثم ربط حبلاً من الجلد غير المدبوغ بكل من الحزين. بعد ذلك ربط أحد الحبال بحنجرة كيتشي. ثم قادها إلى شجرة صنوبر صغيرة وربط الحبل الآخر حول الجذع.

لحق ذو - الناب - الأبيض بوالدته واستلقى قربها.

مد لسان - السلمون يده نحو الجرو وقلبه على ظهره فنظرت كيتشي بقلق نحوه. وشعر ذو - الناب - الأبض بالخوف مرة أخرى ولم يستطع الحيل دون زمجرة

خافتة لكنه لم يظهر أسنانه.

مسدت اليد ذات الاصابع المتفرقة المعقوفة بطنه بمرح ثم قلبته على جانبه. فبدا شكله سخيفا ومهينا وهو يستلقي على ظهره وتعلوا أطرافه في الهواء فوقه. كما كان عاجزا بطريقة انتفضت غرائزه ضدها. فلم يكن قادراً على الدفاع عن نفسه إذا ما أراد البشري أذيته ولن يستطيع القفز حتى وهو بهذه الهيئة.

تمكن أخيراً من السيطرة على خوفه ورضخ للبشري مزمجراً بصوت خفيض. ورغم أن زمجرته خرجت رغماً عنه إلا أن الرجل لم يقاومها ولم يضربه مجدداً.

علاوة على ذلك شعر الجرو بمتعة غريبة لم يختبرها سابقاً بينما تمسد اليد جسده. وعندما قلب على جانبه توقف عن الزمجرة تماماً. ثم ضغطت الأصابع على قاعدة أذنيه تمسدها فازدادت متعته. وحين نهض الرجل أخيراً مبتعداً عنه لم يعد يشعر بأدنى خوف.

سوف يعرف ذو - الناب - الأبيض الخوف في تعاملاته المستقبلية مع البشر لكن رفقتهم الآمنة هي ما سيظل معه في النهاية.

بعد فترة سمع أصوات غريبة تقترب فسارع إلى تصنيفها إلى أصوات بشرية. وخلال دقائق إلتحق عدد كبير من النساء والرجال والأطفال بالمخيم.

عدّ أربعون كائن بشري يرتدون الملابس السميكة ويحملون أدوات المخيم. إضافة للكلاب التي تحمل الأدوات وترتدي أزياء بدورها - عدا الجراء التي لم تبلغ بعد ـ. وكذلك حقائب مربوطة بإحكام تزن حوالي عشرين أو ثلاثين باوند.

لم يرَ الجرو كلاب في حياته لكنه عرف على الفور أنها من نوعه رغم اختلافها بطريقة ما. وعندما اكتشفت الكلاب بدورها وجود الجرو ووالدته تزاحمت حولهما وأظهرت بعضاً من فروقاتها. فزمجر الجرو وانتصب الشعر على جسده وأطبق أسنانه في وجه الكلاب التي اقتربت منه مهددة وهاجمته غارسة أسنانها في جسده. عض بدوره أطرافها وبطونها وهي ترزح تحت جسده.

كان هناك هياج عظيم لكنه استطاع سماع زمجرة كيتشي وهي تدافع عنه وصرخات الرجال وأصوات الضربات التي تنهال على الأجساد ونباح الكلاب المتألمة.

بعد لحظات وجد نفسه واقفاً على أقدامه ورأى البشر تدفع الكلاب بالضربات والأحجار مدافعة عنه ومنقذة إياه من الأسنان المتوحشة لبني نوعه الذي لم يكن نوعه تماماً. ورغم أنه لم يكن يملك فكرة واضحة عن العدالة إلا أنه شعر بالعدالة البشرية بطريقة ما وعرف أن بني البشر واضعي قانون ومتبعين له. وبخلاف بقية الحيوانات لم يعضوا أو يظهروا مخالبهم بل أبرزوا قوتهم الحية عبر الأشياء الميتة. فأدت الأشياء الميتة المهمة عنهم وبهذا قفزت الأحجار والعصيان موجهة بقوة هذه الكائنات الغريبة عبر الهواء كالأشياء الحية مسببة ألم كبير للكلاب.

كانت هذه قوة غير عادية بالنسبة له. قوة لا توصف وتتجاوز الطبيعة ذاتها. قوة شبيهة بقوة الآلهة.

بطبيعة الحال لم يستطع الجرو أن يعرف شيئاً عن الآلهة. لم يكن بإمكانه بمطلق الأحوال معرفة الأشياء التي لا تُعرف لكن ما رآه من قوة عجيبة في هذه الكائنات مثل بطريقة ما الإعجاب الذي كان سيشعر به الإنسان لو رأى مخلوق سماوي يقف على قمة جبل ويطلق الصواعق من كلتا يديه نحو عالم مذهول.

بعد أن هرب الكلب الأخير بدأ ذو - الناب - الأبيض بلعق جراحه وأخذ لحظة لتأمل أول حدث من نوعه أي تتمر أبناء جلدته عليه فور لقائه.

لم يعلم الجرو أن نوعه يشمل أكثر من نفسه ووالدته وذا - العين - الواحدة. فقد كانوا نوعا خاصا بذاته. وهنا اكتشف بسرعة مخلوقات أخرى تنتمي لنوعه على ما يبدو وأدرك وجود حقد ما لديها وتحد أوضحته فور أن ألقت نظرة عليه وحاولت تدميره.

بنفس الطريقة التي قاوم فيها طريقة ربط والدته بعصا حتى وإن كان من فعلها أحد الكائنات البشرية المتفوقة. فقد تذوق طعم الفخ والقيد ومع ذلك لم يعلم شيئاً عن هذه الأمور.

لطالما كانت الحرية للتنقل والجري والاستلقاء متى ما يحلو له إرثه. وها هو الإرث ينتهك. فقد كانت حركات والدته مقيدة بطول العصا وكذلك كانت حركته فهو لم يتجاوز بعد الحاجة للبقاء قربها.

لم يعجبه الوضع ولم يعجبه نهوض البشر ومواصلتهم المسير.

حين قام بشري صغير بالإمساك بنهاية العصا واقتاد كيتشي أسيرة خلفه تبعها الجرو قلقا وحائرا من المغامرت الجديدة التي بدأ خوضها.

عبروا الوادي حيث مجرى الماء وغطوا مسافة أكبرمما فعل في حياته. ثم وصلوا نهر ماكنزي حيث كانت القوارب قد ربطت بعواميد طويلة في الهواء وانتصبت مساند لتجفيف السمك ونصب المخيم.

حدق الجرو نحو كل ذلك بدهشة وازداد تفوق الكائنات مع كل دقيقة تمضي وبدا واضحا بسيطرتها على الكلاب ذات الأنياب الحادة. حتى أنفاسها مثلت القوة لكن أعظم ما لاحظه ذو - الناب - الأبيض هو سيطرتها على الأشياء التي لا تتحرك كما لو كانت تغير وجه العالم. وهذا أثر به أكثر من أي شيء آخر.

عندما رأى إرتفاع العواميد أمام عينيه لم يظنه شيئاً مميزا لكونه من فعل الكائنات التي استطاعت رمي الأحجار والعصيان لمسافات بعيدة لكن عندما ارتفعت إطاراتها لتشكل الخيم ثم غطيت بالأقمشة والجلود صدم من الدهشة. فقد ارتفعت كعمالقة حوله من كل جانب، كنوع من الحياة الوحشية التي تنمو بسرعة هائلة، وغطت تقريباً جميع مدى بصره.

شعر الجرو بالخوف فقد إرتسمت فوقه بشكل مهيب. وعندما حركها الهواء بأشكال عملاقة بدأ ينحني بخوف مبقيا عينيه نحوها بحذر. وتحضر للقفز هربا إذا ما

حاولت الهجوم نحوه لكن في فترة قصيرة تلاشى خوفه. فقد رأى النساء والأطفال تتحرك داخلة وخارجة منها دون أن يصيبها الأذى. ورأى الكلاب تحاول الدخول إليها وتمنع بكلمات قاسية وأحجار تتطاير.

بعد وقت ترك جانب والدته وزحف بحذر نحو الجدار الأقرب للمخيم. دفعه فضوله نحوها بغريزة للتعلم والعيش والقيام بتجارب جديدة فزحف ببطء الخطوات الأخيرة وبحذر مبالغ.

حضرته أحداث اليوم للمجهول الذي تمثل بطرق مذهلة لا يمكن التفكير بها. في النهاية مس أنفه لقماش الخيمة وانتظر قليلاً لكن شيئاً لم يحدث. ثم شم رائحتها الغريبة التي تحمل رائحة الإنسان وأمسك القماش بأسنانه وجرها برقة. فتحركت الأماكن التي ربطت بها الخيمة قليلاً وحين جرها بقوة أكبرصدرت حركة أوسع.

كان الأمر مدهشا. وبعد عدة مرات من السحب أقوى وأقوى بدأت الخيمة كلها تتحرك. ثم جعلته صرخة امرأة قادمة من الخيمة يهرب نحو كيتشي.

لكن بعد ذلك لم يعد يخاف الخيم بأجسادها الضخمة العالية. لم تمر لحظة إلا وحاول الهرب بعيداً عن والدته مرة أخرى. أما هي فقد ربطت عصاها لوتد مغروس في الأرض ولم تستطع اللحاق به.

اقترب جرو أكبرسنا وحجما منه بقليل ببطء وتفاخر ورغبة بالقتال. عرف الجرو بإسم ليب - ليب كما سيسمع الرجال ينادوه لاحقاًوكان له خبرة في قتال الجراء ومنتمرا بالفعل. ولأنه من النوع نفسه كذي - الناب - الأبيض لم يبدُ خطيراً. لذا استعد للقائه بود لكن عندما رأى مشيته تتصلب وأسنانه تبرز فعل ذو - الناب - الأبيض الشيء نفسه فدار الجروان حول بعضهما لنصف دورة يزمجران ويتذمران بحماس.

استمر الأمر لبضع دقائق وكان الجرو يستمتع بالأمر كما لو كانت لعبة. لكن ليب - ليب قفز بخفة مفاجأة وضربه بأسنانه ثم ابتعد.

جرحت الضربة كتفه الذي إذاه الوشق مرة وما زال مؤلما قرب العظم وجعلته المفاجأة يعوي بألم.

في اللحظة التالية قفز نحو عدوه بسرعة وغضب وبدأ يعضه بوحشية. لكن ليب - ليب عاش حياته في المخيم وقاتل العديد من الجراء فتمكن من ضرب ذي - الناب - الأبيض ثلاث مرات وأربع ونصف دزينة حتى وسبب له جراح جعلته يعوي ويهرب بعار نحو والدته.

كان ذلك أول النزالات العديدة التي سيخوضها ذو - الناب - الأبيض ضد ليب - ليب. حيث أصبحا عدوين لدودين منذ البداية وقد ولدا بطبيعتين مقدر لهما التصادم.

لعقت كيتشي صغيرها بلسانها بعطف وحاولت ابقائه جانبها لكن فضوله تغلب عليه. وبعد دقائق تقدم في سعي آخر حتى وصل إلى القندس - الأشيب الذي كان يجلس القرفصاء ويفعل شيئاً بالعصي والطحالب الجافة أمامه على الأرض.

اقترب من الرجل وراقبه فأصدر الأخير غمغمة مشجعة بينما يجلب الرجال والنساء المزيد من الأغصان له. وكان واضحا أنه يقوم بعمل مهم فتقدم ذو - الناب - الأبيض بفضول متناسي الخوف من هذا الكائن الفظيع حتى مس ركبته.

رأى فجأة شيئاً غريباً كالضباب يرتفع من العصي والطحالب تحت يديه وظهر شيء حي يتحرك ويتلوى ويحمل لون الشمس في السماء.

لم يكن يعلم شيئاً عن النار لكنها كانت تناديه كما فعل الضوء في مدخل الكهف بداية حياته فزحف نحوها بضع خطوات وسمع الرجل يقهقه وعرف أن الصوت ليس معاديا. ثم مس أنفه النار وفي نفس اللحظة أخرج لسانه نحوها.

للحظة شلت حركته. كان المجهول يترصده في وسط العصي والطحالب وكان يتمسك بأنفه بوحشية. ثم تراجع متعثرا وبدأ يعوي متفاجئا.

عندما سمعت كيتشي صوت صغيرها بدأت تزمجر وتحاول القفز من مكانها. ثم مرت بنوبة غضب فظيعة لأنها لم تستطع المجيء لمساعدته لكن القندس - الأشيب ضحك بصوت عال وضرب فخذيه. ثم أخبر الجميع ما يحصل وبدأ الآخرون بالضحك كذلك.

تذمر الجرو كشكل صغير حزين مثير للشفقة بين البشر وشعر بأسوأ شعور عرفه في حياته بعد أن إحترق أنفه ولسانه بالشيء الحي ذي اللون الشبيه بالشمس الذي نما بين يدي الرجل. فعوا لوقت طويل وكل نوبة عواء جعلت البشر يضحكون بصوت اعلى.

حاول تمسيد أنفه بلسانه لكن تقريب المكانين المؤلمين من بعضهما زاد الألم فبكى بعجز أكثر من أي وقت مضى. ثم شعر بالعار وعرف معنى الضحك.

لا نعرف كيف يدرك بعض الحيوانات معنى الضحك لكن الجرو عرف معناه بتلك الطريقة وشعر بالخزي. ثم هرب ليس من النار بل من الضحك الذي آذاه بعمق حتى آلم روحه واتجه نحو والدته غاضباً ومحاولاً تمزيق العصا التي تربطها كما لو أصيب بالجنون - كيتشي المخلوق الوحيد الذي لم يكن يسخر منه ــ.

حل الغروب ثم المساء.

استلقى الجرو قرب والدته شاعرا بألم في لسانه وأنفه لكنه احتار بمشكلة أكبر. فقد شعر بالحنين لمنزله وبفراغ داخله بحاجة للهدوء وصمت المجرى والكهف والمنحدر.

أصبحت الحياة مزدحمة أكثر من اللازم. وكان هناك الكثير من الرجال والنساء والاطفال يصدرون الضوضاء والإزعاج إضافة للكلاب التي تتشاجر وتنبح وتخلق الفوضى طوال الوقت.

وإختفت حياة الوحدة المريحة التي اعتادها فهنا نبض الهواء نفسه بالحياة.

همهمت الحياة وغمغمت دون توقف مغيرة حدة ودرجة ضوضائها بشكل مستمر. وضغطت على أعصابه وحواسه وجعلته عصبي وغير مرتاح وسببت له قلق باستمرار حدوثها.

شاهد البشر قادمون وذاهبون ومتحركون في المخيم. ومثلت نظرته لهم نظرة البشر للآلهة التي خلقتها بشكل ما - أي مخلوقات متفوقة وربانية ـ.

بدا البشر لفهمه الباهت صانعي عجائب كما الآلهة بالنسبة للبشر - مخلوقات من غموض تملك كل أنواع الأمور المستحيلة غير المعروفة لجعل أعداد عملاقة من الأحياء وغير الأحياء تحت طاعتها وتحريك ما لا يتحرك من الأشياء وخلق حياة بلون الشمس تسبب الألم لحياة أخرى وتنمو بين الخشب والطحالب الميتة ـ.

بذلك تعرف على موقدي النار وعرف فيهم آلهة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 2 -

العبودية

كانت أيام ذي - الناب - الأبيض مليئة بالتجارب ففي الوقت الذي ظلت فيه كيتشي مربوطة بالعصا ركض في أرجاء المخيم باحثا ومستطلعا ومتعلما.

تعلم سريعاً الكثير عن طرائق البشر لكن الألفة لم تولد الازدراء. فكلما عرف البشر أكثر كلما برز تفوقهم وكلما برزت قواهم الغامضة كلما بدوا أشبه بآلهة.

غالباً ما يرى البشر آلهتهم تهزم ومزاراتهم تحطم لكن الذئب والكلب البري اللذين جاءا لينحنيا قرب أقدام الرجل لم يعرفا هذا الحزن. فعلى عكس الإنسان الذي لا يرى آلهته ولا يمكن أن يحزر كنهها - كما لو كانت ضباب جوال يمثل الخير والقوة التي يتوق الإنسان لها أو ظهور غير ملموس للنفس في عالم من الأرواح. - على عكس الإنسان وجد الذئب وكلب البرية آلهتهما قرب النار من لحم ودم. شيء ملموس يشغل مساحة من الأرض والفضاء ويتطلب وقتاً لإنجاز رغباته وتحقيق وجوده.

لا يوجد ضرورة للإجتهاد في الإيمان مع آلهة كهذه ولا أثر للعزيمة في إزالة الإيمان عنها. كما لا يوجد مهرب منها فهي تقف على قدمين خلفيتين بكثير من الإمكانات وتملك شغف وحب وقوة الآلهة. فيجتمع الغموض والسلطة في اللحم والدم الذي يمكن أن يمزق ويؤكل كأي وجبة شهية.

لا شك في أن البشر آلهة ولم يملك الجرو مهرب منها. فكما خضعت والدته كيتشي للأمر أول مرة سمعت نداء اسمها كذلك فعل.

منح الطريق الذي يقطعه البشر ميزة لهم وحدهم. فكلما مشوا ابتعد عن طريقهم وكلما نادوه لبى النداء وكلما هددوه انحنى بجبن وعندما أمروه بأن يغادر غادر بسرعة. فقد كان هناك قوة تعزز كل أمنية يتمنوها، قوة تسبب الأذى وتعبر عن نفسها بالضربات والعصي والأحجار المتطايرة ولسعات السياط.

وككل الكلاب كان ذو - الناب - الأبيض طوع أمرهم فجسده وكله ملكا لهم يضربوه ويهملوه ويعطفوا عليه. وقد تعلم هذا الدرس سريعاً.

كان الأمر صعبا ومخالفا لكل غرائزه ولم يعجبه بالطبع لكنه تعلم تدريجياً الإعجاب به دون أن يدرك. فقد كان يضع قدره في يدي آخرين وحدث تغير في المسؤوليات. وهنا كمن التعويض لان من الأسهل دائماً الإعتماد على المساعدة بدل الوقوف وحيداً. لكن لم يحدث الأمر في يوم واحد. هذا الخضوع الجسدي والروحي لم يستطع تجاوز إرث البرية وذكريات أيامها فورا.

بعض الأيام اقترب من حافة الغابة وتوقف يستمع لنداء خفي من بعيد لكن في كل مرة عاد متضايقا وقلقا ومتذمرا ليلعق وجه كيتشي بلسان متساءل. كما تعلم طرق المخيم وعرف الظلم وطمع الكلاب العجوزة عندما حان وقت إطعامها. وبعد

مغامرتين مؤلمتين أو ثلاث ضد أمهات الجراء فضل البقاء بعيداً عنها قدر الامكان وتجنب رؤيتها.

لكن أسوأ شيء في حياته كان ليب - ليب. فقد كان هذا الجرو أكبرمنه حجما وسنا وأقوى جسديا وقد اختاره هدفا لإرهابه.

قاتل ذو - الناب - الأبيض بشجاعة لكنه هزم في كل مرة فقد كان خصمه كبير الحجم. وأصبح بمثابة كابوس حي ظهر كلما ابتعد عن والدته واقترب منه مزمجراً ومحاولاً إزعاجه كمن يتحين الفرصة لإيجاده وحيداً دون حماية البشر ليقفز نحوه ويجبره على القتال. ولكونه يربح دائماً فقد إستمتع بالأمر كثيراً حتى أصبح القتال بهجة حياته وعذاب حياة ذي - الناب - الأبيض.

لكن قسوته لم تروع ذا - الناب - الأبيض ولم تكسر شوكته. مع ذلك تولد لدى الأخير نوع من الخبث والتجهم. ورغم أن عصبيته كانت ملحوظة منذ الولادة إلا أنها أصبحت أكثر وحشية تحت هذا الإرهاب اللانهائي ولم يجد فرصة للتعبير عن جانبه اللطيف المرح الشبيه بالجراء. فلم يلعب ويمرح مع بقية جراء المخيم لأن ليب - ليب لم يسمح له. وكلما حاول التقرب منها هجم المتنمر نحوه بغطرسة حتى يهرب مبتعداً.

كان تأثير كل هذا خسارته للكثير من طفولته وجعله يتصرف كأنه أكبرمن سنه. ودون القدرة على صرف طاقته في اللعب إنطوى على نفسه وطور عملياته الذهنية فأصبح ماكرا وكرس وقته للتفكر في الحيل. وعندما منع من الحصول على حصته من السمك واللحم حين أطعمت بقية الكلاب أصبح سارقا ذكيا. فقد إحتاج للإعتماد على نفسه وفعل ذلك جيداً.

رغم تلقيه العواقب على شكل صرخات بشرية تعلم التسلل عبر المخيم وأصبح أكثر دهاءا فقد إحتاج لمعرفة ما يحصل في كل مكان وسماع ورؤية كل شيء ليستنتج ما عليه فعله وفق ذلك وليوظف وسائل ناجعة لتجنب عدوه اللدود.

في أيام إرهابه الأولى خاض أول لعبة فكرية كبيرة وحصل على أول طعم للإنتقام.

كما فعلت كيتشي مرة باغراء الكلاب للابتعاد عن مخيم الرجال كذلك فعل بطريقة مشابهة نوعا ما مغريا ليب - ليب نحو فكي كيتشي المنتقمة. كان يومها يتراجع أمام عدوه اللدود ليقود النزال إلى داخل وخارج الخيم بطريقة غير مباشرة فقد كان عداءا جيداً ويتحرك بخفة أكبرلكنه لم يركض بأفضل ما عنده تلك المرة بل بقي على بعد قفزة واحدة من مطارده.

نسي ليب - ليب حذره ومعرفته بالمكان لشدة حماسه من اقتراب ضحيته الوشيك وعندما تذكر المكان كان الأوان قد فات. فقد ركض حول ركن خيمة بسرعته القصوى ليصل إلى مكان كيتشي مباشرة. ثم أطلق نباحا مذعورا واحداً قبل أن تنهض وتغلق فكيها على جسده.

رغم ربط كيتشي لم يكن الهروب منها سهلا فتمكنت من قلبه على جانبه لكي لا يستطيع الركض ومزقت وعضت جسده بأنيابها مراراً وتكرارا. وعندما نجح أخيراً

بالإفلات من قبضتها تدحرج مبتعداً ثم وقف على قدميه مضطربا ومتألما جسديا وروحيا وشعره ينتصب بخصل صغيرة حيث نهشته بأسنانها.

وقف ليب - ليب محله لفترة وفتح فمه يطلق صرخة الجرو الطويلة الكسيرة القلب لكن حتى صرخته تلك لم يسمح له بإنهائها. فقد قفز ذو - الناب - الأبيض مقاطعا وغرس أسنانه في ساقه الخلفية. وحينها لم يعد يملك أدنى مقاومة فهرب شاعرا بالخزي ولاحقه ضحيته حتى وصلا خيمة.

أخيراً جائت النساء لمساعدة ليب - ليب حيث رأت ذا - الناب - الأبيض يتحول إلى شيطان مهتاج قبل أن يهرب أخيراً أمام سيل من الأحجار.

ذات يوم أطلق القندس - الأشيب سراح كيتشي فقد إقتنع أن إحتمالية هربها لم تعد واردة. سعد ذو - الناب - الأبيض بحرية والدته ورافقها في أرجاء المخيم بينما بقي ليب - ليب على مسافة آمنة منهما. حتى أن ذا - الناب - الأبيض تحرش به ومشى بغطرسة قربه لكن ليب - ليب تجنب التحدي. فلم يكن أحمقا رغم رغبته الشديدة بالآنتقام بل إنتظر بصبر حتى يجد ضحيته وحيداً.

لاحقاًذلك اليوم مشى ذو - الناب - الأبيض ووالدته نحو حافة الغابة قرب المخيم. قاد الصغير والدته هناك خطوة بخطوة وعندما توقفت حاول تشجيعها على التقدم أكثر فقد ناداه المجرى والعرين والغابة الهادئة وأراد منها مرافقته.

ركض بضع خطوات ثم نظر إلى الخلف. لم تتحرك كيتشي فتذمر متوسلا وعوا بمرح ماشيا بين الشجيرات ثم عاد إليها ولعق وجهها وركض مبتعداً عنها مجدداً. ومع ذلك لم تتحرك.

توقف وحدق بها برغبة ونية معبرا عن ذلك بجسده لكن الشعور غاب تدريجياً عندما أدارت رأسها وحدقت بالمخيم. رغم أنها سمعت نداء البرية الذي قادها إليه إلا أنها سمعت نداءا آخرَ أعلى - نداء النار والإنسان، النداء الذي قدر للذئاب من دون الحيوانات الرد عليه، الذئاب والكلاب البرية وهم أخوة ــ.

إستدارت كيتشي ومشت على مهل نحو المخيم فقد كانت مقيدة بالمخيم برباط أقوى من قيد العصا. بقوة غامضة غير ملموسة أحكم الآلهة قبضتها لكيلا يسمح لها بالمغادرة.

جلس ذو - الناب - الأبيض تحت ظل شجرة وتذمر وتشمم رائحة صنوبر قوية وعطر خشب في الهواء ذكره بحياته القديمة والحرية قبل أيام المخيم لكنه ما زال جرو غير كامل النمو وحاجته لوالدته أقوى من نداء الطبيعة والإنسان. فقد إعتمد عليها كل ساعات حياته القصيرة ولم يكن الوقت قد حان للإستقلال عنها بعد. لذا نهض ومشى ببؤس نحو المخيم متوقفا عدة مرات ليجلس ويتذمر ويستمع للنداء الذي استمر في أعماق الغابة.

قد يكون وقت الذئاب مع والداتها في البرية قصيرا لكنه قد يكون أقصر حتى تحت رعاية البشر. وهكذا كان الأمر مع ذي - الناب - الأبيض.

كان القندس - الأشيب يدين لذي - العقاب - الثلاثة. وكان الأخير على وشك الذهاب في رحلة على طريق نهر ماكنزي حتى بحيرة غريت - سلاف فقرر رد دينه بإعطائه خيط من القماش القرمزي وجلد دب وعشرين خرطوشا وكيتشي.

رأى ذو - الناب - الأبيض والدته تحمل في قارب وحاول اللحاق بها لكن ضربة من الرجل أوقعته إلى الخلف على اليابسة. تحرك القارب فقفز في الماء وسبح خلفه متجاهلا صوت القندس - الأشيب التي يناديه للعودة وتجاهل آلهته البشر جميعاً فقد كانت رغبته في عدم خسارة والدته عظيمة لهذه الدرجة.

لكن الآلهة معتادة على إطاعتها. فقاد القندس - الأشيب قاربه ولاحق الجرو غاضبا. وعندما وصل إليه مد يده ورفعه من مؤخرة عنقه لكنه لم يرمه في القارب فورا بل رفعه بإحدى يديه وضربه بيد ثقيلة.

أصابت كل ضربةٍ ذا - الناب - الأبيض بألم مقصود. وبعد عدد كبير من الضربات ترنح كرقاص ساعة ضال بينما هرعت عليه اليد المعنفة من الجانبين كالمطر وعصفت به مشاعر متنوعة. فعرف المفاجأة عنما عوى عدة مرات بتأثير الضربات لكن الغضب ظهر سريعاً وسيطرت طبيعته الحرة عليه فأبرز أسنانه مزمجراً بشجاعة في وجه الإله الغاضب لكن هذا جعل الإله أكثر غضبا فنزلت الضربات عليه أقوى وأسرع وبإصرار أكبر على الأذى.

استمر الرجل بضربه واستمر الجرو بالعواء لكن ذلك لم يستمر إلى الابد بطبيعة الأمر. كان على أحدهما أن يستسلم أخيراً وحدث أن فعل ذو - الناب - الأبيض حين سرى الخوف عبر جسده الصغير وأصبح طوع يدي الإنسان لأول مرة بالفعل. فبدت الأحجار وضربات العصي التي تلقاها حتى الآن دعابات مقارنة بما واجهه الآن لذا استسلم وبدأ يبكي ويعوي.

لفترة أصدر عواء بائسا مقابل كل ضربة لكن الخوف تحول إلى رعب حتى أصبح الصوت عواء واحداً متواصلا لا يتناسب ووقع العقاب.

أخيراً أبعد القندس - الأشيب يده وظل الجرو يعوي هزيلا معلقا في الهواء. بدا أن هذا أفرح سيده فرماه نحو قاع القارب.

كان القارب قد إنجرف عبر المجرى فحمل الرجل المجداف ليوجهه. حين كان الجرو على وشك مس القاع ركله سيده بوحشية بقدمه فعادت الطبيعة الحرة للسيطرة على الجرو وغرس أسنانه في قدم الرجل عبر حذائه. ومرة أخرى تلقى ضربات أقوى فقد كان غضب القندس - الأشيب فظيعا وكذلك رعب الجرو. لم يضربه بيده وحسب هذه المرة بل وبالمجداف الخشبي الصلد كذلك. وعندما رماه مرة أخرى على قاع القارب كان جسده الصغير متورما ومؤلما في كل جزء منه.

حين رفسه الرجل بقدمه بإصرار لم يهاجم القدم فقد تعلم درس في العبودية وهو إلا يجرؤ أبداً ومهما كانت الظروف على عض الإله الذي كان سيده وحاكمه. وأن جسد السيد والحاكم مقدس ولا يجب إنتهاك حرمته بأسنانه فتلك أبشع الجرائم على ما يبدو وإهانة لا يمكن التغاضي عنها أو مسامحتها.

عندما وصل القارب إلى اليابسة جلس دون حراك يتذمر وينتظر أوامر سيده حتى رماه الرجل بعنف على جانبه وأذى كدماته الحديثة ليوجهه نحو اليابسة. فنهض مرتجفا على أقدامه ووقف يتذمر.

شاهد ليب - ليب كل ما حدث من الضفة. وفور أن وصل ذ - الناب - الأبيض اليابسة هجم عليه فأوقعه وغرس أسنانه في جسده. كان الجرو الصغير عاجزا عن الدفاع عن نفسه ولكان تلقى ضررا كبيرا لولا تدخل القندس - الأشيب الذي ضرب عدوه ليحلق في الهواء ويقع على بعد دزينة من الأقدام.

ميز ذو - الناب - الأبيض في فعل سيده عدالة البشر. وحتى في وضعه المثير للشفقة ذلك شعر بالعرفان فعرج قرب قدمي سيده مطيعا ومشيا عبر القرية نحو الخيمة. وهكذا تعلم ذو - الناب - الأبيض أن حق العقاب يعود للآلهة فقط ويحرم على الكائنات الأقل شئنا.

تلك الليلة عندما هدأ كل شيء تذكر والدته ونعاها بصوت عال حتى أيقظ القندس - الأشيب ليضربه مرة أخرى. بعد ذلك تعلم أن يحزن بهدوء عندما كانت الآلهة قريبة لكنه أحياناً بقي وحيداً قرب حافة الغابة ونفس عن حزنه وبكى بعواء عال.

خلال هذه الفترة ربما استطاعت ذكريات العرين والمجرى جعله يهرب عائداً إلى البرية لكن ذكرى والدته أبقته في المخيم. فقد رأى الصيادون يخرجون ويعودون وهذا يعني أنها ستعود للقرية يوماً ما لذا بقي عبداً ينتظرها.

لكنها لم تكن عبودية غير سعيدة تماماً طالما حدث شيء جديد. ولم يكن هناك نهاية للأشياء الغريبة التي قام بها الآلهة والتي آثارت اهتمامه وفضوله لرؤيتها. كما تعلم التعايش مع سيده. فقد توقع الأخير منه الطاعة العمياء الدائمة وفي المقابل تجنب الضرب واحتمل وجوده.

حتى أن القندس - الأشيب نفسه رمى له قطعة من اللحم أحياناً ودافع عنه ضد بقية الكلاب. وبدت قطعة اللحم هذه أكثر قيمة من دزينة من اللحم من يد النساء بطريقة غريبة ما.

لم يربت عليه سيده أو يلاعبه أبداً. وربما كان ثقل يده أو عدالته أو قوته المطلقة - أو ربما هذه الأشياء مجتمعة - ما أثر بذي - الناب - الأبيض. فبدأ نوع من الإرتباط ينشأ بينهما. كما عزز رباط عبوديته بوسائل أخرى إضافة للعصي والأحجار وضربات الأيدي. فقد كانت صفات نوعه التي مكنته من الاقتراب من النار في البداية صفات قابلة للتطور وبدأت تتطور الآن.

حببت حياة المخيم مهما كانت مزرية ذاتها إليه طوال الوقت رغم أنه لم يدرك ذلك. بل عرف فقط الحزن لفقدان كيتشي والأمل بعودتها والتوق الجائع للحياة الحرة التي عاشها سابقاً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 3 -

المنبوذ

استمر ليب - ليب بآثارة المشاكل لذي - الناب - الأبيض. وأصبح الأخير أكثر خبثا ووحشية مما كان مقدراً له طبيعيا فتفاقم العنف الذي كان جزء من شخصيته خلال تطوره حتى حصل على سمعة شريرة بين البشر. وكلما حدثت مشكلة وصدر صياح في المخيم بسبب قطعة لحم ما وجد في مركز المشكلة.

لم يتحقق البشر من أسباب المشكلة بل لاحظوا النتائج السيئة فقط. فهو من يتسلل ويسرق ويسبب المشاكل بنظرهم ولذا إعتبروه متمردا وأخبرته النساء المنزعجات بذلك لوجهه. بينما راقبهن بحذر مستعدا لتجنب الأحجار المرمية نحوه فقد بدا أن كونه ذئباً لا قيمة له ولابد من أن يقود لنهاية سيئة.

وجد ذو - الناب - الأبيض نفسه منبوذا من قبل جميع الكلاب وعلى رأسها ليب - ليب. فقد أدركت وجود فرق بينه وبينها وربما شعرت بجانبه البري وولد ذلك عداوة غريزية نحوه. وهي عداوة لطالما شعرت بها الكلاب الأليفة نحو الذئاب. لذا رافقت ليب - ليب في إرهابه المستمر وفور أن أعلنت موقفها منه وجدت فيه سببا للاستمرار بمعاداته.

بدوره أمطر ضربات أسنانه عليها بين فترة والأخرى. فقد استطاع هزيمة أي منها في نزال فردي لكنه لم ينل فرصة للنزالات الفردية إلا قليلاً. فكلما سنحت له الفرصة إنضمت بقية الكلاب إلى رفيقها وجائت من كل مكان راكضة نحوه.

تعلم شيئين مهمين من هذا التنمر الدائم. أولهما كيفية الاعتناء بنفسه في نزال ضد مجموعة من الكلاب. والآخر كيف يسبب أكبرقدر من الألم لخصمه في نزال فردي بوقت قصير. كما تعلم أن البقاء على أقدامه أثناء القتال مهمّ جداً فتدرب عليه حتى أصبح أشبه بقطٍ في قدرته على البقاء على قدميه. وحتى عندما تمكنت الكلاب البالغة من قلبه على ظهره أو جانبه بأجسادها الثقيلة أبقى أطرافه موجهة نحو الأرض.

عادة ما تعرض الكلاب مقدمات قبل أن تبدأ القتال مثل الزمجرة والنباح والمشي بتبختر لكنه تعلم تجاوز هذه المقدمات لأن التأخير يعني وصول بقية الكلاب للهجوم عليه وأن عليه أن يقوم بما يلزم بسرعة ويستعد للهرب. لذا تعلم إلا يظهر نواياه وأن يركض سريعاً ويهاجم عدوه فورا قبل أن يلاحظه العدو ويستعد للدفاع عن نفسه. وهكذا تعلم أن يسبب أكبرقدرا من الدمار بأقل وقت ممكن.

إضافة لذلك تعلم كيف يفاجئ عدوه فإذا ما هاجم عدوه فجأة واستطاع جرح كتفه أو تمزيق أذنه لشرائط قبل أن يدرك ما يحصل فهذا يعني أنه إنتصر بالفعل. علاوة على ذلك كان من السهل إسقاط كلب متفاجئ. وعندما يقع ضحية له بهذه الطريقة يصبح الجزء الطري من رقبته واضحا للحظة وهي نقطة ضعيفة تمكنه من القضاء على عدوه إذا ما هاجمها.

عرف ذو - الناب - الأبيض هذه المسألة لكونها معلومات ورثها عبر أجيال من الذئاب الصيادة ولهذا فقد كون خطة لمهاجمة أعدائه. وذلك بإيجاد كلب صغير وحيد ثم مفاجئته وإيقاعه عن أطرافه بأسرع ما يمكن قبل أن يهبط على المنطقة الطرية من رقبته بأسنانه. ورغم أن فكيه لم يكونا قويين أو كبيرين كفاية بعد لتكن هجماته قاتلة إلا أن العديد من الكلاب حملت جروح على رقبتها كتذكار من هجماته.

في أحد الأيام وجد أحد اعدائه وحيداً قرب حافة الغابة وتمكن من قطع وريده الكبير بإتباع الطريقة نفسها ومهاجمة حنجرته مراراً وتكرار حتى قتله.

حصل هياج عظيم تلك الليلة فقد شهد أحد البشر ما حصل وأخبر سيد الكلب القتيل بالأمر. كما تذكرت النساء جميع حوادث سرقة اللحم السابقة.

إنزعج القندس - الأشيب من الأصوات الغاضبة لكنه أبقى المتهم في داخل خيمته ومنع أحد من الوصول إليه رغم إحتشاد أفراد القبيلة في الخارج.

أصبح ذو - الناب - الأبيض محط كره البشر والكلاب على حد سواء ولم يعرف لحظة أمان خلال فترة تطوره تلك. فقد كانت كل أسنان الكلاب وأيادي الرجال ضده وأستقبل بالزمجرة من قبل أفراد نوعه وبالأحجار والشتائم من قبل الآلهة. حتى أصبح يعيش بقلق دائم كمن على أهبة الاستعداد للهجوم في أي وقت وأتعبته الحاجة للدفاع عن نفسه. كما اعتاد التصرف بحذر وسرعة ليقفز بارزا أسنانه وقت ما إحتاج أو يقفز مبتعداً للهرب بزمجرة متوعدة في أوقات أخرى.

استطاع الزمجرة بصوت أعلى من أي كلب صغير أو كبير في المخيم بهدف التهديد أو إخافة اعدائه. وتعلم متى وكيف يستعمل صوته. كما تعلم التعبير بزمجرته عن كل ما هو خبيث ووحشي وسيء بأنف متشنج وشعر ينتصب بأمواج متوالية بينما يتدلى لسانه للخارج مثل ثعبان أحمر ويعود للداخل مرة أخرى وتنحني أذناه إلى الخلف وتشع عيناه بكره وتتجعد شفتاه وتظهر أنيابه ويقطر لعابه.

استطاع أن يقهر أي معتد بتوقف مفاجئ مما أعطاه لحظة حاسمة للتفكير واتخاذ القرار. وغالباً ما أطال هذا التوقف حتى سمحت له زمجرته بالتراجع بشرف أمام الهجوم والهرب.

نبذ من قبل مجموعة الجراء وجعلت إحترافيته المميزة ووسائلة المتفائلة المجموعة تدفع ثمن إرهابها الدائم له.

لم تسمح له الكلاب بالركض معها وبسببه لم يركض أي منها وحيداً. فقد أصبحت الكلاب خائفة من الضربات المفاجئة والكمائن التي نصبها لها فاضطرت للتزاحم معاً لحماية بعضها من العدو الفظيع الذي صنعوه - عدا ليب - ليب ـ. فإذا مشى جرو وحيد قرب حافة النهر فمن المؤكد أن يموت أو يوقظ المخيم بصرخاته الحادة المليئة بالرعب والألم بينما يهرب من ذي - الناب - الأبيض.

لكن إنتقام ذي - الناب - الأبيض لم يقف عند ذلك الحد حتى بعد أن تعلمت الجراء البقاء سوية. فقد اعتاد مهاجمتها عندما كانت وحيدة واعتادت مهاجمته عندما كانت مجتمعة وتكفل منظره وحده بجعلها تركض خلفه.

عادة ما حملته خفته إلى بر الأمان لكن إذا ما ركض أحد الكلاب متقدما على مجموعته فالويل للكلب الشقي! فقد تعلم ذو - الناب - الأبيض أن يلف بسرعة نحو ملاحقه ويؤذيه قبل وصول البقية. وحدث هذا كثيراً لأن الكلاب تنسى نفسها لشدة حماسها لكنه لم ينسَ نفسه أبداً. بل نظر إلى الخلف بين فترة وفترة مستعدا دائماً لمهاجمه ملاحقه الذي تقدم على البقية.

يعد اللعب من طبيعة الكلاب اليافعة وقد أصبحت محاكاة المعارك تلك لعبتها الأساسية. وهي لعبة مميتة وجدية طوال الوقت لكن باليد الأخرى لم يكن ذو - الناب - الأبيض خائفاً من الذهاب لأي مكان لكونه الأسرع.

خلال الفترة التي إنتظر بها دون جدوى عودة والدته لاحقته الكلاب عبر الغابة القريبة مرات ومرات لكنها لم تستطع إيجاده أبداً. فقد حذره صوتها وصرخاتها من اقترابها بينما يركض وحيداً بخفة وصمت كما لو كان ظل متحرك بين الأشجار على طريقة والده ووالدته. كما كان إرتباطه بالبرية أعمق من إرتباط الكلاب بها وعرف أكثر عن أسرارها وحيلها منها.

كانت أحد حيله المفضلة هي إخفاء أثره بالغطس في الماء الجاري ثم الاستلقاء بهدوء بين الأشجار بينما ترتفع الصرخات المكتومة من حوله.

كرهه أبناء نوعه والبشر ودائماً ما جلب الحرب التي لا تقهر على نفسه. فقد تطور سريعاً وبشكل محدد حيث لم تكن بيئته أرضا خصبة لنمو العطف والحب ولم يمكن يملك أدنى فكرة عن هذه الأمور. فتعلم طاعة القوي وأذية الضعيف. بذلك أطاع القندس - الأشيب لكونه إله قوي واعتبر الجراء شيء لتدميره لكونها ضعيفة وصغيرة.

ازدادت قوته من أجل مواجهة خطر الأذى الدائم والهلاك. وتطورت صفات الأذى والإفتراس لديه قبل أوانها فأصبح سريعاً مقارنة بالبقية وأخف حركة وأكثر إبداعا وقدرة على القتل. كما أصبح أكثر رشاقة بحركة عضلاته واوتاره الشبيهة بالمعدن وأكثر قسوة وترهيب وشراسة وذكاء. فقد كان مضطرا لأن يكون كل ذلك ليواجه الألم ويدافع عن نفسه وينجو في تلك البيئة المعادية التي وجد نفسه فيها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-4-

طريق الآلهة

حل الخريف وأصبحت النهارات أقصر والهواء محملا بالصقيع. حينها حصل ذو - الناب - الأبيض على فرصة لنيل حريته. فلعدة أيام كان هناك فوضى كبيرة في القرية بينما يفكك المخيم الصيفي وتتحضر القبيلة للصيد جامعة أغراضها.

راقب ذو - الناب - الأبيض بعيون تواقة الخيم تفكك والقوارب تعبى عند الضفة وفهم ما يجري. وشاهد القوارب تغادر بالفعل ويختفي بعضها عبر النهر فقرر بنية مسبقة البقاء وانتظر فرصته للتسلل من المخيم نحو الغابة. ثم اخفى أثره في مجرى الماء الذي بدأ يتحول لثلج بالفعل وزحف نحو عمق الغابة وانتظر مرور الوقت. ونام نوماً متقطعاً لساعات ثم نهض على صوت القندس - الأشيب ينادي اسمه إضافة لأصوات أخرى - صرخات النساء تشترك في البحث وكذلك ابن سيده متساه –.

إرتجف خوفاً ورغم ان غريزته الأولى كانت الزحف خارج مكان اختبائه إلا أنه قاومها حتى ماتت الأصوات وبعدها تسلل ليحتفل بنجاح خطته.

كان الظلام يحل بينما يلعب بين الأشجار مستمتعا بحريته. ثم شعر فجأة بالوحدة فجلس وفكر بصمت بينما يستمع لصمت الغابة وأربكه الأمر.

لم يتحرك شيء أو يصدر صوت وبدا ذلك منذرا بالشؤم. فشعر بخطر محدق دون أن يراه أو يحزر كنهه وبتكتلات الأشجار والظلال المظلمة محملة بكل أنواع الأمور المحفوفة بالمخاطر. ثم حل البرد ولم يكن هناك خيمة ليتدفأ جانبها وأثر الصقيع بقدميه فاستمر برفع أحد أطرافه ثم الآخر لتدفئتها فلف ذيله ليغطي أطرافه وبنفس الوقت راودته رؤية غريبة.

كان هناك تسلسل من الذكريات يمر في مخيلته. فرأى المخيم والخيم ولهيب النار وسمع أصوات النساء الحادة وأصوات الرجال الخشنة ونباح الكلاب وتذكر قطع اللحم والسمك التي رميت نحوه بينما يدب الجوع في جسده. ولم يكن هناك لحم في الغابة ولا شيء غير الصمت المهدد الذي لا يشبع. لقد خلت أيام عبوديته وعدا زمن عدم المسؤولية بعد أن نسي كيف يعتني بنفسه.

اعتادت حواسه على أصوات المخيم وتغير الصور المستمرة التي لم تعد موجودة. ولم يكن هناك شيء لفعله أو رؤيته أو سماعه هنا فتوقت حواسه لأي إزعاج يقاطع الصمت وهدوء الطبيعة وكرهت عدم حدوث شيء وترقبه لخطر ما. فشعر بفراغ كبير.

كان هناك شيء ضخم مظلم يقترب منه فجأة. حين أدرك أنه ليس سوى ظل شجرة يعكسه ضوء القمر عادت ثقته له فتذمر على مهل ثم توقف خوفاً من أن يلفت نظر الأخطار الوشيكة التي قد تسمعه.

أصدرت شجرة تتحرك في المساء صوت عال فوقه مباشرة فنبح بخوف ومر بنوبة هلع وركض نحو القرية مباشرة شاعرا برغبة ملحة لحماية ورفقة الإنسان بينما عبقت رائحة دخان المخيم في أنفاسه ورنت أصواته في أذنيه.

عبر الغابة نحو فسحة يشع فيها الضوء ولا تغطيها الظلال لكن لم تستقبله القرية فقد نسي أنها إختفت. ثم اختفت الرغبة البرية بالهرب فلم يكن هناك مكان للهرب إليه. لذا إنسل بحزن عبر المخيم المهجور يتشمم أكوام الأزبال والأقمشة المرمية وآثار البشر.

لكان سيسعد لتلقي الأحجار المتطايرة نحوه أو صرخات النساء الغاضبة أو يد سيده حتى وهي تنزل نحوه بغضب. وربما لاستقبال ليب - ليب ومجموعة الكلاب النابحة.

أخيراً وصل إلى محل خيمة القندس - الأشيب وجلس في مركز المكان الذي شغلته ثم وجه أنفه نحو القمر وارتجفت حنجرته بتشنجات متسارعة. ففتح فمه وأطلق عواء كسير القلب عبر عن وحدته وخوفه وحزنه لفراق كيتشي وجميع أحزانه الماضية وترقبه للأخطار والعذابات القادمة حتى ملئ عواء الذئب الطويل حنجرته وفمه وكان ذلك أول عواء حقيقي أطلقه.

أزال النهار مخاوفه لكنه زاد من وحدته وجعلت الأرض العارية التي كانت مزدهرة بالسكان قبل فترة قليلة وحدته أعمق. فلم يمر وقت طويل قبل أن يتخذ قراره ليهرع نحو الغابة وعلى طول ضفة المجرى المائي راكضا طوال اليوم متجاهلا تعب عضلات جسده الشبيهة بالمعدن. فقد أعده إرث قدرته على التحمل بشكل لانهائي على تحمل التعب والاستمرار.

حين تعرج المجرى بانحدارات عنيفة تسلق الجبال العالية وعبر الآنهار والمجاري المائية التي صبت في النهر الرئيسي أو سبح عبرها وتعثر عبر أكوام الثلوج التي بدأت تتشكل ووقع أكثر من مرة مكافحا من أجل حياته في الموج الثلجي باحثا طويلاً عن الطريق الذي سلكته الآلهة وعن أثر بعيداً عن النهر على الأرض.

كان ذو - الناب - الأبيض أذكى من بقية أبناء جلدته لكنه لم يمتلك رؤية واسعة تمكنه من رؤية إحتمالية عبورها للضفة الأخرى للنهر فلم يخطر الأمر على باله.

لاحقاًبعد أن سافر مسافات أطول وأصبح أكثر حكمة وعرف الطرق والآنهار لربما وقتها استطاع فهم مثل تلك الإحتمالية لكنه لم يكن يملك هذه القدرة العقلية بعد. أما الآن فكان يركض على ضفته وحيداً يعد حساباته طوال الليل ويتعثر بعقبات وحوادث أخرته لكنها لم تكسر شوكة عزيمته.

في وسط اليوم التالي كان يركض لمدة ثلاثين ساعة متواصلة وبدأت عضلات جسده تستسلم للتعب لكنه استمر معتمدا على قوة تحمل عقله فهو لم يأكل منذ أربعين ساعة وأصبح ضعيفا بسبب الجوع. كما أثر فيه السقوط المتكرر في الماء المتجمد وكان فرائه الجميل قد تجعد أما باطن أقدامه فقد تورم وبدأ ينزف فبدأ يعرج وساء حاله مع كل ساعة. ولجعل الأمر أسوأ حجب هطول الثلج السماء - ثلج رطب بارد

يلتصق بالجسد ويذوب وينزلق تحت أقدامه. ويحجب رؤية المناظر حوله ويغطى تعرجات الأرض ليصبح الطريق أصعب وأكثر ألما ــ.

كان في نية القندس - الأشيب التخييم على الضفة البعيدة من النهر لأن طريق الصيد في ذاك الاتجاه لكن على الضفة الغربية وقبل أن يحل الظلام بقليل لاحظت زوجته كلوكوتش حيوان موظ يقترب من الماء ليشرب.

لولا اقتراب الحيوان من النهر ولولا كون متساه يسير بعيداً عن الطريق لتجنب الثلج ولولا رؤية كلوكوتش للحيوان ولولا قتل القندس - الأشيب له بضربة محظوظة من بندقيته لحصل كل ما تلا بطريقة مختلفة.

لم يكن القندس - الأشيب لينصب المخيم على الضفة القريبة من النهر ولتعداه ذو - الناب - الأبيض وأكمل طريقه نحو البرية ليموت أو ينضم للذئاب ويصبح واحداً منهم - ذئباً حتى آخر أيامه ــ. لكن المساء حل وأصبح الثلج أثقل فتذمر لنفسه بينما يتعثر ويعرج حتى شاهد أثر حديث في الثلج.

كان الأثر ما زال واضحا فتعرف عليه على الفور وعوا بحماس متتبعاً الأثر حتى الأشجار المتجمعة حيث سمع أصوات المخيم ورأى لهيب النار وكلوكوتش تطبخ والقندس - الأشيب يقطع لحماً طازجا.

توقع أن يتلقى الضرب فانحنى وتذمر بسبب الفكرة. ثم تقدم نحو المخيم خائفاً لكنه عرف أن دفء النار ينتظره إضافة لحماية الآلهة ورفقة الكلاب - رفقة عداء لكنها رفقة ترضي رغبته بالآنتماء لقطيع مع ذلك ــ.

زحف محني الجسد نحو النار وشاهده سيده فتوقف للحظة عن العمل. بينما استمر الجرو بالزحف متوقعا العقاب ومظهرا الآنصياع مبطئا حركته مع كل خطوة.

أخيراً استلقى عند قدمي سيده وسلم نفسه ليكون طوعه بالروح والجسد. لقد جاء من تلقاء نفسه ليجلس قرب نار الرجل وليحكم من قبله وارتجف بانتظار العقاب. ثم شعر بحركة اليد فوق رأسه فتذلل منتظرا الضربة لكنها لم تأتِ.

حدق للاعلى ورأى سيده يقسم قطعة لحم إلى نصفين ثم يقدم أحد النصفين له!

تشمم القطعة برقة وشك ثم بدأ بأكلها. أمر القندس - الأشيب بإحضار المزيد من اللحم له ووفر الحماية لذي - الناب - الأبيض من بقية الكلاب بينما يتناول طعامه.

بعد ذلك استلقى الأخير قرب قدمي سيده راضياً وناعساً يحدق بالنار التي دفأته مطمئناً لمعرفته بأن الغد لن يجده وحيداً وحزينا في الغابة الواسعة المملة بل في مخيم البشر.

أصبح الآن معتمداً على الآلهة التي منح نفسه لها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 5 -

الميثاق

حين انتهى شهر ديسبمر/كانون الأول خرج القندس - الأشيب في رحلة على طول نهر ماكنزي يرافقه متساه وكلوكوتش. كان يقود أحد مزلاجين تجره كلاب إقترضها أو قايضها بينما يقود متساه المزلاج الآخر يجره مجموعة من الجراء.

بدا مزلاج الصبي أشبه بلعبة من مزلاج حقيقي لكن متساه سعد به كثيراً وشعر أنه يؤدي عمل الرجال لأول مرة. كما كان يتعلم قيادة الكلاب وتدريبها بينما كانت الجراء تتعلم روتين العمل. علاوة على ذلك كان المزلاج مفيدا لحمله حوالي مئتي باوند من الألبسة والطعام.

رأى ذو - الناب - الأبيض الكلاب تكد في العمل لذا لم يقاوم الأمر أول مرة وضعت الضفيرة الجلدية حوله لربطه. ثم وضع طوق مكسي بالطحالب حول رقبته وربط بنتوئين يسحب منهما إلى رباط جلدي يلف على صدره وظهره حيث يرتبط بحبل طويل يسحب المزلاج.

كان هناك سبعة جراء في فريقه. ولد الآخرون في بداية السنة وكانوا بعمر تسعة أو عشرة أشهر أما هو فكان بعمر ثمانية أشهر فقط.

ربط كل كلب بحبل إلى المزلاج. ولم يكن أي حبل بطول البقية بل كان الفرق في أطوالها بطول جسد الكلب المربوط بكل حبل على الأقل. وكان المزلاج نفسه من لحاء شجرة البتولا ولا يحتوي عجلات وقد عققت نهايته الأمامية للاعلى لتجنب حرثها للثلج. ساعد هذا الشكل على توزيع وزن المزلاج وحمله على أكبرمساحة من سطح الثلج حيث أن سطح الثلج أشبه ببودرة الكريستال الناعمة. وعلى نفس مبدأ توزيع الوزن واسعا ربطت الكلاب مشكلة ما يشبه المروحة بحيث لا يتعثر أي كلب بخطوات كلب آخر.

كما كان هناك فضيلة أخرى لهذا التشكيل المميز فقد منعت الحبال ذات الاطوال المختلفة الكلاب التي جرت المزلاج في الخلف من مهاجمة الكلاب في الأمام. فكان على الكلب في الأمام ان يستدار ليواجه الكلب المربوط بحبل أقصر منه وحينها يجد نفسه بمواجهة الكلب وسوط السائق.

أما الفضيلة الأغرب على الاطلاق للتشكيلة فقد كمنت في إضطرار الكلب الراغب بمهاجمة كلباً أمامه للركض ساحبا المزلاج أسرع. وكلما انطلق المزلاج بسرعة كلما استطاع الكلب المطارد الركض مبتعداً وبهذا لن يتمكن الكلب في الخلف من إمساك الكلب في الأمام أبداً. وكلما ركضت جميع الكلاب أسرع كلما تقدم المزلاج أسرع وبهذه المراوغة الماكرة زاد الإنسان من سيادته على الحيوانات.

شابه متساه والده وملك الكثير من حكمته واعتاد مراقبة ليب - ليب وإرهابه الدائم لذو - الناب - الأبيض لكنه لم يجرؤ على فعل شيء سوى رمي بعض الأحجار

الخجولة نحوه لأنه كان ملكا لرجل آخر. أما الآن فقد أصبح ملكا له وبدأ ينزل إنتقامه عليه بوضعه في نهاية أطول حبل. هذا جعل ليب - ليب في مقدمة المجموعة وقد يبدو هذا شرف له لكن بدل أن يكون قائد المجموعة وسيدها وجد نفسه في الواقع مكروه ومرهب من قبل البقية. فركضه عند طرف الحبل الأطول يعني استمرار الكلاب بمشاهدته يهرب أمامها. في الواقع لم تستطع رؤية شيء إلا ذيله الكث واطرافه الخلفية وهو منظر أقل قوة وسيطرة من أنيابه اللامعة وعرفه المنتصب بالطبع.

كما أن منظره وهو يركض أمامها منحها غريزيا رغبة بالجري خلفه كما لو كان يهرب منها. وفور أن ينطلق المزلاج يبدأ الفريق الركض خلف ليب - ليب بملاحقة استمرت طوال اليوم.

في البداية حاول ليب - ليب الإستدارة إلى الخلف ليلف على ملاحقيه بغضب وإهانة لكنه تلقى لسعات حادة من سوط متساه المصنوع من امعاء الكاريبو والذي يصل طوله لثلاثين قدم فأجبر على العودة إلى طريقه.

لاستطاع ليب - ليب مواجهة المجموعة لكنه استسلم أمام سوط سيده ولم يملك حيلة سوى مواصلة الركض بسرعة لابقاء حبله مشدودا وإبعاد جانبيه عن أسنان رفاقه.

كان هناك خدعة أكبربعد فيما إبتكره العقل الهندي. فلتشجيع المطاردة اللانهائية فضل متساه ليب - ليب على بقية الكلاب بمنحه اللحم له دون سواه مما آثار غضب الكلاب الأخرى التي تنبح بغضب على مسافة آمنة من السوط بينما يتناول طعامه تحت حماية متساه.

هذا التفضيل جعلها تكرهه وتغار منه. وحتى عندما لم يكن اللحم متوفرا أبقى متساه الكلاب على مسافة وادعى انه يطعم ليب - ليب.

اعتاد ذو - الناب - الأبيض العمل بسهولة فقد ارتحل مسافات أبعد من بقية الكلاب لتسليم نفسه لحكم الآلهة وتعلم عقاب عدم طاعتها. إضافة لان الارهاب الذي تلقاه منها جعله أقل إرتباطا بالمجموعة وأكثر إرتباطا بالإنسان. علاوة على ذلك لم ينسَ كيتشي وكان المتنفس الوحيد له يكمن في اطاعة الآلهة الذين تقبلهم كأسياد له لذا عمل بجهد وتعلم الآنصياع والطاعة. وبرز الاخلاص في عمله - وهي صفة غريزية للذئب والكلب البري الأليف - لكنه امتلك سخاء منها. كما كانت الرفقة بينه وبين الكلاب رفقة حرب وعداء لا رفقة ود فلم يعتاد اللعب معها بل عرف فقط كيف يقاتل وهذا ما فعله رادا لهم الصاع مئة مرة عن العضات والجراح التي تلقاها حين كان ليب - ليب قائدا للمجموعة.

لكن ليب - ليب لم يعد القائد. عدا الاوقات التي ركض فيها أمام البقية وهو مربوط بطرف الحبل وجارا المزلاج خلفه. أما في المخيم فبقي بالقرب من متساه والقندس - الأشيب وكلوكوتش ولم يجرؤ على الابتعاد عن الآلهة لأن أنياب جميع الكلاب قد انقلبت ضده وأذاقته طعم الإرهاب الذي أذاقه لذي - الناب - الأبيض طويلاً.

كان بإمكان الأخير أن يصبح قائدا للمجموعة بعد الإطاحة بليب - ليب لكنه كان متجهما ومعتادا على الوحدة فاستمر بمهاجمة بقية الكلاب أو تجاهلها. وبدورها ابتعدت عنه ولم يجرؤ حتى أشجعها على سرقة طعامه بل فضلت تناولت طعامها بسرعة خوفاً من سرقته له.

عرف ذو - الناب - الأبيض القانون جيداً وهو ينص على إضطهاد الضعيف وطاعة القوي. وبذلك أكل حصته من اللحم بسرعة وتربص بمن لم ينه طعامه بعد فقد كان قادراً بزمجرة واحدة وإبراز أسنانه من جعل الكلب يهرب نابحاً بخزي ليكمل حصته. رغم ثورة أحد الكلاب بين فترة والأخرى إلا أن الثائر دائماً ما قهر على عجل وهكذا بقي ذو - الناب - الأبيض يتدرب.

أحب وحدته وقاتل في نزالات عديدة وسريعة للحصول عليها. وتمكن من تمزيق أجساد الكلاب الأخرى بسرعته المتفوقة قبل أن تدرك ما يحصل وقهرها قبل أن يبدأ النزال تقريباً. فأصبحت سلطته عليها مهيبة بقدر سلطة الآلهة ولم يسمح لها بأي حرية وفرض عليها احترامه التام. رغم أنه سمح لها بفعل ما يحلوا لها بعيداً عنه على إلا تقترب منه وتعترف بسيادته عليها طوال الوقت.

أي اشارة لإنتصاب قدم أو زمجرة من شفاه أو شعر منتصب جعلته يقفز فوق الكلاب ويعاقبها على اخطائها بدون رحمة حتى أصبح طاغية وحشي بسادية متزمتة كالفولاذ مضطهدا الضعيف بانتقام. فلم تكن معاناة طفولته حينما نجا ووالدته من بيئة البرية الشرسة وتعلمه المشي بخفة عند وجود اعداء أقوى منه دون نتيجة.

اضطهد ذو - الناب - الأبيض الأضعف لكنه احترم الأقوى. وفي رحلته الطويلة رفقة القندس - الأشيب مشى بحذر بين الكلاب البالغة التي إلتقاها في مخيم البشر الغرباء.

مرت الأشهر واستمرت الرحلة. وتطورت قوى ذي - الناب - الأبيض بالساعات الطويلة التي قضاها على الطريق يجر المزلاج. وبدا أن تطوره الفكري كان على وشك الإكتمال فقد تعلم العالم الذي يعيش فيه جيداً بآفاق مجردة ومادية.

رأى العالم عنيف ووحشي. عالم دون دفء لا وجود للمداعبة والحب وحلاوة الروح فيه. ولم يعجب بالقندس - الأشيب رغم كونه إلها فقد كان إلها قاسيا لكنه إعترف بسيادته المبنية على الذكاء المتفوق والقوة القاسية.

جعل شيء في طبيعته السيادة عليه شيئاً يرغب به وإلا لما كان عاد من البرية ليمنح طاعته له. في المقابل كانت هناك أشياء أخرى في طبيعته لم تُرضَ أبداً ولربما نفعت كلمة طيبة او لمسة عطوفة من اليد بإرضاء هذه الصفات إلا ان القندس - الأشيب لم يظهر يوماً لمسة حنونة او يقل كلمة طيبة بل كان تفوقه وحشياً. وهكذا حكم منزلاً عدالة الضرب ومعاقباً على أي تجاوزات بالألم ومكافئاً الحسنات ليس بالعطف بل بعدم الضرب.

لذا لم يعرف ذو - الناب - الأبيض شيئاً عن السعادة التي يمكن ان تحتويها يد الإنسان ولم تعجبه بل رأى فيها شيئاً مثيرا للشك. رغم انها قدمت له اللحم أحياناً لكنها سببت الألم بنفس القدر.

مثلت أيدي البشر شيئاً يجب الابتعاد عنه فهي ترمي الاحجار وتلوح بالعصي والاسواط والمضارب مسببة الضربات وعندما مسته كانت تنوي الاذية والنكز والتشويه واللوي.

في قرى غريبة التقى بأيدي الاطفال وتعلم انها قاسية. كما أنه اقترب من خسارة إحدى عينيه مرة على يد طفل هندي. ومن هذه التجارب أصبح شكاكا من كل الاطفال ولم يستطع تحملهم فنهض مبتعداً كلما اقتربوا منه بايادیهم الشريرة.

في قرية بحيرة غريت - سلايف وفي طور تجنب الأيادي الشريرة للبشر عدل قانون تعلمه من القندس - الأشيب ينص على أن عض الآلهة جريمة لا تغتفر.

في هذه القرية على طريقة كلاب القرى ذهب للبحث عن الطعام. حين رأى فتى يقطع اللحم الجامد بفأس ورقائق تتطاير في الثلج فتوقف وبدأ بتناول الرقائق. ثم رأى الفتى يتخلص من الفأس ويحمل مضربا قصيرا فهرب قافزا من الضربة ولحق به الفتى.

هرب بين الخيم الغريبة ليجد نفسه محاصرا عند ضفة. لم يكن هناك مهرب والطريق الوحيد بين الخيمتين حرسه الفتى حاملاً المضرب مستعداً لإنزال العقاب بالجرو وهو يتقرب من الطريدة المحاصرة شديدة الغضب. فواجهه الأخير بزمجرة هائجة بحس عدالته.

عرف ذو - الناب - الأبيض قانون البحث عن الطعام والذي ينص على أن ما يزيد من اللحم مثل رقائق اللحم الجافة ملك للكلب الذي يجدها. لذا لم يرتكب خطأ أو يخالف القانون مع هذا استعد الفتى لضربه.

لم يعرف ما كان على وشك فعله بل فعل ذلك بنوبة غيظ وبسرعة بحيث لم يعرف الفتى ما كان يجري. كل ما عرف أنه بطريقة ما وقع على الثلج وأن يده التي تحمل المضرب مزقت بفعل أسنان ذي - الناب - الأبيض. لكن الأخير عرف أنه خالف قانون الآلهة فقد غرس أسنانه في جسد مقدس لأحدهم ولم يتوقع سوى أفظع عقاب.

هرب ذو - الناب - الأبيض نحو سيده وانحنى خلف قدميه عندما جاء الفتى وعائلته مطالبين بالآنتقام. لكنهم لم ينالوا ما جاءوا لأجله فقد دافع القندس - الأشيب عنه وكذلك فعل متساه وكلوكوتش.

سمع الحرب الكلامية وراقب التعابير الغاضبة وعرف أن فعلته كانت مبررة وبهذا تعلم أن الآلهة لا تشبه بعضها. فهناك آلهته والآلهة الأخرى وهناك اختلاف بينها. وأن العدالة والظلم شيئان متشابهان حين يتعلق الأمر بآلهته لكن لا يسمح للآلهة الأخرى بظلمه. فقد ملك رفاهية مقاومة ظلمها بأسنانه وان هذا بدوره قانون إلهي.

قبل إنتهاء اليوم تعلم المزيد عن القانون حين التقى متساه بينما يجمع الحطب وحيداً في الغابة بالفتى الذي عضه رفقة فتيان آخرون. تجادل البشر ثم هاجم الفتية متساه وأهالوا الضربات عليه من كل الجهات مما جعله في موقف حرج.

في البداية شاهد ذو - الناب - الأبيض ما يحدث فقد كانت مسألة تخص الآلهة ولم يجب عليه التدخل فيها. ثم تذكر فجأة أن متساه واحد من آلهته الخاصة وقد كانوا يسيئون معاملته. لم يكن ما فعله نتيجة منطقية بل نوبة غضب مجنونة.

قفز بين المقاتلين وبعد دقائق كان هناك فتيان يركضون في الأرجاء وبعضهم يقطر دما على الثلج كدليل على أن أسنانه لم تكن عاجزة. عندما أخبر متساه ما حصل لبقية أفراد المخيم أمر القندس - الأشيب بمنح لحم لذي - الناب - الأبيض - الكثير من اللحم - فاستلقى الأخير شبعا وناعسا قرب النار وتأكدت حقيقة القانون له.

عبر هذه التجارب تعلم قانون الملكية ومهمة الدفاع عنها. وهي تشمل حماية أجساد الآلهة والدفاع عن ممتلكاتها ضد العالم أجمع لدرجة عض إله آخر حتى.

لم يكن هذا الفعل رجس بطبيعته لكنه أمر محفوف بالمخاطر فقد كانت الآلهة قوية وليس الكلب منافسا لها لكنه تعلم مواجهتها ومحاربتها بقوة ودون خوف. فقد تقدم الواجب على الخوف. وتعلمت الآلهة السارقة ترك ممتلكات القندس - الأشيب وشأنها.

تعلم شيئاً آخر بسرعة. وهو أن الإله الذي يسرق عادة ما يكون إله جبان ويميل للهرب إذا ما سمع نداء التحذير. وتعلم أن وقتاً قصيرا يمر بين إطلاقه للنداء ومجيء سيده لمساعدته. وعرف أن الخوف منه ليس ما جعل السارق يهرب بل الخوف من السيد.

لم ينبح محذراً فهو لم ينبح أبداً بل تقدم من الدخيل وغرس أسنانه في جسده إذا ما استطاع. لقد كان شريرا ووحيداً وليس له علاقة ببقية الكلاب لذا فقد كان مناسبا لمهمة حراسة ممتلكات سيده وشجعه السيد بدوره على الأمر. ونتيجة لذلك أصبح أكثر عنفا ووحدة وقوة.

بمرور الأشهر أصبح الميثاق بينه وبين البشر أقوى. كان هذا الميثاق القديم الذي عقده أول ذئب جاء من البرية لينضم إلى البشر. ومثل كل الكلاب التي نجحت بالأمر فهم الميثاق بنفسه فقد كانت شروطه سهلة وهي كالتالي:

امتلاكه إلهاً من لحم ودم يعني أن عليه التضحية بحريته. وأن الحماية والرفقة والطعام والنار بعض من الأشياء التي تلقاها من الإله. في المقابل دافع عن ممتلكات الإله وجسده وعمل له وأطاعه. كما أن امتلاك إله يعني الخدمة. وقد كان خادما بفعل الواجب والخوف وليس الحب. وأصبحت كيتشي ذكرى شبه منسية. إضافة لأنه لم يهجر البرية ويسلم نفسه للإنسان وحسب بل أن شروط الميثاق تقول بأنه إذا ما إلتقى كيتشي فلن يهجر آلهته من أجل رفقتها فقد أصبح ولائه للإنسان بشكل ما قانونا وجزء منه أكبرحتى من حبه للحرية ولنوعه ولأقاربه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-6-

المجاعة

أكمل القندس - الأشيب رحلته الطويلة بحلول الربيع. وفي شهر نيسان أصبح ذو - الناب - الأبيض بعمر السنة. حينها وصلوا إلى القرية الأم وتوقف الأخير عن العمل لصالح متساه. ورغم أنه لم يصل نموه الكامل بعد إلا انه كان الأكبر بين جراء القرية اضافة لليب - ليب فقد ورث شكل وقوة والده الذئب ووالدته كيتشي وكان بالفعل أقرب لحجم الكلاب البالغة. لكنه لم يصبح مقاتلا بعد فقد كان جسده رشيقا وقوته تعتمد على الخفة بدل العضلات المفتولة. وكان فروه رمادي اللون ومظهره كأي ذئب حقيقي فلم يترك سلف سلالة الكلاب التي ورثها عن كيتشي أثراً على مظهره رغم لعبه دورا في تكوينه العقلي.

سار ذو - الناب - الأبيض عبر القرية وتعرف على رائحة الآلهة العديدة التي إلتقاها قبل الرحلة. وتعرف على الجراء التي نمت والكلاب الكبيرة التي لم تعد تبدو مخيفة ورائعة كالسابق. كما لاحظ أنه أقل خوفاً منها عما كان قبل الرحلة فنجح بالتسلل بينها بتهور جديد عليه لكنه ممتع.

كان هناك كلب اسمه باسيك. وهو عجوز أشيب اعتاد اظهار أسنانه ليرسل ذا - الناب - الأبيض هارباً وخائفاً. تعلم منه الجرو الكثير عن عدم أهميته وقتها وسيتعلم الآن عن مدى التطور الذي حصل له وعن العلاقات التي تغيرت في عالم الكلاب.

رأى ذو - الناب - الأبيض حيوان موظ يقطع وتمكن من الحصول على حافر وجزء من عظم يغطيه بعض اللحم لنفسه. فسحبه من بين الكلاب المتزاحمة وأخذه إلى تكتل بين الأشجار ليبتعد عنها ثم جلس يلتهم مكافئته حين هرع باسيك نحوه. وقبل أن يدرك ما كان يفعل جرح الدخيل مرتين وقفز إلى الوراء.

تفاجئ باسيك من سرعة الهجوم ووقف يحدق بغباء بعدوه والعظم الأحمر الطازج بينهما. كان باسيك عجوزا وقد اكتشف بالفعل الشجاعة التي إكتسبتها الكلاب بعد أن اعتاد التنمر عليها سابقاً. ورغم تجاربه المرة معها إلا أنه تجرعها معتمدا على كل ما لديه من حكمة ففي أيام شبابه كان سيقفز ردا على الهجوم فورا لكن قواه المتراجعة الآن لن تسمح له بالقيام بذلك لذا زمجر بعنف ووقف يحدق بالجرو.

بدا أن ذا - الناب - الأبيض يستعيد جزءا من خوفه القديم فتراجع وانحنى كما لو أنه يتقلص بينما يفكر بطريق للهرب بدون أن يجلب العار على نفسه. وهنا أخطأ باسيك. فلو كان قد استمر بالنظر بغضب وعنف وحسب لجرت الأمور على ما يرام لأن ذا - الناب - الأبيض كان على وشك التراجع وترك اللحم لخصمه لكن باسيك لم ينتظر تراجعه فقد ظن أن النصر حليفه بالفعل وتقدم نحو اللحم ثم أحنى رأسه وبدأ يتشممه مزمجراً بهدوء. حتى حينها لم يكن الأوان قد فات لإنقاذ الموقف لو رفع رأسه لا أكثر لعاد ذو - الناب - الأبيض إلى الوراء وغادر. لكن رائحة اللحم الطازج كانت قوية في أنفاس باسيك ودفعه الطمع لأخذ قضمة.

كان ذلك كثيراً على ذي - الناب - الأبيض. فقد تسيد أفراد فريقه لأشهر ولم يستطع رؤية آخر يتناول لحماً حصل عليه بنفسه بينما يقف دون حراك.

بدون تحذير كعادته هجم الجرو ممزقا أذن عدوه اليمنى لأشرطة بضربة واحدة فوقف باسيك مصدوما ولم يرد لكن أشياء أخرى أكثر عنفا حصلت بنفس السرعة. فقد وقع عن أطرافه وتمزقت حنجرته وكان يعاني ليقف على قدميه بينما يغرس عدوه اليافع أسنانه مرتين في كتفه. وحيرته خفة حركته فتسرع بإغلاق أسنانه على الفراغ.

في اللحظة التالية جرح أنفه بعمق وعانى ليبتعد عن اللحم وإنعكس الموقف فأصبح ذو - الناب - الأبيض يقف أمام العظم مزمجراً ومهدداً بينما يبتعد باسيك متراجعا.

لم يجرؤ العجوز على المخاطرة بنزال آخر مع هذه الصاعقة الشابة وعرف مجدداً مرارة الضعف عند الكبر بالسن لكنه أظهر محاولة بطولية للحفاظ على كرامته. فأدار ظهره بهدوء نحو الكلب اليافع والعظم كما لو أن الشيئين أصغر من أن يستحقاًاهتمامه. ثم زحف على مهل مبتعداً ولم يتوقف حتى ابتعد عن نظر عدوه ليلعق جراحه النازفة.

شعر ذو - الناب - الأبيض بفخر وثقة أكبربنفسه ومشى متبخترا بين الكلاب الأكبر سنا. كما كان تعامله معها أقل مرونة. رغم أنه لم يفعل شيئاً لآثارة غضبها لكنه طالب بالإعتبار وبحقه ليكمل طريقه دون أن يعترض طريقه أحد. وبأن على الآخرين أخذه بالحسبان والا يعاملوه كما عملت الجراء سابقاً وما زال بقية أفراد فريقه يعامل.

ابتعدت الجراء عن طريق الكلاب البالغة وتركت اللحم بالإكراه لكن الأمر لم ينطبق على الوحيد الشرير الذي لا رفاق له. فهو مرهب وقاس ولا ينظر يمينا وشمالا بل بدا غريباً ومساو للكبار الحائرون لكنهم تعلموا سريعاً تركه وشأنه ولم يردوا على أفعاله العدائية أو يظهروا علامات انزعاج منه. فإذا ما تركوه وشأنه ابتعد عنهم وذلك ما رغبوا فيه أكثر من أي شيء آخر بعد لقاءات قليلة معه.

في الصيف خاض تجربة جديدة حين خرج مع الصيادين وبدأ يمشي بطريقته الصامتة مستطلعا الخيم الجديدة التي رفعت عند حافة القرية. وبينما يمشي إلتقى كيتشي فتوقف ونظر إليها وتذكرها بشكل باهت لكنه تذكرها وهذا أكثر مما فعلت هي. فقد رفعت شفتها وزمجرت نحوه بحقد حتى تعرف عليها بوضوح. متذكرا طفولته المنسية وكلما إرتبط بتلك الزمجرة المألوفة. فقبل أن يعرف الآلهة كانت كيتشي مركز الكون بالنسبة له واشتعلت الآن مشاعره القديمة عن ذلك الوقت.

تقدم نحوها فإذا بها تلتقيه بأنياب ماكرة وتجرح خده حتى العظم. هنا لم يفهم ما يحدث لكنه تراجع بحيرة. لكن الأمر لم يكن خطأ كيتشي فلم يقدر لأمهات الذئاب تذكر جرائهن بعد سنة تقريباً من ولادتها لهن لذا لم تتذكره كيتشي صغيرها بل بدا لها حيوان غريب ودخيل. ولأنها امتلكت مجموعة جديدة من الجراء فلها الحق أن تواجه أي دخيل.

تمدد أحد جرائها أمامه ولم يتعرف الاخوين على بعضهما. بل تشمم ذو - الناب - الأبيض الجرو بحذر بينما تقدمت كيتشي منه وضربته على وجهه مرة أخرى. حينها تراجع أكثر واختفت كل ذكرياته وارتباطاته القديمة ودفنت من حيث نهضت.

نظر إلى كيتشي تلعق جروها متوقفا بين الحين والآخر ليزمجر نحوها فلم تعد تمتلك قيمة بالنسبة له بعد أن تعلم العيش من دونها ونسي أهميتها. ولم يكن هناك مكان لها في حياته كما لم يكن هناك مكان له في حياتها.

كان ما يزال يقف بغباء وحيرة بعد أن نسي الذكريات فتساءل عما يحدث عندما هاجمته مرة ثالثة محاولة إبعاده عن منطقتها. وسمح لها بإبعاده لأنهى أنثى من نوعه ولم يكن مقدراً لذكور نوعه مقاتلة الإناث.

لم يعرف شيئاً عن هذا القانون بالطبع لأنه لم يكن تصنيفا ذهنيا أو شيء يكتسبه عن طريق الخبرة بل دافع أشبه بالغريزة التي جعلته يعوي تجاه القمر والنجوم والليالي وتلك التي جعلته يخاف الموت والمجهول.

مرت الأشهر وأصبح ذو - الناب - الأبيض أقوى وأثقل وأكثر قدرة على القتال بينما تطورت شخصيته وفقا لإرثه وبيئته.

أن إرثه مادة الحياة التي يمكن تشبيهها بالصلصال. وكان هناك عدد من الإمكانات التي يمكن أن يشكل ذاك الصلصال بها وفقا للبيئة لإعطائه شكلاً معينا. وبهذا لو لم يجئ إلى نار الإنسان لشكلته البرية إلى ذئب حقيقي لكن الآلهة منحته بيئة مختلفة وبهذا شكل إلى كلب شبيه بالذئب لكنه كان كلباً في النهاية وليس ذئباً.

وفقا لصلصال طبيعته وضغط محيطه شكلت شخصيته بشكل محدد ولم يكن هناك مهرب من الأمر. فأصبح أكثر شرا ووحدة وعنفا بينما تعلمت الكلاب الحفاظ على السلام بدل الدخول في حرب معه. وأصبح سيده يقدره أكثر بمرور الأيام لأنه بدا كمن يجمع القوة في كل صفاته.

مع ذلك عانى ذو - الناب - الأبيض من نقطة ضعف واحدة فلم يستطع تحمل أن يكون محط سخرية البشر وشعر بأن ضحك البشر شيء كريه. فلهم أن يضحكوا بين أنفسهم عن أي شيء ولم يمانع لكن في اللحظة التي تحول فيها الضحك نحوه أصيب بنوبة غضب فظيعة وأزال الضحك جديته وتجهمه ليتحول إلى شيطان مغتاظ. وياويل الكلب الذي وقع بين يديه في وقت كهذا. فقد عرف القانون ولم يستطيع التنفيس عن غضبه ضد القندس - الأشيب لأنه كان إلها يمتلك مضربا أما الكلاب فلم تمتلك شيئاً وحلقت في الهواء دون حماية إذا ما جاء غاضباً من الضحك وهاجمها.

في السنة الثالثة من عمره حلت مجاعة عظيمة على هنود نهر الماكنزي. ففي الصيف لم يعد هناك سمك في النهر. وفي الشتاء لم يعد هناك حيوانات كاريبو على الطريق. كما كانت حيوانات الموظ قليلة واختفت الأرانب تقريباً ولم يعد صيد وافتراس الحيوانات ممكنا. وعندما لم يعد هناك مصدر للطعام بدأت حيوانات البرية بتناول بعضها الآخر فنجا القوي وهزم الضعيف.

خرجت الآلهة لصيد الحيوانات طوال الوقت بينما يموت الضعفاء منهم جوعا وعلى صوت بكاء في القرية حيث بقي النساء والاطفال دون نظام. وذهب القليل من الطعام إلى معدة الاقوياء القادرين على الصيد ذوي العيون الغائرة والذين ساروا في الغابة في سعي عديم الجدوى وراء اللحم.

مرت الآلهة بضعف شديد بحيث بدأت بتناول جلود أحذيتها وقفازاتها وأسواطها المدبوغ. وأكل الكلاب بعضها الآخر. وأكلت الآلهة الكلاب. وبطبيعة الحال أكل الأضعف والأقل قيمة أولا. فنظرت الكلاب الحية حولها وفهمت ما يجري وبدأ الأشجع والأكثر حكمة بينها بترك نيران الآلهة التي أصبحت في حالة فوضى واتجهت نحو الغابة حيث تضورت جوعا أو أكلت من قبل الذئاب في النهاية.

في هذا الوقت المزري هرب ذو - الناب - الأبيض نحو الغابة فقد كان أكثر تكيفا لتلك الحياة لأنه حظي بتدريب الجراء ليرشده. وأصبح جيداً في تصيد الأحياء الصغيرة فاعتاد الاستلقاء خفية لساعات متتبعاً حركة سناجب الأشجار الحذرة منتظرا بصبر عظيم بقدر جوعه حتى ظهر سنجاب ما أخيراً في مكان مفتوح. وحتى حينها لم يسبق أوانه في الهجوم بل إنتظر حتى يتأكد من قدرته على القضاء على عدوه قبل هربه لملجأ الأشجار. ثم هرع من مكان اختبائه كقذيفة رمادية بخفة خرافية دون أن يفشل أبداً في الوصول إلى طريدته - السنجاب الهارب سريعاً نحو الغابة ـ.

رغم نجاحه مع السناجب كان هناك صعوبة منعته من الاستمرار بزيادة وزنه فلم يكن هناك عدد كاف من السناجب لذا اضطر لصيد الأحياء الاصغر منها. وحين اشتد جوعه إضطر للحفر في الأرض بحثا عن فئران الأرض. ولم يتعالى عن قتال إبن عرس جائع مثله وإن كان أكثر عنفا.

في أسوأ أيام المجاعة عاد متسللاً إلى نار الآلهة لكنه لم يقترب كثيراً بل بقي في الغابة القريبة متجنبا العثور عليه وسرق الأفخاخ التي وضعها الرجال. حتى أنه سرق فخ لأرنب وضعه القندس - الأشيب نفسه بينما كان الأخير يتعثر في الغابة ويجلس ليرتاح بسبب الجوع وضيق النفس.

في أحد الأيام إلتقى بذئب يافع ضعيف وهزيل وذي مفاصل متهالكة من الجوع. لو لم يكن جائعا لربما رافقه وعثر على طريقه إلى مجموعة الذئاب البرية لكنه بدلا من ذلك لاحقه حتى قتله وأكله.

بدا ان الحظ يرافقه في أشد أوقات الجوع فدائماً ما وجد شيئاً ليتناوله وعندما ضعف لم يلتقِ حيوانات مفترسة أكبرمنه لحسن حظه. وهكذا أصبح قويا كفاية بعد أن أكل وشق إلتقاه حين طاردته مجموعة من الذئاب.

كانت تلك مطاردة قاسية وطويلة لكنه كان أفضل تغذية من بقية الذئاب وفي النهاية تمكن من الفرار. حتى أنه لف بدائرة حولها وتمكن من صيد أحد مطارديه المتعبين.

بعد ذلك ترك ذلك الجزء من الغابة وارتحل عبر الوادي الذي ولد فيه والتقى في عرينه القديم كيتشي التي عادت بدورها إلى خدعها القديمة وهربت من نيران البشر

غير المضيافة لتعود إلى ملجأها القديم لتلد جرائها. وهذه المرة نجا جرو واحد من المجموعة لكن لم يقدر للصغير العيش طويلاً فلم تمنح الحياة فرصة لمثله في مجاعة كتلك.

لم تكن تحية كيتشي لوليدها الاكبر محبة لكنه لم يمانع فقد كبر أكثر من والدته لذا استدار متفلسفاً ومشى على طول المجرى المائي. وعند المفترق اختار المجرى الأيسر. وهناك وجد عرين الوشق الذي قاتلته والدته مرة قبل زمن طويل فاستقر في العرين المهجور واستراح ليوم.

بداية الصيف وفي آخر أيام المجاعة إلتقى ليب - ليب الذي غادر الآلهة بدوره وقاد حياة تعيسة في الغابة. كان الخصمان اللدودان يمشيان في اتجاهين مختلفين على قاعدة هضبة عالية والتقيا فجأة بعد أن لفا حول صخرة فتوقفا وجها لوجه بحذر مفاجئ ونظرا لبعضهما بشك.

كان ذو - الناب - الأبيض بحال أفضل فقد قضى الاسبوع الأخير شبعا حتى أنه كان متخما من قتله الأخير. لكن ليب - ليب شعر بانتصاب الشعر على ظهره على الفور كرد فعل لاارادي لجسده الذي اعتاد إرهاب ليب - ليب. وكالسابق زمجر نحو غريمه وفعل الثاني الشيء نفسه. لكن ذا - الناب - الأبيض لم يضع الوقت هذه المرة بل قام بالأمر بحرفية واختصار.

فور أن تراجع ليب - ليب هاجمه خصمه بقوة ضاربا كتفه بكتفه وغرس أسنانه في الحنجرة الهزيلة ثم مشى منتصبا يراقب معاناة موته. بعد ذلك استمر بطريقه ومشى عبر قاعدة الهضبة.

يوماً وبعد فترة طويلة وصل إلى حافة الغابة حيث فسحة من الأرض تنحدر نحو نهر ماكنزي. كان قد زار هذه الأرض من قبل لكنها كانت جرداء وليست قرية وقتها. أما الآن فبينما يختبئ بين الأشجار ويدرس الوضع تعرف على المناظر والاصوات والروائح وعرف أن القرية القديمة قد انتقلت لمكان جديد لكنها بدت مختلفة عن المرة الأخيرة. فلم يكن هناك بكاء وتذمر بل استقبلت أذنيه أصوات راضية وعرف في أصوات النساء الغضب الذي ينتج عن المعدة الممتلئة.

كما كان هناك رائحة سمك في الهواء فأدرك وجود طعام وأن المجاعة قد انتهت!

خرج بجرأة من الغابة وتمهل بين الخيم متجها لخيمة القندس - الأشيب مباشرة. لم يكن الأخير موجودا لكن كلوكوتش رحبت به بصرخات مرحة وسمك طازج ثم استلقى بانتظار مجيء سيده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الرابع

-1-

عدو نوعه

لو كان هناك إمكانية في طبيعة ذي - الناب - الأبيض مهما كانت قليلة لأن يكون صديقاً لأبناء نوعه فأن هذه الإمكانية دمرت عندما جعل قائدا لفريق المزلاج.

كرهته الكلاب بسبب حصة اللحم الكبيرة وكل المحابات التي تلقاها من متساه ولأنه ركض في مقدمة الفريق دائماً بينما يلوح بذيله وطرفيه الخلفيين أمام أعينها. وكرهها بدوره بنفس القدر. كما لم تكن قيادة الفريق شيئاً ممتعا فقد قضى الوقت يركض أمام الفريق النابح الذي قاتله لمدة ثلاث سنوات وتسيد عليه وهو شيء بالكاد تحمله لكنه إضطر لتحمله أو الموت. ولم يكن يملك أدنى رغبة بالموت.

في اللحظة التي أمر فيها متساه بالآنطلاق ركض الفريق بحماس وحشي نحو الأمام ولأن ذا - الناب - الأبيض لم يستطع الدفاع عن نفسه بالإلتفاف للخلف ومواجهة لسعات سوط متساه على وجهه فكل ما تبقى له هو الركض نحو الأمام.

لم يستطع مواجهة المجموعة بذيله وطرفيه الخلفيين فلم تكن تلك أدوات مناسبة لمقاومة الأنياب التي لا ترحم. لذا استمر بالهرب ضد طبيعته وفخره بكل قفزة طوال اليوم.

لا يستطيع الحيوان مخالفة طبيعته دون أن ترتد طبيعته على نفسها كما لو أن الشعر الذي ينمو من الجلد قد بدأ ينمو بالاتجاه المعاكس مسبباً الأذى وهذا ما حصل مع ذي - الناب - الأبيض. فقد دفعته كل غريزة فيه للقفز نحو المجموعة وراءه لكن الآلهة منعته من فعل ذلك وكان هناك سوط بطول ثلاثين قدم لتعزيز قدرتها. لذا لم يستطع إلا الضغط على نفسه وطور كرها وشرا يتناسب مع القوة التي لا تقهر لطبيعته.

إن كان هناك مخلوق معاد لابناء نوعه يوماً فهو ذو - الناب - الأبيض فقد كان دائم الخوف من أسنان المجموعة ولطالما تلقى التشوه منها وترك آثاره عليها بنفس القدر. وعلى عكس أغلب القادة لم ينحنِ عند أقدام الآلهة وقت إقامة المخيم وفك رباط الكلاب بل كره هذه الحماية ومشى بجرأة في الأرجاء كل مساء منزلا العقاب ردا على ما عاناه في النهار.

قبل أن يصبح قائدا للمجموعة تعلمت بقية الكلاب البقاء بعيداً عنه لكن الأمر إختلف الآن. فشعرت بالحماس من مطاردته طوال اليوم وترددت فكرة مهاجمته بتكرار مصر على عقولها بمجرد أن ألقت نظرة عليه متأثرة بسيادته عليها طوال اليوم لكنها باليد الأخرى لم تكف عن الاستسلام له واستمرت بالشجار بينها إذا لم يظهر. بينما تميز تقدمه بالزمجرة والهذر والعض وحتى الهواء الذي تنفسه كان محملا بالكره والشر وهذا خدم لزيادة الكره والحقد.

حين أمر متساه بتوقف الفريق أطاع ذو - الناب - الأبيض الأمر. في البداية سبب هذا مشاكل لبقية الفريق فقفزت جميع الكلاب نحو القائد المكروه لتجد أن الطاولة قد قلبت وأن متساه يقف خلفه حاملاً سوطه بيده لذا فهمت أنها إذا أمرت بالتوقف فعليها ترك القائد وشأنه لكن إذا ما توقف من تلقاء نفسه فيسمح لها بالقفز نحوه وتدميره إذا ما استطاعت. وبعد عدة تجارب لم يتوقف القائد الجديد من تلقاء نفسه فقد إضطر للتعلم بسرعة إذا ما أراد النجاة في الظروف العصيبة التي وضعته الحياة فيها.

مع ذلك لم تستطع الكلاب تعلم تركه وحيداً في المخيم ولاحقته كل يوم صارخة بتحد بعد أن نسيت ما حدث في الليلة الماضية لتتعلم الدرس مجدداً وتنساه. كما كان هناك استمرارية أكثر في كرهها له لأنها شعرت بوجود اختلاف بينه وبينها وهو سبب كاف للعداء.

كانت ذئاب أليفة مثله لكنها دجنت لأجيال وخسرت الكثير من صفات البرية لذا لم تكن البرية الفظيعة دائمة الشر والحرب معروفة بنفس القدر بالنسبة لها. أما بالنسبة له فقد تعلقت البرية بالمظهر والشعور والأفعال وكانت تتمثل فيه بدورها. لذا عندما أظهر أسنانه كان يمثل البرية وهي تدافع عن نفسها ضد قوى الدمار التي ترصدت لها بين ظلال الغابة والظلام خلف نار المخيم.

تعلمت الكلاب البقاء معاً لتواجه فظاعة ذي - الناب - الأبيض خصوصاً وأن أحدا منها لم يقدر على مواجهته وحيداً لذا التقته كمجموعة والا تمكن من قتلها واحداً تلو الآخر في الليل. وكلما تمكن من إيقاع كلب وحيد عن أقدامه هجمت المجموعة عليه عند أول إشارة للصراع وقبل أن يتمكن من توجيه ضربته القاضية للحنجرة. ومهما تشاجرت الكلاب بينها نسيت خلافاتها حين واجهت صراع معه.

باليد الأخرى لم تتمكن من قتله مهما حاولت فقد كان أسرع وأقوى وأكثر حكمة منها وتعلم تجنب الأماكن الضيقة والتراجع حينما تتمكن من محاصرته. أما بالنسبة لإيقاعه عن قدميه فلم تتمكن من ذلك أيضاً فقد تشبثت أطرافه بالأرض كما يتشبث بالحياة حيث أن الحياة والبقاء على الأرض كانا مترادفين في هذه الحرب اللانهائية ضد المجموعة ولم يعلم أحد ذلك أكثر منه. لذا أصبح عدوا لأبناء نوعه الذئاب الأليفة بعد أن جعلتها نيران البشر أرق وأضعفتها ظلال قوة الإنسان.

كان ذو - الناب - الأبيض عنيداً ويشعر بالمرارة فقد شكل صلصاله بعمق وأعلن العداوة لكل الكلاب وعاش هذه العداوة لدرجة أن القندس - الأشيب الوحشي العنيف لم يستطع اخفاء إعجابه به وأقسم بأن لم يكن هناك حيوان شبيه به أبداً. وكذلك فعل الهنود في باقي القرى عندما شهدوا قتلاه بين كلابهم.

بعمر الخامسة تقريباً خرج ذو - الناب - الأبيض رفقة القندس - الأشيب في رحلة أخرى. وتذكر البشر طويلاً الفوضى التي خلقها بين الكلاب في القرى العديدة على طريق نهر ماكنزي.

عبر خلال رحلته تلك روكيز وطريق بوركوباين حتى ضاحية يوكون. وتفنن بالآنتقام الذي أوقعه بابناء جلدته من الكلاب العادية غير المميزة والتي لم تكن

معتادة على أسلوبه المباشر وهجومه بخفة دون تحذير. فهي لم تعرفه جيداً ولم تدرك أنه صاعقة من القتل يقف فوقها بأطراف منتصبة ونظرة متحدية ولا يضيع الوقت في مقدمات طويلة بل يدخل القتال مباشرة مثل نابض معدني ويصل حناجرها محطما إياها قبل أن تدرك ما يحصل.

خاض ذو - الناب - الأبيض نزالاته بسرعة وإذا ما خسر هرب بسرعة ايضا. وتميز بعدم محبته للاقتراب من الكلاب في حيز ضيق لدرجة كبيرة لأنه لم يتحمل التواصل مع جسد آخر لفترة طويلة فقد بدا الأمر منذرا بالخطر وجعله مضطربا وهو دافع من بقايا البرية التي تعبر عن نفسها عبره.

هذا الشعور تكون في حياة النبذ التي قادها منذ طفولته فتربص الخطر في التواصل كما لو أنه فخ وكان الحذر منه جزء من ذات تكوينه. وهكذا لم تمتلك الكلاب الغريبة التي إلتقاها فرصة للنجاة ضده وعاش أيامه دون أن يطوله الأذى.

بالمسار الطبيعي للأحداث كان هناك إستثنائات قليلة. ففي أوقات تجمعت الكلاب حوله وعاقبته قبل أن يتمكن من الهرب. وفي أوقات أخرى آذاه كلب ما كثيراً لكن تلك كانت مجرد حوادث. وبشكل عام أصبح مقاتلا شرسا لدرجة أنه لم يصاب بالأذى في حياته.

امتلك ميزة الحكم بدقة على الوقت والمسافة. ولم يفعل ذلك بشكل واع بحساب الامور بدقة بل كان الأمر آليا فرأت عيناه بدقة وحملت أعصابه الرؤية بشكل دقيق لدماغه لكون اجزائه مهيئة أكثر من الكلب العادي للعمل معاً بدقة وثبات وملك تنسيق عصبي وفكري وعضلي أفضل. فعندما نقلت عيناه صورة متحركة لحدث ما عرف دماغه دون جهد واع الفراغ الذي حدد الحدث والوقت الضروري لإكماله. وبهذا تمكن من تجنب قفزة كلب آخر أو هجمة أنيابه مستغلا في الوقت نفسه الزمن القليل جداً لإكمال هجومه. ولم يمدحه أحد على آلية عقله وجسده المثالية فقد أكرمته الطبيعة أكثر من الحيوان العادي وهذا كل ما في الأمر.

في الصيف وصل إلى قلعة يوكون بعد أن عبر رفقة القندس - الأشيب تجمع الأمطار من الشتاء الماضي بين نهري ماكنزي ويوكون وقضى الربيع في الصيد بين الاراضي الجبلية. ثم بعد إنحسار الجليد في بوركوباين بنى سيده قاربا وأبحرا عبر المجرى إلى حيث إندمج النهران تحت الحلقة القطبية.

هنا وجدت شركة هادسون - باي وأقام العديد من الهنود محاطين بوفرة من الطعام والأشياء المثيرة غير المسبوقة. فقد كان صيف سنة 1898 قد أوصل الآف الباحثين عن الذهب إلى المنطقة ليعبروا اليوكون إلى داوسون والكلوندانك. ورغم أنهم كانوا على بعد مئات الأميال من هدفهم إلا أن الكثير منهم قضى سنة أو أقل في الطريق واضطر لقطع خمسة الاف ميل على الاقل للوصول إلى هذا الحد.

وصلت حمى الذهب لأسماع القندس - الأشيب فجلب رزم من الفرو والقفازات والأحذية المصنوعة من أمعاء الحيوانات لبيعها. ولم يكن ليقطع كل تلك المسافة لو لم يتوقع الحصول على مردود وفير لكن ما توقعه لم يكن قريباً مما حصل عليه. فلم

يتخيل في أحلامه أن يحصل على فائدة بقدر 100 % وربحا بقدر 1000 %. وكهندي أصيل إستقر ليتاجر بحذر وبطيء حتى لو استغرق الأمر طوال الصيف وبقية الشتاء ليبيع أغراضه.

في يوكون رأى ذو - الناب - الأبيض رجل أبيض لأول مرة في حياته وبدا مقارنة بالهنود الذين عرفهم نوعا مختلفا. كما لو أنه نوعا متفوقا من الآلهة يمتلك الكثير من القوة.

بطبيعة الحال لم يفكر بالأمر ويستنتج ولم يقم عقله بتصنيف حاد بأن الآلهة البيض أكثر قوة. بل كان مجرد شعور لا أكثر ولكنه لم يكن أقل فاعلية. وكما أثرت به التكتلات الظاهرة للخيم في الأفق في أيام طفولته وبدت رمزيات للقوة كذلك تأثر الآن بالمنازل والقلعة الكبيرة من قطع الخشب العملاقة أدرك أنها تمثل قوة وأن هذه الآلهة البيضاء قوية فقد امتلكت سيادة أعظم على المادة من الآلهة التي عرفها سابقاً حتى بالنسبة للقندس - الأشيب وهو من بين أقوى الآلهة والذي بدا الآن مجرد لعبة شبيهة بإله.

شعر بالطبع بهذه الأشياء ولم يكن واع لها لكن الحيوانات تتصرف غالباً وفقا لأحاسيسها وأفكارها. فبني كل فعل على شعور بأن البيض من البشر آلهة متفوقة.

في البداية شعر بالشك تجاهها فلم يكن من الممكن أن يعرف ما تخبئه من مخاطر مجهولة وما يمكن أن تسببه من أذى وراقبها بفضول وخوف من أن تلاحظه لأول ساعات قليلة متسللاً في الأرجاء وباقيا على مسافة آمنة. ثم رأى أن الكلاب القريبة منها لم تتلقى الأذى فتقرب بدوره.

بالمقابل كان شيئاً مثيرا للفضول بالنسبة لها فقد لفت شكله الشبيه بالذئب نظرها وبدأت تشير له بالبنان بينما إنتشر خبر وجوده. هذا الفعل جعله حذرا وحين حاول أحد الآلهة الوصول إليه أبرز أسنانه وتراجع وبهذا لم ينجح أحدا منها في وضع يده عليه لحسن الحظ.

تعلم بسرعة أن قليل جداً من هؤلاء الآلهة - ليس أكثر من دزينة - عاشت في هذا المكان. وكل يومين أو ثلاثة جائت سفينة بخارية - وهي رمز آخر ضخم لقوتها - إلى الضفة وتوقفت لعدة ساعات ثم نزل الرجال البيض عن الباخرة وعادوا إليها مجدداً. وبدا أن هناك أعداد لانهائية من الرجال البيض فقد رأى في اليوم الأول رجال بيض أكثر مما رأى من الهنود طوال حياته.

مرت الأيام واستمر الرجال البيض بالمجيء عبر النهر والتوقف ثم المغادرة عبر النهر والاختفاء عن النظر. ورغم تميز الآلهة البيض إلا أن كلابها لم تكن مميزة إطلاقا.

اكتشف ذو - الناب - الأبيض ذلك سريعاً بالاختلاط مع من جائت مع أسيادها عبر النهر. وهي كلاب بأشكال وأحجام غير عادية بعضها قصير الاطراف أكثر من اللازم وبعضها طويل الاطراف أكثر من اللازم وامتلك بعضها شعرا بدل الفرو وامتلك بعضها شعراً قليلاً جداً ولم يعرف أي منها كيفية القتال.

كعدو لنوعه أصبح في ميدان قتالها بسرعة وبدأ بكرهها على الفور فقد كانت حيوانات رقيقة وعاجزة وتصدر الكثير من الضجة. كما مشت بشكل أخرق محاولة الحصول بقوتها الكاملة على ما يحصل عليه بمكر وبراعة وهرعت تنبح نحوه فإذا به يقفز إلى الجانب وقبل أن تعرف ما يحصل ضربها على الكتف وأوقعها عن أطرافها ثم سدد ضربته الحاسمة على الحنجرة.

أحياناً كانت ضربته ناجحة فيتدحرج الكلب في التراب ويقفز عليه ويقطع من قبل الكلاب الهندية التي إنتظرت دورها. فقد تعلم منذ زمن طويل أن الآلهة تغضب لقتل الكلاب ولم تكن الآلهة البيض إستثناءا. لذا شعر بالرضى لإيقاعها وفتح حنجرتها ثم ابتعد وترك الكلاب الهندية تتم المهمة القاسية وحينها تهرع الآلهة البيض وتنزل عقابها القاس على المجموعة بينما يفلت هو بجلده ويقف على مسافة قصيرة مراقباً الأحجار والمضارب والفؤوس وكل أنواع الأسلحة تنهال على رفاقه.

أصبحت الكلاب البقية أكثر حكمة تدريجياً وتصرف معها بحكمة أكبربدوره فقد تعلمت أن مجيء الباخرة قرب الضفة يعني أنها ستحظى بالمتعة. وبعد ثان أو ثالث كلب غريب قتلوه ودمروه دفع الرجال البيض كلابهم إلى السفينة وأنزلوا غضبهم على المعتدين.

مرة رأى أحد الرجال البيض كلبه من نوع الساطر يقطع لأشلاء أمام عينيه فأخرج سلاحه وأطلق ست طلقات نارية ليترك ستة كلاب ميتة أو على وشك الموت وهو رمز آخر للقوة إستوعبه ذو - الناب - الأبيض بوعيه.

من ناحية أخرى إستمتع بكل شيء فهو لم يحب ابناء نوعه وكان ماكرا كفاية لينجو بنفسه من الأذى. في البداية كان قتل كلاب الرجال البيض مجرد تسلية لكن بعد فترة أصبح وظيفته فلم يكن يملك عملا حيث انشغل القندس - الأشيب بالتجارة وربح المال وبقي ذو - الناب - الأبيض مرافقا الفريق الذي سبب الفوضى منتظرا مجيء السفينة ثم بدأ المرح فور وصولها.

وبعد دقائق قليلة بالوقت الذي تخطى فيه الرجال البيض المفاجأة هربت المجموعة متفرقة.

لم يكن جزءا من المجموعة حقاًفلم يختلط معها بل بقي بمعزل ونأى بنفسه. كما كان البقية يخافونه لكنه مع ذلك عمل معها مزعجا ومقاتلا الكلاب الغريبة بينما تنتظر المجموعة. وحين أوقع كلباً هاجمته لتكمل العمل بينما إنسحب تاركاً إياها تستلم العقاب من الآلهة الغاضبة وحدها.

لم يتطلب الأمر مجهودا كبيرا لبدأ قتال فكل ما كان عليه فعله هو إظهار نفسه وفور أن تراه الكلاب تهرع نحوه غريزيا فقد مثل البرية والمجهول والفظيع والشرير، ذلك الشيء الذي يتربص بها في الظلام حول نيران العالم القديم عندما اقتربت من تلك النيران وجلست بخزي قربها لتشكل غرائزها هكذا. فتعلمت الخوف من البرية التي جائت منها والتي هجرتها وخانتها وتشكل هذا الخوف من البرية جيلا بعد جيل

ولقرون مثلت الرعب والدمار. وخلال كل هذا الوقت منحتها أسيادها الأذن لقتل أشياء الغابة لأنها بهذا حمت أنفسها وآلهتها الذتي تشاركت رفقتها.

تمشت الكلاب من عالم الجنوب الرقيق عبر شاطئ يوكون وفور أن شاهدته لم تقاوم غريزة الهجوم عليه وتحطيمه. فرغم كونها كلاب معتادة على المدن إلا أن الخوف الغريزي من البرية كان جزءا منها ولم تنظر للمخلوق الشبيه بالذئب بعيونها وحسب وسط ضوء النهار بل بعيون أسلافها وبذاكرتها الموروثة عرفت فيه ذئباً وتذكرت الخلاف القديم.

كل ذلك خدم لجعل أيامه ممتعة فقد أعجبه إغضاب الكلاب ودفعها للقتال. نظرت له على أنه مفترس حقيقي ونظر لها بدوره على أنها فريسة. فلم تكن رؤيته لضوء النهار أول مرة عبر عرين موحش من دون نتيجة ولم يقاتل أول قتالاته ضد طائر البرتمجان وابن عرس والوشق بدون سبب. وكذلك طفولته المريرة المملؤة بإرهاب ليب - ليب وجراء الكلاب.

لربما اختلف الأمر واختلف مصيره لولا وجود ليب - ليب وتمكن من تجاوز طفولته مع الجراء الأخرى وأصبح أقرب لكلب وأكثر حبا لبقية الكلاب أو لو امتلك القندس - الأشيب خصل الحب والعاطفة لأوضحت خبايا طبيعته وأخرجتها للسطح على شكل صفات طيبة لكن هذه الأمور لم تحصل وبذلك شكل صلصاله حتى أصبح ما هو عليه - شرير وحيد وعنيف وغير محب وعدوا لكل ابناء نوعه ــ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2-

الإله المجنون

عاش قلة من الرجال في قلعة يوكون منذ زمن طويل وأطلقوا على أنفسهم اسم «العجائن المختمرة» متفآخرون بهذا الإسم. ولم يكنوا للرجال الآخرين شيئاً سوى الإزدراء فقد مثل القادمون عبر البواخر دخلاء جدد بالنسبة لهم وأطلقوا عليهم تسمية «الوافدون». وكره القادمون الجدد بدورهم تلك التسمية. أما عن سبب التسمية فيعود لإستخدام القادمون الجدد مسحوق التخمير لصنع الخبز بينما لم يملك سكان القلعة المسحوق ولذا تركوا عجينهم يتخمر على مهل لكن ذلك ليس بالأمر المهم.

إزدرا سكان القلعة القادمون الجدد واستمتعوا إن أصابتهم أحزان. لذا تمتعوا بشكل خاص بالفوضى التي طالت كلاب القادمين الجدد على يد ذي - الناب - الأبيض ومجموعته سيئة السمعة. وأصبحوا ينتظرون وصول الباخرة ليتأكدوا من الحضور إلى الضفة لمشاهدة المتعة متطلعين للأمر بنفس الترقب الذي تطلعت فيه إليه الكلاب الهندية وقدروا دور ذي - الناب - الأبيض الوحشي والبارع في العملية.

كان هناك رجل واحد يتمتع بالأمر بشكل خاص فيأتي راكضا عند سماع أول صافرة للباخرة وعندما ينتهي القتال وتتفرق المجموعة يعود إلى القلعة ببطء وتعبير ندم يعلو وجهه. وأحياناً لا يتمالك نفسه إذا ما رأى أحد الكلاب الجنوبية يصرخ بينما يموت تحت أنياب المجموعة ويبدأ بالقفز مرحا في الهواء ولطالما راقب ذا - الناب - الأبيض بنظرة حادة طامعة.

كان رجال القلعة يطلقون عليه تسمية «الجميل». لم يعرف أحد اسمه الأول الحقيقي بل عرف في القرية بإسم الجميل - سميث وحسب. لكنه لم يكن جميلا. في الواقع اختاروا له هذا الإسم بقصد الإشارة للتناقض بين الإسم ومظهره فلم يكن جميلا بالمرة وبانت قسوة الطبيعة عليه.

كان رجل ضئيل الحجم وبدا رأسه كبيرا جداً مقارنة بجسده ومدبب في نهايته. ولذلك اعتاد الآخرون تسميته «رأس الدبوس» في شبابه. تسطحت قمة رأسه نحو رقبته من الخلف وحنيت من الأمام لتلتقي جبينا عريضا وواطئا كما لو أن الطبيعة مدت يدا مسرفة في رسم ملامحه. أما عيناه فكبيرتين وبينهما مسافة بكبر العينين.

كان وجهه غير عادي مقارنة بجسده وللضرورة منحته الطبيعة فكا كبيرا وعريضا وثقيلا ويبرز إلى الخارج طويلاً حتى يبدو أنه يرزح على صدره. وربما عاد مظهر رأسه لرقبته النحيلة المتعبة من حمل رأسه الثقيل ومنحه فكه مظهرا بالإصرار العنيف لكن كان أكبرمن اللازم.

على كل حال لم يكن إصراره سوى كذبة فقد عرف في الأرجاء بأنه أضعف الضعفاء وجبان متباكٍ. ولإكمال وصفه كانت أسنانه كبيرة وصفراء بينما يبرز سناه الأماميان أكبرمن البقية تحت شفته الرفيعة كأنياب وعيناه صفراوين ومشوشتينٍ

كما لو أن الطبيعة لم تعد تملك صبغة فعصرت كل ما لديها من الألوان المتبقية معاً فيهما وشعره خفيفاً غير متوازن النمو وأصفر كالوحل أو التراب يرتفع على رأسه وينمو من وجهه في خصل غير متساوية كما لو كان قمحاً منثوراً في الريح.

باختصار كان قبيحاً للغاية لكن ذلك لم يكن بسبب شكله وحسب فلم يكن مسؤولا عن تشكل صلصاله. كان يقوم بالطبخ لبقية سكان القلعة وغسل الصحون وأعمال التنظيف. ولم يكرهه الآخرون بل تحملوه بطريقة إنسانية كما يتحمل الناس مخلوقا ولد بحظ عاثر. لكنهم خافوه - خافوا من أن تدفعه إحدى نوبات جبنه لضربهم من الخلف أو تسميم قهوتهم ــ. مع ذلك كان على أحدهم أن يقوم بالطبخ وكان الجميل طباخاً جيداً فتركوه يقوم بالأمر.

نظر الجميل إلى ذي - الناب - الأبيض فرحا بقوته الوحشية ورغب بأن يتملكه وإقترح شرائه على مالكه منذ وقع بصره عليه. بدوره تجنب ذو - الناب - الأبيض الرجل الغريب في البداية. ثم أصبح يزمجر ويظهر أسنانه نحوه لاحقاً فهو لم يعجبه ومنحه شعوراً سيئاً - شعوراً بوجود شر فيه وخوف من اليد الممتدة ومحاولات الحديث اللطيف - ولهذا كره الرجل.

مع الأحياء الأصغر فهم ذو - الناب - الأبيض الجيد والسيء بسهولة. فالجيد هو كل ما يجلب الراحة والرضى ومنع الألم لذا فالجيد محبوب. بينما السيء كلما يجلب عدم الراحة والشر والأذى ولذا يجب كرهه.

شعر بأن الجميل سيء وبدا بأنه يفيض بعلامات تدل على سوءه من شكله غير المتناسق إلى عقله المنحرف بطرق غامضة. كما لو كانت العلامات ضباب يرتفع فوق أهوار محملة بمرض الملاريا. فشعر بشر الرجل ليس عن طريق المنطق أو الحواس الخمسة بل بحواس أخرى بعيدة وغير ملموسة وعرف فيه رغبة ليسبب الأذى ولذا فهو شيء سيء ومن الحكمة تركه.

كان ذو - الناب - الأبيض في مخيم القندس - الأشيب حين زاره الجميل مرة. وفور سماعه خطوات القادم الباهتة عرفه وبدأ يتذمر بينما يستلقي وحيداً يستريح ثم نهض سريعاً وتسلل إلى حافة المخيم كما يفعل ذئب أصيل.

لم يعرف ما قاله الرجلان لكنهما شاهدهما يتحدثان. وشاهد الرجل يشير نحوه مرة وزمجر رداً عليه كما لو كانت يده تحاول لمسه عن بعد خمسين قدم. ضحك الرجل وتوجه ذو - الناب - الأبيض إلى ملجأ الأشجار ملاحظاً ما حوله بينما يمشي بتمهل على الأرض.

رفض القندس - الأشيب بيع الكلب فقد أصبح غنيا بفضل تجارته ولم يحتاج للمال. إضافة لكون ذي - الناب - الأبيض حيواناً قيماً فهو الأقوى في جر المزلاج وأفضل قائد بين الكلاب ولم يكن هناك كلب شبيه به في ماكنزي ويوكون. كما استطاع القتال وقتل الكلاب بسهولة كما يقتل رجل البعوض.

لمعت عينا الرجل حين سمع القندس - الأشيب يصف حيوانه ولعق شفتيه بلسان طامع لكن المالك أكد عليه أن ذا - الناب - الأبيض ليس للبيع مقابل أي سعر. مع

ذلك عرف الجميل طرق الهنود لذا استمر بزيارة المخيم وجلب تحت ردائه كل مرة قنينة سوداء بداخلها شراب ما.

أن تناول الويسكي يمنح عطشا له. وبعد فترة أصبح القندس - الأشيب مدمنا عليه فبدأت أغشيته المحمومة ومعدته تتحرق للمزيد من الشراب اللاذع بينما إنحرف تفكيره بسبب فعاليته وصار يفعل كل ما يلزم للحصول عليه. فصرف كل ما جمع من مال من بيع الأحذية والقفازات والفراء حتى لم يعد يملك مالا أو صبرا - لم يملك سوى عطشه للشراب المسكر ــ، وهو تملك بحد ذاته يعجزه فيصبح أشد إلحاحا مع كل نفس يتنفسه وهو صاح.

تحدث القندس - الأشيب والجميل مرة أخرى عن الكلب وعرض عليه هذه المرة مبلغا على شكل قنان بدل المال لذا تحمس المالك للعرض ووافق أخيراً قائلاً:

- «إذا استطعت إمساكه فهو لك»

وبعد يومين جاء الجميل وقال له،

- «أمسك لي الكلب بنفسك»

في أحد الأيام تسلل ذو - الناب - الأبيض إلى المخيم واستلقى راضيا فلم يكن الإله الأبيض اللعين في الأرجاء بعد أن ازدادت رغبته بالحصول عليه في الأيام القليلة الماضية مما حداه لتجنب المخيم في أوقات زيارته. لم يعرف ما سيناله من شر من هذه اليدين المصرة بل عرف فقط أنها تحمل شرا من نوع ما وأن من الأفضل البقاء في منئى عنها.

فور أن استلقى جائه القندس - الأشيب متثاقلاً وربط سيراً جلدياً حول رقبته. ثم جلس جانبه ممسكاً بنهاية السير وحاملاً قنينة في اليد الأخرى يرفعها لوجهه بين الحين والآخر مصدراً صوت قرقرة.

بعد ساعة سمع ذو - الناب - الأبيض خطوات قادمة وعرف صاحبها قبل أن يراه فبدأ يتذمر. أومأ القندس - الأشيب بغباء وحاول الكلب سحب السير من يد سيده لكن الأصابع المرتخية أغلقت بقوة ونهض السيد على قدميه.

جاء الجميل متبخترا إلى المخيم ووقف قربهما فزمجر ذو - الناب - الأبيض على مهل نحو الرجل المخيف مراقباً كل حركة من اليدين. ثم مد الرجل إحدى يديه وحاول أن يضعها على رأسه فأصبحت زمجرته أجشة وقلقة.

استمرت اليد بالهبوط ببطء بينما ينحني تحتها مراقباً بخبث وتصبح زمجرته أقصر وأقصر وتتسارع أنفاسه. حين وصلت اليد لوجهتها أغلق فكيه فجأة بأنياب كالثعبان فعادت اليد إلى الخلف بسرعة وأغلقت أسنانه بصرير حاد.

كان الجميل خائف وغاضب. وضرب القندس - الأشيب الكلب على رأسه فانحنى الأخير على الأرض بطاعة واحترام. وتتبع بعينيه الشكاكة كل حركة ليرى الجميل يذهب ويعود حاملاً مضرباً قصيراً قبل أن يمنحه القندس - الأشيب نهاية السير ليبدأ المشي مغادراً.

اشتد السير وقاوم الكلب لكن سيده ضربه من الجهتين لدفعه على النهوض والمشي فأطاع الأمر بعجلة قافزاً نحو الرجل الذي كان يسحبه. لم يقفز الجميل مبتعداً فقد كان يتوقع حدوث الأمر بل لوح بالمضرب ببراعة وأوقف الكلب في منتصف القفزة ليوقعه أرضاً.

ضحك القندس - الأشيب موافقاً. ثم شد السير مرة أخرى وبدأ ذو - الناب - الأبيض يزحف ويعرج حتى وقف على قدميه. هذه المرة لم يقفز فقد تعلم من الضربة الأولى أن الإله الابيض يعرف كيف يتعامل مع حركته وكان أكثر حكمة من مقاومة المحتوم لذا تبعه متجهما وذيله بين ساقيه رغم أنه استمر بالزمجرة بصوت خفيض. أما الجميل فأبقى بصره بحذر عليه وأمسك بالمضرب مستعداً لضربه.

في القلعة ربطه الجميل بإحكام وذهب إلى الفراش. إنتظر ذو - الناب - الأبيض ساعة ثم بدأ بعض السير الذي يربطه وتمكن خلال عشر ثوان من تحرير نفسه. لم يُضع أي وقت بالعض غير المفيد بل قطعه بشكل عمودي كما لو أنه فعل ذلك بسكين ثم نظر حول القلعة متذمرا قبل أن يستدار ويتجه على مهل نحو مخيم القندس - الأشيب فلم يملك ولاءا لهذا الإله الغريب الفظيع ولم يمنح نفسه لأحد سوى القندس - الأشيب ولذا إعتبره سيده الأوحد حتى الآن.

في الصباح ربط القندس - الأشيب الكلب مرة أخرى وأعطاه للجميل. وهنا كان الاختلاف فقد ضربه الجميل وربطه بإحكام بحيث لم يستطع إلا الهيجان غضباً دون جدوى وتحمل العقاب. استعمل الجميل المضرب والسوط ومنحه أسوأ ضرب تلقاه في حياته حتى مقارنة بالضرب الذي تلقاه في طفولته على يد سيده.

علاوة على ذلك استمتع الجميل بالمهمة شامتاً من ألم عدوه بينما تلمع عيناه فرحاً ويستمع لصراخ الكلب من الألم وزمجرته العاجزة بفرح كبير. لأنه كان قاسياً على طريقة الجبناء ومعتاداً على الانحناء والتباكي أمام ضربات الرجال وصراخهم لذا فقد انتقم لنفسه بضرب كائنات أقل منه. فعدم امتلاكه طريقة للتعبير عن القوة بين أفراد نوعه دفعته لإيقاع غضبه على الكائنات الأضعف منه لينفس عن الحياة التي فيه. لكنه لم يخلق نفسه ولذا لا يلام على سوء خصاله فقد جاء إلى العالم بجسد مشوه وذكاء بهيمي وتلك مادة صلصاله ولم تشكل بعطف من قبل العالم.

عرف ذو - الناب - الأبيض لمَ يتم ضربه فعندما ربط السير حول رقبته ومنح للجميل عرف أن إلهه يرغب بأن يغادر معه. حين ترك مربوطاً خارج القلعة عرف أن الجميل يرغب بذلك وهو إله بدوره. وبالتالي فقد خالف رغبة الإلهين ونال جزاءه.

رأى من قبل كلاباً تغير ملاكها ورأى الهاربة منها يتم ضربها. ورغم حكمته وفهمه كانت هناك قوى أعظم من الحكمة في طبيعته ومنها الوفاء. لم يحب القندس - الأشيب لكن حتى في وجه رغبته وغضبه كان وفيا له فهو لم يتحكم في ذلك بل كان الوفاء صفة من صفات الصلصال الذي كونه. وهي صفة تعود لنوعه بشكل غريب وتميزه عن باقي الأنواع وتمكن الذئب والكلب البري من ترك البرية ورفقة البشر.

بعد الضرب سحب إلى القلعة مجدداً لكنه ترك مربوطاً بعصا هذه المرة. إن المرء لا يتخلى عن آلهته بسهولة وكذلك ذو - الناب - الأبيض. فقد عرف في القندس - الأشيب إلهه ورغماً عنه تشبث به ولم يتخلَ عنه. لقد خانه إلهه وهجره لكن هذا لم يؤثر به فهو لم يسلم روحه وجسده له دون أثر.

لم يكن هناك تحفظات من جانب ذي - الناب - الأبيض ولم يسمح للرابط بينهما أن يختفي بسهولة لذا في الليل بينما نام البشر في القلعة بدأ بمضغ العصا التي ربطته بأسنانه. كانت العصا قديمة وجافة وقريبة جداً من رقبته بحيث بالكاد استطاع الوصول إليها لكنه أخيراً تمكن بجهد عضلي كبير وبليّ رقبته من إمساكها بأسنانه وبالصبر العميق الدؤوب لساعات عديدة من الكد تمكن من تحرير نفسه. كان هربه أمراً غير مسبوق لم يجدر بالكلاب فعله لكنه فعل وتمهل خارج القلعة عند الصباح الباكر بينما تتأرجح نهاية العصا عند رقبته.

لو كان حكيما فقط لما عاد إلى القندس - الأشيب الذي خانه بالفعل مرتين لكن وفاءه جعله يعود لتتم خيانته مرة ثالثة. ومرة أخرى استسلم لربطه بالسير ومرة أخرى جاء الجميل ليستلمه وضرب هذه المرة أشد مما قبل حتى.

نظر القندس - الأشيب بهدوء بينما يلوح الرجل الأبيض بالسوط ولم يقدم له الحماية فلم يعد كلبه. وعندما انتهى الضرب كان الحيوان المسكين مريضاً للغاية وربما لو كان كلباً جنوبياً رقيقا لمات من الضرب لكنه نجا فقد كانت مدرسة حياته أصعب وصلصاله أشد صلادة.

برغم نموه الكبير وقبضته القوية على الحياة مرض ولم يستطع في البداية المتابعة فاضطر الرجل للانتظار نصف ساعة قبل أن يترنح دون أن يرى ليتبعه حتى القلعة ويربط هذه المرة إلى سلسلة لم تتمكن منها أسنانه رغم محاولاته دون نتيجة القفز لسحب الجزء الملتوي داخل الخشب من مكانه.

بعد أيام صحا القندس - الأشيب من سكرته ليجد نفسه مفلساً فغادر على طريق بوركوباين ليقطع رحلته الطويلة على طول الماكنزي. وبقي ذو - الناب - الأبيض في يوكون ملكاً لرجل نصف مجنون ونصف وحشي القسوة. لكن ماذا يعرف الكلب عن الجنون بوعيه المحدود؟

كان الجميل إلهاً محقاً بالنسبة لذي - الناب - الأبيض وإن كان مجنوناً في أحسن أحواله.

لم يعرف شيئاً عن الجنون بل عرف فقط أن عليه أن يستسلم لرغبة السيد الجديد ويطيع كل نزواته وأهوائه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-3-

عهد الكراهية

تحت وصاية الإله المجنون أصبح ذو - الناب - الأبيض لا يطاق.

بقي مربوطاً بسلسلة خلف القلعة واستمر الجميل بإزعاجه وإغاظته وإثارة حفيظته بعذابات تافهة. فقد اكتشف مبكراً تأثره بالضحك وبعد ذلك أصبح يتأكد من خداعه ليضحك عليه بشكل صاخب وساخر وفي الوقت نفسه يشير بإصبعه نحوه متهكما.

في هذه الاوقات لم يعد ذو - الناب - الأبيض يتصرف بمنطق وفي هيجان غضبه أصبح أشد جنون من الجميل. وإن كان قبل ذلك عدو لنوعه فقد أصبح الآن عدوا لكل شيء وأكثر وحشية من أي وقت مضى.

عذب لدرجة كبيرة حتى أصبح كرهه أعمى ولا يحمل ذرة منطق. فكره السلسلة التي أسرته والرجال الذين نظروا إليه من بين قضبان القفص والكلاب التي رافقت الرجال وزمجر بحقد في عجزه. كما كره الخشب الذي تكون منه القفص نفسه وأكثر من أي شيء كره الجميل لكن الجميل كان يفعل كل ما فعل لهدف معين.

ذات يوم تجمع عدد من الرجال حول القفص ثم دخل الجميل حاملاً مضربه ونزع السلسلة عن رقبة ذي - الناب - الأبيض. عندما ابتعد سيده وأطلق سراحه بدأ الأخير بتمزيق القفص محاولاً الوصول إلى الرجال خارجه بفظاعة مذهلة. كان قد وصل طوله لخمس أقدام وارتفاعه لقدمين ونصف عند الكتف وكان يفوق وزنه وزن ذئب من نفس الحجم. فقد ورث من والدته صفات الكلب الثقيلة بحيث أصبح وزنه أكثر من تسعين باوند دون شحوم أو لحوم زائدة بل من العضلات والعظام والأوتار في أفضل حالاتها.

فتحت باب القفص مرة أخرى وتوقف مؤقتا مترقباً حدوث شيء غير عادي. حين فتحت الباب كاملة دخل كلب عملاق وأغلقت وراءه.

لم يرَ في حياته كلباً من نوع الدراوس لكن حجم وقوة الدخيل الواضحة لم تزعزعه فقد كان هناك شيء غير الخشب والمعدن أمامه وبإمكانه إنزال غضبه عليه. لذا قفز مظهرا أنيابه ومزق جانب رقبة الكلب بينما هز العدو رأسه ونبح بصوت أجش وقفز نحوه بأنياب بارزة ثم هرب من العقاب في الوقت المناسب قافزا على أنغام صراخ الرجال وتصفيقهم وابتهاج الجميل بنشوة فرح سببها أداء حيوانه.

لم يملك الكلب الغريب أملاً من البداية لكونه بطيئاً وأخرق. في نهاية النزال ضرب الجميل حيوانه ليتراجع وجر الكلب الخصم إلى مالكه ثم تم دفع الرهانات ومُلئت يدا الجميل بالمال.

أصبح ذو - الناب - الأبيض يتطلع بتوق لتجمع الرجال حول قفصه فذلك يعني القتال وهي الطريقة الوحيدة التي سمح له بها التعبير عن الحياة فيه. عذب وحرض

على الكراهية وأبقي سجيناً بحيث لم يجد وسيلة للتنفيس عن كرهه عدا الاوقات التي وضع فيها سيده كلباً آخر أمامه. وقدر الجميل قواه جيداً فقد كان المنتصر دائماً.

في أحد الأيام أدخلت ثلاثة كلاب تباعاً عليه. ومرة أدخلَ ذئباً بالغاً بعد أن أمسك به في البرية. ومرة كلبين في الوقت نفسه - كان هذا أشد قتال خاضه - ورغم أنه قتلهما في النهاية إلا أنه كان على وشك خسارة حياته في القتال.

في خريف السنة وعند سقوط الثلج أول مرة وسير قطع الجليد مع مياه النهر أخذ الجميل ذا - الناب - الأبيض في رحلة على سفينة بخارية تبحر عبر يوكون إلى داوسون. كان قد حصل على سمعة في البلاد وعرف بإسم «الذئب المقاتل» في كل مكان وعادة ما أحاط الرجال الفضوليون القفص الذي حفظ فيه على السفينة بينما غضب وزمجر نحوهم أو استلقى بصمت وحدق بهم بعينين ملؤهما الكره. ولم يسأل نفسه أبداً لما يكرههم بل عرف الكره وحسب وفقد نفسه فيه.

أصبحت حياته جحيماً فهو لم يخلق ليكون رهينة مكان صغير بالطريقة التي عامل فيها البشر حيوانات أخرى. ومع ذلك تمت معاملته بهذه الطريقة وحدق الرجال به ونكزوه بالعصي بين فتحات القفص ليزمجر ثم ضحكوا ساخرين منه.

أصبح هؤلاء الرجال بيئته وشكلوا صلصاله لشيء أكثر وحشية مما قدرت له الطبيعة. مع ذلك منحته الطبيعة مرونة كبيرة فلو كان حيوان آخر محله لمات أو تحطمت معنوياته لكنه تأقلم وعاش ولم تنكسر شوكة عزيمته.

غالباً ما كان الجميل عدوه الاساسي ومعذبه قادراً على تحطيم معنوياته لكنه لم ينجح بعد. فلو كان الجميل شيطاناً فكذلك كان ذو - الناب - الأبيض وهاج الاثنان ضد بعضهما دون توقف.

في الأيام السابقة امتلك ذو - الناب - الأبيض الحكمة للانحناء والاستسلام لرجل يحمل مضرباً لكنه لم يعد يتصرف هكذا. فمنظر سيده وحده كفيل لجعله يمر بنوبة غيظ وكلما اقترب منه وضربه ليتراجع استمر بالزمجرة وإظهار أنيابه. ولم يتمكن الجميل من نزع زمجرته الأخيرة منه مهما ضربه فحين استسلم الجميل وانسحب تبعته زمجرة مقاومة او قفزة نحو قضبان القفص معلنة الكره.

عندما وصلت السفينة إلى داوسون أنزل في قفصه لكنه استمر بالحياة العامة يحيط به الرجال الفضوليون. وعرض على أنه «الذئب المقاتل» ليدفع الرجال خمسين سنتا على شكل غبار الذهب لرؤيته. لم يحظى بالراحة فكلما استلقى لينام شعر بوخزة عصا حادة حتى يتسنى للجمهور رؤيته. ولجعل العرض أكثر متعة أغضبوه أغلب الوقت.

لكن الجو الذي عاش فيه كان أسوأ فقد أعتبر أكثر الوحوش إخافة وهكذا تمت معاملته عبر فتحات القفص - كل كلمة ونظرة حذرة من جهة الرجال أكدت رعبه الفظيع - كمن يضيف الوقود إلى نار فظاعته. ولم ينتج عن ذلك سوى نتيجة واحدة هي إزدياد وحشيته. ومثلت وحشيته نموذجا آخرَ على مرونة صلصاله وقدرته على التشكل تحت ضغوط البيئة.

إضافة لعرضه في القفص استمر بالمشاركة في النزالات. فكلما استطاع الرجال تنظيم قتال أخرج من القفص وقيد إلى الغابة على بعد أميال قليلة من المدينة. عادة ما حصل ذلك في المساء لتجنب تدخل شرطة المنطقة وبعد ساعات من الانتظار وبحلول النهار وصل الجمهور والكلب الذي سيقاتله. وبهذه الطريقة قاتل جميع أحجام وأنواع الكلاب في تلك البلاد الوحشية التي سكنها رجال متوحشون واستمر فيها القتال حتى الموت.

استمر ذو - الناب - الأبيض بالقتال واستمرت الكلاب الأخرى بالموت بطبيعة الحال فهو لم يهزم أبداً. بعد أن جعل منه تدريبه المبكر بقتال ليب - ليب ومجموعة الجراء مقاتلاً مميزاً يمتلك قدرة عجيبة على التشبث بالأرض فلا يستطع أحد الايقاع به. وكانت تلك الخدعة المفضلة للذئاب - القفز بسرعة نحوه بشكل مباشر أو من زاوية غير متوقعة على أمل جرح كتفه ومفاجئته ـ. جربت جميع الكلاب تلك الخدعة - كلاب برية من الماكنزي وكلاب لابرادور وكلاب أسكيمو وكلاب هاسكي ومالميوت - وكلها فشلت في زحزحة وقفته. وأخبر الرجال بعضهم بذلك وشاهدوه كل مرة ليروا إن كان سيخسر أخيراً لكنه دائماً ما خيب ظنهم.

كما تميز بسرعة شبيهة بالبرق أعطته ميزة فائقة على خصومه. فمهما كانت خبراتها القتالية لم تلتقي أبداً كلباً يتحرك بتلك الخفة. وكذلك هجومه المباشر الذي مثل قوة يجب الحذر منها فقد اعتاد الكلب العادي على مقدمات من زمجرة ونباح وتذمر لذا كان يقع عن قدميه ويقتل قبل أن يبدأ القتال أو يستوعب المفاجأة.

حدث هذا كثيراً حتى أصبح من الضروري الإمساك به ريثما يكمل الخصم مقدماته وربما ريثما يجهز وينفذ هجومه الأول. لكن أعظم ميزة كانت خبرته فقد عرف أكثر عن القتال من أي كلب واجهه وخاض نزالات كثيرة وتعلم مواجهة خدع وطرق أكثر وامتلك حيلاً أكثر ولم تحتج طريقته لتحسن تقريباً.

بمرور الوقت قلت النزالات فقد يأس الرجال من وضع كلب يضاهي قوته وأصبح الجميل يضع ذئاب تنافسه بعد أن نصب لهم الهنود كمائن لهذا الغرض. ودائماً ما جذب قتاله ضد الذئاب جمهورا كبيرا.

مرة قاتل أنثى وشق بالغة بسرعة تساوي سرعته وقوة شبيهة بقوته. علاوة على قتاله بأنيابه فقط بينما قاتلت هي بمخالبها الحادة كذلك لكنه تمكن من هزمها. لتتوقف النزالات بعدها فلم يكن هناك حيوان جدير بقتاله لذا بقي للعرض فقط حتى الربيع حين جاء تاجر اسمه تم - كينان إلى المنطقة.

جلب التاجر معه أول كلب بولدوغ في المنطقة وكان من المحتوم أن يلتقيا في نزال. ولإسبوع ترقب الجمهور النزال وكان الحديث الرئيسي في أنحاء بعينها من المدينة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-4-

الموت المتشبث

نزع الجميل السلسلة عن رقبة ذي - الناب - الأبيض وأخذ خطوة إلى الوراء.

لم يهجم ذ - الناب - الأبيض فورا بل وقف مكانه بأذنين منتصبتين يترقب بحذر الحيوان الغريب أمامه فهو لم يرى كلباً كهذا من قبل.

دفع تم - كينان البولدوغ إلى الأمام وقال،

- «هيا الآن إذهب»

تقدم الحيوان على مهل ووقف في مركز الدائرة. كان قصيرا وسمينا وغير متوازن بينما يرمش تجاه خصمه. تعالت صرخات من الجمهور،

- «هيا تشيروكي.. هاجمه الآن.. كله يا تشيروكي»

لكن تشيروكي لم يبدو متحمسا للقتال بل أدار رأسه ورمش نحو الرجال الصارخون وفي الوقت نفسه هز ذيله القصير بمرح كما لو أنه لم يكن خائفاً بل متكاسلا وحسب. أو أنه شعر بأن ليس من المقدر له قتال الكلب الذي يقف أمامه فهو لم يكن معتاد على قتال هذا النوع من الكلاب وكان ينتظر دخول الكلب الحقيقي.

تقدم التاجر من كلبه وانحنى نحوه مداعبا إياه على جانبي كتفيه فمست يديه الشعر القصير ودفعته إلى الأمام قليلاً. إنزعج تشيروكي بدوره ولم يتحمل الحركات فبدأ يصدر هريرا في أعماق حنجرته. وكان هناك توازن بين نغمة الهرير وحركة يدي الرجل ثم على صوت الهرير مع كل دفعة إلى الأمام وهدأ وعاد مجدداً بعد كل حركة حتى أصبح يصدر عند توقف الرجل عن الحركة ويعلو مجدداً فور أن يبدأ.

لم يكن ذلك دون تأثير على الخصم فبدأ شعر ذي - الناب - الأبيض ينتصب على رقبته وكتفيه. منح تم - كينان كلبه دفعة أخيرة ثم عاد إلى الوراء لكن حين توقف عن الدفع هذه المرة استمر تشيروكي بالتقدم من تلقاء نفسه بهرولة على أطرافه القصيرة ثم هاجم خصر عدوه.

صدرت صرخة إعجاب من الرجال بينما غطى ذو - الناب - الأبيض مساحة الحلبة متقدما كقط وليس ككلب. وبنفس الخفة هاجم بأنيابه وقفز مبتعداً فبدأ البولدوغ ينزف من إحدى أذنيه وجرح في رقبته السميكة. لكنه لم يظهر علامة على الألم أو ينبح بل إستدار وتبع خصمه.

ازدادت حماسة الجمهور المشجع للعرض برؤيتها ثبات أحد الخصمين وسرعة الآخر وبدأت الرهانات تزيد.

مرة بعد مرة قفز ذو - الناب - الأبيض وهاجم خصمه ثم هرب دون أن يمسه أذى. ومع ذلك استمر عدوه الغريب بتتبعه دون خوف ليس ببطء ولكن بإصرار حذر

وطريقة عملية.

كان هناك هدف من طريقته وهو شيء يفعله ويصر عليه دون أن يثنى عزمه فلحقت كل حركة من سلوكه غرضا مؤكدا حير خصمه. لم يرَ ذو - الناب - الأبيض حيواناً شبيهاً به - لم يملك شعراً لحمايته وكان جسده طريا وينزف بسهولة ولم يمتلك فراءا يحميه من أسنان أعداءه كبقية الكلاب - وكل مرة هاجمه غرس أسنانه بسهولة في جسد الحيوان غير القادر عن الدفاع عن نفسه لكن ما آثار قلقه أن خصمه لم يصرخ كما اعتادت بقية الكلاب التي قاتلها بل تحمل العقاب بصمت عدا هرير ونباح خفيض ولم يعلن عن حركته التالية.

لم يكن تشيروكي بطيئا فقد استطاع اللف والدوران بخفة لكنه لم يستطع الإمساك بخصمه. لم يقاتل يوماً كلباً لم يستطع الاقتراب منه فلطالما كانت الرغبة بالاقتراب مشتركة لكن هذا الكلب بقي بعيداً يتراقص ويتجنب الهجمات وعندما غرس أسنانه في جسده لم يمسك به بل تركه على الفور وابتعد. لكن ذا - الناب - الأبيض لم يستطع الوصول إلى الجانب الأسفل من الحنجرة فقد كان الخصم أقصر من اللازم ومثل فكيه الكبيرين حماية إضافية.

تقدم وتراجع دون أن يصاب بأذى بينما ازدادت جراح تشيروكي على جانبي رقبته ورأسه ونزف بغزارة لكنه لم يظهر علامة انزعاج بل استمر بالمطاردة رغم توقفه مرة محتارا وهز ذيله نحو الرجال.

قفز ذو - الناب - الأبيض فوقه في اللحظة ممزقاً أذنه وأظهر تشيروكي بعض الغضب مستمراً بملاحقة خصمه فقد كان يسعى لإحكام قبضته على حنجرته التي أفلتت منه بمسافة شعرة لا أكثر. وعلت صرخات المديح من الرجال بينما ابتعد ذو - الناب - الأبيض عن الخطر.

مر الوقت واستمر ذو - الناب - الأبيض بالتراقص مبتعداً ومتجنبا الألم بينما لاحقه تشيروكي بإصرار فعاجلاً أم آجلاً سيحصل الأخير على فرصة لإحكام قبضته على خصمه لينتصر بالمعركة. أما في الوقت الحالي فتقبل العقاب الذي أنزل عليه وأصبحت أذنيه أشرطة ممزقة وجرحت رقبته وكتفيه وحتى شفتيه في عدة أماكن من الهجمات السريعة غير المتوقعة.

مرة بعد أخرى حاول خصمه إيقاعه عن أطرافه لكن الفرق بارتفاعهما كان كبيرا - كان قريباً جداً من الأرض ــ. حاول ذو - الناب - الأبيض تكرار خدعته عدة مرات حتى حالف الحظ تشيروكي أخيراً عندما كان خصمه يتراجع في حلقة عكسية معرضا كتفه للخطر بينما رأسه محني إلى الجانب ويلف ببطء.

اتجه ذو - الناب - الأبيض نحوه وضربه بقوة كبيرة بحيث حملته قوة الدفع فوق جسد الآخر. ولأول مرة رأى الرجال ذا - الناب - الأبيض يسقط عن أطرافه ليتشقلب جسده بنصف حلقة في الهواء. وكان على وشك الوقوع على ظهره لولا أنه تمكن من التلوي كقط في الهواء ليقع على جانبه وفي اللحظة التالية عاد للوقف. لكن تلك اللحظة كانت كافية لإغلاق تشيروكي أسنانه على حنجرة خصمه.

لم تكن قبضة محكمة بل أوطئ من اللازم لكنه استمر بالتشبث بعدوه بينما قفز الآخر على أقدامه وبدأ يهز رأسه محاولاً إفلات عدوه وبرعب سحب جسد الكلب المعلق به والذي أعاق حركته وقيد حريته.

كان كفخ قاومته كل غرائزه وثارت ضده - كانتفاضة مجنونة - وبدا لعدة دقائق مجنونا لكل من يشاهده. سيطرت عليه الحياة الأساسية التي فيه وتسيدت الرغبة بالبقاء كل شيء فغادره كل ذكاء كما لو لم يملك عقلا واضطرب منطقه بالتعطش الاعمى للوجود والحركة مهما كانت التكاليف للاستمرار بالحركة. لأن الحركة تعبير عن الوجود.

استمر بالركض والإلتفاف والتراجع محاولاً أن يزيح الخمسين باوند المتعلقة في حنجرته. لم يفعل خصمه الكثير سوى إحكام قبضته ووضع أقدامه على الأرض أحياناً ليلقي نفسه نحو ذي - الناب - الأبيض.

عرف تشيروكي بغريزته أنه يقوم بالشيء الصحيح بالتعلق فشعر بحماس ورضى. في أوقات كهذه أغلق عينيه وسمح لجسده أن يتحرك هنا وهناك بهرج ومرج غير مهتم للألم الذي قد يأتي من خدعته ولم يحسب الأمر بل تمسك بخصمه وحسب.

توقف ذو - الناب - الأبيض عندما تعب - لم يستطع فعل شيء ولم يفهم ما يجري - فلم يحصل أبداً في أي من قتالاته أن مر بهذا الموقف بل كان الأمر عادة هجوم وجرح وهرب وهكذا.

استلقى على جانبه جزئيا يلهث بعد أن أحكم الخصم فكيه واتجه نحوه محاولاً قلبه على جانبه تماماً. قاوم واستطاع الشعور بالفكين يرتخيان قليلاً ثم يغيران موضعهما بحركة مضغ حتى جعلت كل حركة الفكين أقرب من حنجرته.

كانت طريقة تشيروكي تكمن بالتمسك بما استطاع وانتظار الفرصة ليقتنصها. وجائت تلك الفرصة حين بقي ذو - الناب - الأبيض هادئا أما إذا جاهد للخلاص فلم يفعل سوى التمسك. أما الأخير فلم يستطع الوصول إلا إلى الجزء المنتفخ من رقبة تشيروكي لذا أغلق فكيه حول أسفل الرقبة حيث التقت بالفكين لكنه لم يعرف طريقة المضغ في القتال ولم يهيئ فكيه للأمر فقد اعتاد التمزيق والجرح بشكل متقطع وحسب.

تغير الموقع واستطاع تشيروكي قلبه ليرزح فوقه متشبثا بحنجرته. ومثل قط عقص ذو - الناب - الأبيض طرفيه الأماميين وبدأ مهاجمة معدة الكلب فوقه بمخالبه بضربات خبيرة. وربما لاستطاع تمزيق أحشائه لولا تغيير الوضعية بسرعة. فتمكن الكلب الأقصر من النهوض عن جسده وتغيير زاويته وبدا أن لا مهرب من القبضة كما لو كانت القدر الذي لا يمكن الخلاص منه.

حرك تشيروكي فكيه ببطء ليصل إلى الوريد الوداجي. لم ينقذ ذا - الناب - الأبيض إلا الجلد المرتخي حول رقبته والفرو السميك الذي غطاه والذي شكل عائقا في فم تشيروكي. كلما سنحت الفرصة مضغ الكلب القصير كمية أكبرمن الجلد والفرو

واحتفظ بها في فمه فكان ذو - الناب - الأبيض يختنق شيئاً فشيئاً وأصبح يتنفس بصعوبة مع كل لحظة.

بدا أن المعركة على وشك الآنتهاء فابتهج المراهنون على تشيروكي وزادوا رهاناتهم بسخاء بينما حزن المراهنون على ذي - الناب - الأبيض ورفضوا المرهانات الكبيرة مثل عشرة لواحد أو عشرون لواحد.

رغم ذلك تعجل رجل واحد وقبل رهاناً بقيمة خمسين لواحد. بعد أن فعل ذلك تقرب الجميل من الحلبة وأشار بإصبعه نحو ذي - الناب - الأبيض ثم بدأ يضحك بسخرية وتهكم ونتج عن هذا التأثير المطلوب فأصبح كلبه كالمجنون من شدة الغضب واستعاد مخزون قوته وتمكن من النهوض على أقدامه بينما صارع حول الحلبة يسحب الوزن المعلق في حنجرته مارا بنوبة هلع أفقدته حكمته مرة أخرى. واطاع ذكائه رغبة جسده بالحياة مستمراً بالجري في دائرة يتعثر ويقع وينهض حتى يرتفع على أطرافه الخلفية ويرفع عدوه عن الأرض تماماً يعاني دون جدوى لإبعاد الموت المتشبث به.

أخيراً سقط متعثرا إلى الوراء ومنهكا فغير تشيروكي قبضة فكيه متقربا وماضغا الفرو والجلد ليخنق خصمه أكثر فأكثر. وصدرت صرخات مشجعة للفائز وردد اسم تشيروكي الذي هز ذيله بحماس لكن الهياج الحاصل لم يشتت تركيزه ولم يكن هناك علاقة بين إهتزاز ذيله القصير وضغط فكيه على حنجرة ذي - الناب - الأبيض.

في هذا الوقت لفت شيء أنظار الجمهور. كان هناك رنين أجراس قادم وصرخات سائقي مزاليج فبدا الجميع مترقباً خوفاً من ظهور الشرطة عدا الجميل. ثم جاء من أعلى الطريق وليس من أسفله رجلان يقودان مزلاج وكلاب وكان من الواضح أنهما قادمان من رحلة تنقيب عبر الجدول.

عند رؤية التجمع أوقف الرجلان الكلاب وتقدما لمشاهدة سبب الحماس. كان أحدهما يملك شاربا بينما الآخر شابا أطول منه حليق الوجه وكانت وجنتاهما وردية من الدم المتحرك بهما بعد الركض وسط الهواء المحمل بالصقيع.

توقف ذو - الناب - الأبيض عن المقاومة تماماً تقريباً عدا مرات قليلة من المقاومة المتقطعة. لم يستطع الحصول على ما يكفي من الهواء وأصبح ذلك أقل وأقل تحت القبضة التي لا ترحم. ورغم الفراء الذي يحميه كان وريده لمزق الآن لولا أن هجوم تشيروكي الأول كان في مكان واطئ أقرب إلى الصدر فأخذ الأخير وقتاً طويلاً لتغيير مكان فكيه وملئت العملية فمه بالفراء وطبقات الجلد.

في الوقت الحالي سيطر جنون الجميل المتوحش عليه وتحكم في عقله ذي الرجاحة القليلة في أحسن الاحوال. فعند رؤيته كلبه يتراخى علم أنه خسر القتال وفقد أعصابه فقفز نحوه وبدأ بركله بوحشية.

كان هناك صراخ وصفير إستهجان من الجمهور لكن أحدا لم يتدخل. بينما استمر الجميل بضرب كلبه حصلت جلبة بين الجمهور فقد كان القادم الجديد الطويل يمشي

بينهم دافعا الآخرين بكتفيه يمينا ويسارا دون لباقة أو لطف وعندما وصل الحلبة كان الجميل يقف غير متوازن بوزنه على قدم واحدة بينما يستعد لتسديد ركلة أخرى للكلب. وفي اللحظة سدد له القادم الجديد لكمة فضربه على وجهه لتغادر قدمه الأرض ويحلق جسده في الهواء قبل أن يسقط على الثلج.

صرخ الغريب،

- «أيها الجبناء! أيها الوحوش!»

كان في نوبة غضب إلا أنه غضب عاقل وبدت عيناه الرمادية تلمع كالمعدن بينما تحدق بالجمهور.

نهض الجميل وتقدم نحو الرجل متباكيا لكن القادم الجديد لم يفهم قصده ولم يدرك أن الواقف أمامه جبان خسيس بل ظن أنه يستعد لقتاله فسدد له لكمة أخرى وناداه - وحش - ليقع الجميل مرة أخرى ويقرر هذه المرة أن الثلج أمن مكان فلم ينهض بعد.

نادى القادم على سائق المزلاج،

- «تعال يا مات وساعدني»

إنحنيا قرب الكلبين ثم أمسك مات بذي - الناب - الأبيض واستعد لسحبه فور أن يفتح فكي تشيروكي بينما حاول الرجل الآخر فتح الفكين بإمساكهما في يديه ومحاولة فصلهما عن بعض لكنه لم ينجح. كان يصرخ مع كل حركة وجهد كلمة - وحوش ــ.

بدأ الجمهور يتذمر واعترض بعضهم على مقاطعة العرض لكن الغريب أخرسهم بنظرة منه قبل أن يعود لعمله قائلاً:

- «يالكم من وحوش لعينة»

أخيراً قال سائق المزلاج،

- «لا فائدة يا سيد سكوت. لن تستطيع فتحهما بهذه الطريقة»

توقف الرجلان وتفحصا الكلبان المشتبكان.

قال مات ملاحظاً،

- «نزيفه ليس حاداً. هذا يعني أن ناب البولودوغ لم يغرز في الوريد تماماً بعد»

- «لكن الأمر سيحدث في أي لحظة»

أجاب ويدون - سكوت وأضاف،

«هل رأيت ما حصل؟ لقد قرب قبضته لتوه»

كان قلق الرجل بشأن ذي - الناب - الأبيض يزداد فضرب تشيروكي على رأسه عدة مرات لكن تشيروكي استمر بوضعيته هازا ذيله القصير كمن يقول أنه يفهم سبب الضرب لكنه يدرك أنه يؤدي مهمته وحسب.

صرخ ويدون - سكوت بيأس نحو الجمهور،

- «ألن يساعدني أحدكم؟»

لم يقدم أحد المساعدة بل أن بعض الجمهور بدأ يسخر منه ويلقي الدعابات.

أخيراً قال مات،

- «عليك أن تجد طريقة أخرى»

مد ويدون - سكوت يده نحو جراب مسدسه وأخرج السلاح ثم بدأ بدفع فوهة المسدس بين فكي تشيروكي بقوة حتى سمع صرير المعدن على الأسنان بوضوح.

كان الرجلان ينحنيان على ركبهما عند الكلبين عندما دخل تِم - كينان الحلبة وتوقف قرب سكوت واضعا يده على كتفه قائلاً:

- «لا تكسر أسنانه أيها الغريب»

رد ويدون - سكوت،

- «سأكسر رقبته إذا»

واستمر بالدفع محاولاً ادخال الفوهة.

قال التاجر بلهجة أكثر حدة،

- «قلت لك لا تكسر أسنانه»

لو كان تم - كينان ينوي إطلاق تهديد فقد فشل. لم يتوقف الأخير عن عمله بل نظر ببرود للتاجر وسأله،

- «هل هذا كلبك؟»

أجاب تم كينان إيجابا بهمهمة صغيرة. فأضاف،

«إذا تعال وافتح فكيه»

تشدق التاجر بإزعاج،

- «عليك أن تعرف أنني لم أتعلم فعل ذلك. لا أعرف كيف أعكس الخدعة»

- «إذا ابتعد عن طريقي ولا تزعجني فأنا مشغول»

استمر تم - كينان بالوقوف قرب الرجل الغريب لكن الآخر لم يلقي بالا له. لقد استطاع دفع الفوهة بين الفكين على أحد الجانبين وكان يحاول دفعها للجانب الآخر. بينما سحب مات رقبة ذي - الناب - الأبيض المهترئة ببطء.

أمر ويدون - سكوت مالك تشيروكي،

- «إنتظر حتى تستلم كلبك»

انحنى التاجر مطيعا وأمسك بتشيروكي بإحكام حتى قيل له أخيراً،

«الآن!»

فصل الكلبان عن بعضهما وتصارع البولودوغ بهياج. ثم سحب مات ذا - الناب - الأبيض نحو الجمهور بأمر من ويدون - سكوت.

حاول ذو - الناب - الأبيض النهوض عدة مرات لكنه فشل. رغم وقوفه على أقدامه مرة إلا أن أطرافه لم تتحمل وزن جسده فتأرجح ووقع على الثلج بعينين نصف مغلقتين لامعتين وفكين مفتوحين بينما يتدلى اللسان خارجا مرتخ. بدا ككلب خنق حتى الموت تقريباً.

تفحصه مات وأعلن،

- «أنه على وشك الموت. لكنه ما زال يتنفس»

نهض الجميل وجاء ليلقي نظرة عليه. حينها سأل ويدون - سكوت مساعده،

- «كم يكلف كلب مزلاج جيد يا مات؟»

فكر مات قليلاً وهو على ركبتيه ثم قال:

- «ثلاثمئة دولار»

سأل مجدداً مشيراً لذي - الناب - الأبيض بقدمه:

- «وماذا عن كلب معضعض كهذا؟»

- «نصف المبلغ»

استدار ويدون - سكوت نحو الجميل وقال،

«- هل سمعت يا سيد وحش؟ سوف آخذ كلبك وأعطيك مائة وخمسين دولاراً»

ثم فتح محفظته وعد الأوراق النقدية. وضع الجميل يديه خلف ظهره ورفض أخذ المال قائلاً:

- «أنه ليس للبيع»

- «بلى وأنا سوف أشتريه. ها هو مالك. أصبح الكلب ملكاً لي»

بدأ الجميل يتراجع ويديه خلف ظهره فقفز ويدون - سكوت نحوه مجهزاً قبضة يده. انحنى الجبان خائفاً ونشج قائلاً:

- «لديّ حقوق»

أجاب ويدون - سكوت:

- «لقد إنتهكت حقك لامتلاك هذا الكلب. هل ستأخذ المال أم عليّ ضربك مجدداً؟»

رد الجميل بسرعة من الخوف،

- «حسناً سوف آخذ المال وأنا معترض. فالكلب قيّم ولا أرضى بسرقته هكذا. للمرء حقوق»

أجاب الغريب مسلما المال له،

- «نعم للمرء حقوق ولكنك لست سوى وحش»

- «إنتظر حتى أعود إلى داوسون. سوف أحاكمك بالقانون وقتها»

- «إذا نبست بكلمة حين تعود إلى داوسون فسأجعلك تطرد من المدينة. فهمت؟»

همهم الجميل ردا فكرر الآخر مهددا،

«هل فهمت؟»

أجاب الجميل متراجع إلى الخلف،

- «نعم»

- «نعم يا ماذا؟»

- «نعم يا سيدي»

صرخ أحد الجمهور،

- «إحذر سوف يعضك!»

فتعالت الضحكات الساخرة.

أدار ويدون - سكوت ظهره وذهب لمساعدة مات الذي بقي قرب ذي - الناب - الأبيض. كان قد بدأ بعض الرجال بمغادرة المكان بينما تجمع آخرون بمجموعات يتحدثون.

إنضم تم كينان إلى مجموعة وسأل:

- «من هذا المغفل؟»

أجاب أحدهم:

- «أنه يدعى ويدون - سكوت»

سأل التاجر مجدداً،

- «ومن يكون ويدون - سكوت بحق الجحيم؟»

- «واحد من خبراء التنقيب الحمقى. أنه على علاقة بالمسؤولين الكبار. إذا أردت الابتعاد عن المشاكل فأنصحك بالبقاء بعيداً عنه. أنه مقرب جداً من المسؤولين حتى أن مفوض الذهب نفسه صديق له»

علق التاجر،

- «عرفت أنه لابد وأن يكون شخصا مهما. ولهذا لم أضربه منذ البداية»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

- 5 -

الذي لا يقهر

قال ويدون - سكوت معترفا،

- «أنه أمر ميؤوس منه»

كان يجلس على سلم مقصورته ويحدق بمات الذي أجاب برفع كتفيه مشيراً لأنه لا يملك أملاً بدوره. نظرا معاً إلى ذي - الناب - الأبيض في نهاية سلسلته الطويلة يتذمر ويزمجر محاولاً الوصول إلى كلاب المزلاج والتي تلقت دروس متعددة من مات بواسطة المضرب حتى تعلمت البقاء بعيدة متغافلة عن وجوده.

أعلن ويدون - سكوت:

- «إنه ذئب ولا يمكن ترويضه»

اعترض مات بالقول:

- «لا أعلم.. ربما هناك كلب في جزء كبير منه لكن هناك شيئاً واحداً فقط أعرفه»

توقف وأومأ برأسه بثقة نحو جبل موس - هايد. وبعد قليل من الانتظار قال ويدون - سكوت بحدة:

- «لا تبخل عليّ بمعرفتك. هيا تحدث»

أشار سائق المزلاج بإبهامه نحو ذي - الناب - الأبيض وقال،

- «لا يهم إن كان ذئباً أو كلباً. لقد تم ترويضه من قبل»

- «لا!»

- «نعم صدقني وربط بضفيرة ليقود مزلاج. إنظر عن كثب للآثار على صدره»

- «أنت محق يا مات. لقد عمل ككلب مزلاج قبل أن يحصل عليه الجميل»

- «ولا شيء يمنع أن يصبح كلب مزلاج مرة أخرى»

تساءل ويدون - سكوت بحماس،

- «أتعتقد ذلك حقا؟»

ثم هز رأسه دون أمل وأضاف،

«لقد امتلكناه لإسبوعين. وقد أصبح أكثر وحشية من أي وقت مضى»

نصحه مات قائلاً:

- «إمنحه فرصة. لنطلق سراحه ونرى»

نظر إليه الآخر بشك فأضاف،

«أعرف أنك حاولت لكنك لم تكن تحمل مضربا»

- «إفعل أنت الأمر إذا»

حمل سائق المزلاج مضربا واتجه نحو الحيوان المقيد بالسلسلة. وراقب ذو - الناب - الأبيض المضرب كما يراقب أسد السوط في يد مدربه.

قال مات أخيراً:

- «انظر كيف يراقب المضرب. لن يهاجمني طالما أحمله في يدي. أنه ليس مجنونا»

عندما وصلت يد الرجل لرقبة ذي - الناب - الأبيض زمجر الأخير وتذمر ثم انحنى إلى الأسفل لكن بينما يراقب اليد التي تقترب منه تتبع المضرب المعلق مهدداً باليد الأخرى.

نزع مات السلسلة عن الطوق وتراجع إلى الوراء. وهنا بالكاد استطاع ذو - الناب - الأبيض إدراك حريته فقد مرت أشهر منذ أصبح ملكا للجميل وطوال تلك الفترة لم يعرف لحظة حرية عدا المرات التي أطلق فيها سراحه لخوض نزال. ثم أعيد إلى القفص. لذا لم يفهم ما يجري الآن واعتقد أن الآلهة تستعد لإرسال خصم آخر لقتاله.

لم يعرف ماذا يفعل لأنه كان أمرا غير مسبوقا فظل يراقب الإلهين بحذر محاولاً الابتعاد عن طريقهما ومشى بحذر نحو زاوية المقصورة. حين لم يحدث شيء زاد هذا حيرته فعاد وتوقف على بعد دزينة من الأقدام عن الرجلين.

سأل مالكه الجديد فجأة،

- «ألن يهرب؟»

رفع مات كتفيه وقال،

- «عليك أن تخوض مراهنة وتكتشف الأمر»

غمغم ويدون - سكوت بشفقة،

- «ياله من حيوان مسكين. أنه يحتاج إلى بعض العطف الإنساني وحسب»

ثم استدار وعاد إلى المقصورة ليخرج قطعة لحم ويرميها نحو ذي - الناب - الأبيض.

قفز الأخير مبتعداً وراقب القطعة بشك.

صرخ مات محذراً:

- «كن حذراً يا مايجور»

لكن الأوان كان قد فات فقد قفز الكلب مايجور نحو قطعة اللحم. وفي اللحظة التي أغلق فكيه عليها هاجمه ذو - الناب - الأبيض فطار في الهواء ووقع على أقدامه نازفاً من حنجرته ومكونا بقعة حمراء واسعة على الثلج.

قال ويدون - سكوت بسرعة:

- «لقد استحق ما حصل له»

لكن مات رفع قدمه ليبدأ بضرب المعتدي. كان هناك زمجرة وقفزة وأسنان تلمع تلتها صرخة عالية. زمجر الحيوان بعنف وتراجع إلى الوراء وانحنى مات لتفحص قدمه ثم أعلن مشيراً إلى بنطاله الممزق وبقعة الدم التي تكبر،

- «لقد نال مني»

قال ويدون - سكوت بشيء من اليأس،

- «أخبرتك أن الأمر غير ممكن. لم يعد لدينا خيار»

ثم سحب مسدسه وفتح اسطوانة العيارات ليتحقق من محتواها. اعترض مات قائلاً:

- «أنظر يا سيد سكوت.. لقد مر هذا الكلب بحياة أشبه بالجحيم. لا يمكن أن يخرج منها جيداً كملاك. علينا منحه بعض الوقت»

قال الآخر غاضبا،

- «أنظر إلى ما فعله بمايجور»

تفحص مات الكلب المهزوم على الثلج في بقعة دمه يسحب نفسه الأخير. ثم قال،

- «استحق ذلك. لقد قلت ذلك بدورك يا سيد سكوت. فقد حاول تناول قطعته ومات جراء فعلته وهذا الأمر متوقع. من يرغب بكلب لا يدافع عن لحمه؟»

- «لكن أنظر إلى نفسك يا مات. لا بأس إذا هاجم الكلاب لكن علينا أن نضع حدا للأمر»

جادل مات بعناد،

- «لقد استحققت ما حصل لي. لماذا حاولت ضربه؟ لقد قلت بنفسك أنه فعل الصواب لذا لم يكن لي الحق بضربه»

أصر ويدون - سكوت،

- «سيكون من الرحمة قتله. لا يمكن ترويضه»

- «لكن يا سيد سكوت عليك اعطاء المسكين فرصة للقتال ولم يحصل عليها بعد. لقد مر بالكثير وهذه أول مرة يطلق سراحه. إذا لم يتصرف جيداً سأقتله بنفسي»

أجاب ويدون - سكوت،

- «الرب يعلم أنني لا أريد قتله. سوف نتركه لفترة ونرى ما سيفعله العطف له. لنمنحه الفرصة»

ثم أعاد المسدس إلى جرابه ومشى نحو ذي - الناب - الأبيض يتحدث إليه بعطف ورقة. حذره مات بالقول،

- «من الأفضل أن تحمل مضربا»

هز ويدون - سكوت رأسه واستمر محاولاً الحصول على ثقة الكلب.

كان ذو - الناب - الأبيض شكاكا من أن شيئاً على وشك الحدوث فقد قتل كلب إلهه وعض رفيقه ولم يتوقع من ذلك سوى العقاب لكن كان في وجهه تعبير لا يقهر بينما يتذمر ويظهر أسنانه وعيناه متيقظة وكل جسده حذر ومستعد لأي شيء.

لم يملك الإله مضربا لذا سمح له بالاقتراب. وحين اقتربت يد الإله من رأسه انحنى بتوتر وقلص جسده متوقعا خطر وخيانة من نوع ما. لقد عرف أيادي الآلهة وسيادتها المثبتة وأذيتها الماكرة فزمجر وانحنى أكثر بينما استمرت اليد بالاقتراب. لم يريد عض اليد فتحمل الخطر المحدق حتى دفعته غريزته وسيطرت عليه رغبته بالحياة.

أثبت ويدون - سكوت من قبل سرعته لتجنب العض والجرح. لكنه كان على وشك تعلم سرعة ذي - الناب - الأبيض المذهلة فقد هاجمه بسرعة وثقة كثعبان ليتركه يصرخ بحدة ممسكاً بيده الجريحة بيده الأخرى.

شتم مات وقفز إلى جانب رئيسه ثم انحنى الكلب متراجعا ومزمجراً بأنياب ظاهرة وعينان مليئة بالشر والحقد متوقعا أن يتم ضربه أقوى من أي مرة سابقة.

صرخ ويدون - سكوت فجأة،

- «ماذا تفعل؟»

ركض مات إلى المقصورة ليعود حاملاً بندقية ويقول ببطء وهدوء لا مبالي،

- «لا شيء. سأحتفظ بوعدي وحسب. أعتقد أن عليّ قتله الآن»

- «لا لن تفعل»

- «بلى»

كما دافع مات عن ذي - الناب - الأبيض فعل ويدون - سكوت الآن بالقول:

- «لقد قلت إن علينا منح الحيوان فرصة وهذا ما سنفعله. لقد بدأنا للتو ولا يجب أن نستسلم منذ البداية. لقد استحققت ما فعله لي وانظر لما يفعل الآن»

قرب المقصورة وعلى بعد اربعين قدم كان ذو - الناب - الأبيض يزمجر بوحشية ليس نحو ويدون - سكوت بل نحو سائق المزلاج.

قال مات متعجبا،

- «يا إلهي أنه يستمر بمفاجئتي»

أكمل ويدون - سكوت بسرعة،

- «أنه يستيطع التعرف على الأسلحة. علينا أن نمنح ذكاءه فرصة. أخفض سلاحك»

- «حسناً سأفعل»

قال مات خافضا البندقية وبدهشة أضاف،

«أنظر لما يفعل الآن!»

هدأ ذو - الناب - الأبيض وتوقف عن الزمجرة. فقال مات مجدداً،

«أنه شيء يستحق الملاحظة حقا»

ثم مد يده إلى إلى البندقية ليزمجر الحيوان في الوقت نفسه وحين ابتعد عن السلاح غطا شفتيه بأسنانه.

حمل مات البندقية ليرفعها إلى كتفه وقال،

- «مرة أخيرة للمرح»

بدأت الزمجرة مع الحركة وازدادت حين وصلت إلى ذروتها لكن في اللحظة قبل أن تصبح البندقية على مستوى معه قفز الحيوان إلى الجانب واختبئ قرب زاوية المقصورة. فوقف مات يحدق في الفراغ حيث وضع البندقية على الأرض. ثم استدار نحو رئيسه وقال،

- «أتفق معك يا سيد سكوت. هذا الكلب ذكي للغاية ولا يجب قتله»

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-6-

السيد المُحب

راقب ذو - الناب - الأبيض تقرب ويدون - سكوت منه وزمجر متذمرا ومعلناً عن عدم نيته الاستسلام للعقاب. كانت قد مرت أربع وعشرون ساعة منذ جرح يد إلهه لكن الأخير حملها مضمدة على جانبه لمنع النزيف.

في الماضي اختبر العقاب المؤجل وترقب حصوله هذه المرة. كيف لا يحصل ذلك؟ لقد إنتهك مقدس وغرس أسنانه في جسد إله أبيض متفوق. في طبيعة الأمور وتعامل الكلاب انتظره شيء سيء.

جلس الاله على بعد أقدام منه ولم يفعل شيئاً - عندما أنزلت الالهة العقاب وقفت على أقدامها - كما أنه لم يحمل مضربا أو سوط او سلاحا ناري. وعلاوة على ذلك كان حرا فلم يربط بسلسلة مما يعني أنه سيتمكن من الهرب إلى بر الامان قبل أن ينهض الإله لكن للوقت الراهن سينتظر ويرى.

بقي الإله هادئا ولم يقم بأي حركة فهدأت زمجرته حتى اختفت. ثم تحدث الاله وعند سماع صوته انتصب الشعر على رقبته وزمجر. لكن الإله لم يقم بحركة عدائية وبقي هادئا حتى توازنت زمجرته مع حركة الرجل كحديث بين الصوت والزمجرة.

تحدث الإله بدون انقطاع بطريقة لم يتحدث بها أحد من قبل وبهدوء وعطف مس مشاعره بطريقة ما. رغم نفسه وحواسه المترقبة بدأ يثق بالاله الجديد. كان هناك شعور بالامان لم يناسب تجاربه مع البشر.

بعد فترة طويلة نهض الإله ودخل المقصورة ثم خرج ولم يكن يحمل سلاحا. ترقب اللكب بحذر ورآه لا يخبئ يده المجروحة خلف ظهره بل يحمل قطعة لحم صغيرة. إنتضبت اذنيه وراقب بحذر مستعدا لاي حركة بجسد متوتر ومستعد. مع ذلك تأخر العقاب.

حمل الاله قطعة اللحم قرب أنفه. لم يكن هناك شيء سيء في القطعة لكن شكه لم يزول ورغم عرض اللحم بدفعات صغيرة إلا انه رفض لمسه. كانت الآلهة حكيمة وربما خبئ هذا الإله خيانة ما خلف المظهر المسالم. في تجاربه السابقة خصوصاً عند التعامل مع نساء الهنود كان اللحم والعقاب مرتبطان بشكل كارثي.

في النهاية رمى الإله اللحم على الثلج عند أقدامه. تشمم اللحم بحذر دون ان يحول نظره عنه لكن شيئاً لم يحدث. كان الاله يقدم له قطعة أخرى ورفض مرة أخرى اخذها من يده فرماها الإله وتكرر الأمر عدة مرات.

في وقت ما عندما رفض الإله رمي القطعة وابقاها في يده عارضها عليه تقدم من اليد بحذر بالغ وببطء لانه كان جائعا وكان لحماً جيداً. أخيراً جاء الوقت الذي قرر فيه تناول اللحم من اليد دون إبعاد نظره عن الاله بل قدم رأسه واذناه محنية إلى

الوراء وشعره منتصب على رقبته كما صدر هرير في حنجرته كتحذير إلا يجب التقليل من شأنه.

تناول اللحم ولم يحدث شيئاً. قطعة بعد قطعة تناول كل اللحم ولم يحدث شيء لكن العقاب تأخر. لعق اطرافه وانتظر يستمع لحديث الاله. كان هناك عطف في صوته وهو شيء لم يختبره من قبل وشعر بامور لم يشعر بها واع لرضى غريب كما لو أن حاجة ما او فراغ في روحه يملئ. ثم عاد شعوره الغريزي وتحذير التجارب القديمة فالالهة بارعة وتملك طرق لا يمكن التكهن بها للوصول إلى غاياتها.

رفع الإله يده وقربها من رأسه - يده الماكرة المستعدة للأذى - مستمراً بالحديث بصوت رقيق ومريح. رغم اليد الشريرة بنى الصوت ثقة ورغم الصوت ذي الثقة مثلت اليد خطرا. فسكنته مشاعر ودوافع متضاربة وبدى انه يتمزق لاشلاء.

كانت السيطرة تزداد عليه يربطها عدم قدرة على اتخاذ القرار وقوى متناقضة عانت في داخله للسيادة. اختار حلا وسطيا أخيراً فزمجر وسطح اذنيه لكنه لم يعض او يقفز هاربا. هبطت اليد اقرب واقرب حتى مسدت شعره المنتصب وانحنى تحتها بينما تتبعه تدريجياً.

إرتجف تقريباً لكنه تمكن من البقاء محله. كان يتعذب من تلك اليد التي مسته وانتهكت غريزته فلم يستطع نسيان كل الشرور التي وقعت به من أيادي البشر خلال يوم واحد لكنها كانت رغبة الإله واراد ارضائها.

ارتفعت اليد وهبطت مرة أخرى تداعبه وتعطف عليه. وكلما تكررت الحركة انتصب شعره مع ارتفاعها وبسطت اذناه مع هبوطها وصدرت زمجرة من حنجرته بتحذير ملح. وبهذه الطريقة عبر عن قدرته على رد أي أذى ولم يستطع معرفة هدف الاله الخفي ففي أي لحظة قد يتحول هذا الصوت الرقيق المثير للثقة إلى زمجرة غاضبة وتتحول اليد العطوفة إلى قبضة كالشر لتمسك به عاجزا وتنزل عليه العقاب لكن الإله استمر يتحدث برقة واستمرت اليد بالصعود والنزول والتربيت بسلام بينما تعصف به مشاعر مختلطة. أزعجه الأمر غريزيا فقد قيده ضد رغبته بالحرية الشخصية ومع ذلك لم تكن حركة مؤلمة جسديا بل على العكس كانت مريحة بشكل غريب.

تغيرت الحركة ببطء وحذر إلى تمسيد لقاعدة الأذنين وازدادت المتعة قليلاً لكنه ظل خائفاً مترقباً الشر غير المحسوب. يعاني ويستمتع تباعاً كلما تسيد أحد الشعورين على الآخر.

فجأة خرج مات رافعاً أكمام قميصه وحاملاً وعاء ماء قذر بين يديه. حين رأى ما يجري قال:

- «حسناً إنك تستمر بصدمتي»

متوقفا وسط عملية تفريغ الوعاء لرؤية ما يجري.

في اللحظة التي كسر فيها صوت مات الصمت قفز الحيوان إلى الخلف مزمجراً بعنف فنظر الرجل إلى رئيسه بعدم موافقة حزينة ثم قال،

- «إذا لم تمانع قولي التالي يا سيد سكوت، أنك أحمق حقا»

إبتسم سكوت بتفاخر ووقف على قدميه واتجه نحو الحيوان يتحدث بعطف اليه لكن ليس لفترة طويلة ثم مد يده ببطء ووضعها على رأسه وواصل تربيته.

تحمل ذو - الناب - الأبيض الأمر مبقياً عينيه لا على الرجل الذي يربت عليه بل الرجل الواقف عند الباب.

قال سائق المزلاج متنبئاً:

- «قد تكون خبير تنقيب من الطراز الاول لكنك أضعت فرصة بالعمل في سيرك حين لم تهرب وتنضم لواحد في طفولتك»

زمجر الكلب مجدداً لسماع صوت الرجل لكنه لم يقفز هذه المرة من تحت اليد التي داعبته بلمسات طولية على رقبته ورأسه. كانت بداية النهاية لذي - الناب - الأبيض - نهاية حياته القديمة وعهد الكراهية - وبدء حياة غير متوقعة أكثر عدلاً.

لقد تطلبت هذه الحياة الكثير من التفكير والصبر من جانب ويدون - سكوت. وتطلبت من ذي - الناب - الأبيض ثورة لا أقل فقد كان عليه تجاهل كل غرائزه ودوافعه ومنطقه الذي يعارض الخبرة ويكذب الحياة ذاتها - الحياة التي عرفها لم تملك مكانا لما فعل الآن ــ. لقد هاجت ذكرياته ضد الافعال التي كان يهجرها الآن.

باختصار وبأخذ كل شيء بالاعتبار كان عليه تحقيق توجه أوسع بكثير مما فعل في الوقت الذي جاء به طوعا من البرية ليتقبل القندس - الأشيب سيدا له. في ذلك الوقت كان مجرد جرو طري لا شكل لصلصاله ومستعد ليد الظروف لتشكيله كيفما تشاء لكن الأمر اختلف الآن فقد شكلته الظروف بعمق وتحول للذئب المقاتل العنيف والذي لا يهزم ولا يحب ولا يُحب.

الوصول إلى التغيير ارتداد على الوجود. وعندما لم تعد مرونة الطفولة متاحة له وأصبح تكوينه قوياً ومعقداً جعل تشوهه وتعديله منه شيئاً فولاذياً وتشكلت بديهياته وجميع حواسه بقواعد معينة وحذر ورغبات وكره. مع ذلك كانت يد الظروف نفسها تقوده لهذا التوجه الاوسع الآن - ترقق العنيف فيه وتجعله أكثر عدلاً ــ.

كان ويدون - سكوت صاحب اليد في الواقع فقد وصل إلى اعماق طبيعته وولد للحياة إمكانات اختفت وكادت تموت بعطفه ومنها الحب الذي أخذ مكان الاعجاب الذي كان سابقاً أعلى مستوى حماس امتلكه ذو - الناب - الأبيض عند تعامله مع الالهة. لكن هذا الحب لم يتواجد في يوم واحد بل بدأ بالاعجاب ومنه تطور تدريجياً.

لم يهرب ذو - الناب - الأبيض رغم سماح الاله له بالبقاء طليقا لأنه اعجب بهذا الاله الجديد. كانت هذه الحياة طبعا أفضل من التي عاشها في قفص الجميل. وكان من الضروري أن يمتلك إلها فقد اعتادت طبيعته سيادة الإنسان وختم عليه إحتياجه للبشر يوم أدار ظهره للبرية وعاد زاحفا عند قدمي القندس - الأشيب ليتلقى العقاب

المتوقع. كما أؤكد عند عودته الثانية وتعذر استئصاله عند انتهاء المجاعة الطويلة وتوفر السمك في قرية الهنود.

وهكذا بسبب حاجته للإله ولأنه فضل ويدون - سكوت على الجميل بقي وأعلن عن ولائه بتولي مسؤولية حماية ممتلكات سيده. فمشى حول المقصورة بينما تنام كلاب المزلاج وقاتل أول زائر للمكان في ليلته الأولى ليبعد عنه بالمضرب. لكنه تعلم سريعاً التفريق بين اللصوص والرجال الشرفاء وفقا لطريقة مشيهم فالرجل الذي يصدر صوتاً ويمشي بشكل مباشر نحو الباب يتركه وشأنه رغم انه استمر بمراقبته حتى فتحت له الباب واسقبله سيده أما الذي مشى بحذر وسرية وطرق غريبة فكان ذلك رجل تلقى العدالة من فكي ذي - الناب - الأبيض الذي هاجمه دون مهابة.

حمل ويدون - سكوت على عاتقه مهمة تعويض ذي - الناب - الأبيض عما جرى له - أو الاصح تعويضه عن اخطاء ارتكبها البشر بحقه ـ. كانت مسألة ضمير ومبدأ فقد رأى أن كلما أصاب الحيوان على يد الإنسان دين يجب سداده لذا كان عطوفا بشكل استثنائي معه وربت عليه كل يوم لوقت طويل.

في البداية كان ذو - الناب - الأبيض شكاكاً وعدائياً لكنه اعتاد التربيت. رغم أنه لم يتوقف عن الزمجرة يوماً بل استمر بفعل ذلك من اللحظة التي بدأ فيها التربيت حتى النهاية لكن زمجرته حملت نغما جديداً. لم يسمع الغريب هذا النغم ولم يسمع في زمجرته سوى عرض وحشي بدائي يثير الاعصاب ويجعل الدم يغلي. فقد أصبحت حنجرته قاسية الاوتار عبر سنوات منذ أول نوبة غضب اختبرها في عرين طفولته ولم يستطع ترقيق الاوتار ليعبر عما يشعر به الآن لكن أذني وتعاطف ويدون - سكوت سمعت النغم الشبه غارق في العنف كاوطئ تلميح لدندنة حتى وان لم يستطع أحد سواه سماعها.

بمرور الأيام إكتمل تطور الاعجاب إلى حب وأصبح ذو - الناب - الأبيض أكثر وعيا بذلك. رغم انه لم يدرك معنى الحب إلا انه تجسد في فراغ في كيانه كجوع وتوق لأن يملئ كما لو أن الم وعدم ارتياح ما يتم إرضاءه فقط عندما يمسه حضور الاله الجديد.

في مثل تلك الأوقات كان الحب متعة له تثير الحماس لكن بابتعاده الاله عاد اليه الألم وعدم الراحة وتوسعت الهوة فيه وضغطت عليه بفراغها وحفر فيه الجوع دون توقف بينما يمر في عملية العثور على نفسه. ورغم النضوج بسنواته وصرامته الوحشية كانت طبيعته تمر بتوسع فحصل ازدهار لمشاعر غريبة فيه ودوافع غير معتادة. كان سلوكه يتغير.

في الماضي أعجبته الراحة وانعدام الأمل ولم يحب الألم وعدم الراحة وتصرف وفقا لذلك لكن الأمر اختلف الآن. بسبب شعوره الجديد اختار في الكثير من الاحيان الألم وعدم الراحة لمصلحة إلهه. وهكذا في الصباح الباكر بدل الاستكشاف والبحث عن الطعام فضل الاستلقاء في زاوية تحت الظل ينتظر لساعات على انحدار المقصورة لرؤية وجه إلهه. وفي المساء عندما عاد الاله إلى المنزل ترك مكان

نومه الدافئ الذي حفره في الثلج لتلقي لمسة اليد الودودة والتحية الدافئة. حتى اللحم نفسه تركه ليبقى مع إلهه لتلقي ملاطفة منه او مرافقته نحو المدينة.

استبدل الاعجاب بالحب وكان الحب كمسبار غاص في اغواره حيث لم يصل أي شعور من قبل. ومن اعماقه جاء ضد الرد العجيب - الحب - ما قدم له رده. كان هذا إلها حقاً - إله محب ودافئ ومشرق –.

توسعت طبيعته في نور إلهه الجديد كما تتفتح زهرة تحت الشمس لكنه لم يكن إيضاحي بالتعبير عن حبه فقد كان كبيرا بالسن وشكل صلصاله بعمق بحيث لا يمكن أن يعتاد التعبير عن نفسه بطرق جديدة. كان متملكاً لنفسه ومتزناً في وحدته ولوقت طويل صقل تحفظه وانعزاله وقنوطه. كما أنه لم ينبح في حياته ولم يستطع تعلم النباح الآن ليرحب بإلهه ولم يقف أبداً في الطريق منتظرا أو يفرط في التعبير عن حبه بالركض لاستقبال إلهه بل انتظر على مسافة منه لكنه انتظر دائماً ولم يغيب.

أخذ حبه شكل العبادة والهيام الاحمق الصامت الذي لا يفصح عنه سوى بتعبير نظرته الثاقبة وتتبع الاله بحركة عينيه.

أحياناً عندما نظر الاله اليه وتحدث معه خانه وعي غريب بسبب معاناة حبه لاظهار نفسه وعدم قدرته الجسدية على فعل ذلك لكنه تعلم تعديل نفسه بعدة طرق لحياته الجديدة. فتعلم ترك كلاب سيده وشأنها رغم أن طبيعته المسيطرة ألزمته بإجبارها على الاعتراف بتفوقه وقيادته اولا. وبعد ان فعل ذلك لم يملك مشكلة معها فقد تعلمت فسح الطريق له عندما جاء أو ذهب أو مشى بينها وطاعة رغبته.

بنفس الطريقة أصبح يتحمل مات كونه جزء من ممتلكات سيده. نادرا ما أطعمه سيده بنفسه بل أن مات من قام بذلك حسب وظيفته لكنه تكهن بأنه أكل طعام سيده وهو من وفره له بشكل غير مباشر.

حاول مات ربطه إلى المزلاج مع الكلاب الأخرى لكنه فشل في ذلك فوضع ويدون - سكوت الضفيرة على جسده بنفسه وحينها فهم الكلب أن رغبة سيده تكمن بأن يقوده مات للعمل مع الكلاب الأخرى.

كانت مزاليج كوندليك مختلفة عن مزاليج تويفانز لأنها امتلكت عجلات. واختلفت طريقة تنظيم الكلاب كذلك فلم يكن هناك الشكل الشبيه بالمروحة بل مشت بخط مستقيم متتابعة وبمجموعتين. وهنا كان القائد قائدا بالفعل فتبعه الفريق وخافه.

كان من المحتم أن يحصل ذو - الناب - الأبيض على القيادة فلم يرضى بأقل من ذلك. واعتاد مات الأمر رغم عدم إعجابه به فأخذ ذو - الناب - الأبيض الموقع وصرخ مات حكمه بلهجة قوية بعد أن جرب التشكيلة.

ورغم عمله في المزلاج نهارا لم يتخلى عن حماية ممتلكات سيده خلال المساء وبهذا عمل طوال الوقت.

قال مات يوماً لرئيسه،

- «علي أن أعترف أنك كنت حكيما جداً حين إشتريت هذا الكلب. لقد خدعت الجميل - سميث اضافة لضربك له»

تفشى الغضب في عيني ويدون - سكوت الرمادية مرة أخرى وقال بعنف،

- «ذلك الوحش»

في نهاية الربيع حصلت مشكلة لم يتوقعها ذو - الناب - الأبيض فقد اختفى سيده.

كان هناك تحذير لكنه لم يعرف طرق حياته الجديدة جيداً ولم يفهم معنى توضيب حقيبة السفر لكنه تذكر لاحقاًان التوضيب سبق اختفاء سيده وكيف أنه لم يشك بالأمر حين حصوله.

انتظر تلك الليلة عودة سيده حتى منتصف الليل حين دفعته الريح الباردة للاختباء خلف المقصورة. ثم نام بنصف اغفائة بينما تترقب أذناه اول صوت للخطوات المألوفة لكن في الثانية صباحاً دفعه القلق للخروج إلى المقدمة والجلوس منتظرا ومع ذلك لم يظهر السيد.

في الصباح فتحت الباب وخرج مات ليجده يحدق به بترقب. لم يكن هناك لغة مشتركة بينهما ليسأله عن حقيقة ما يجري.

مرت الأيام ولم يعد السيد. لم يعرف ذو - الناب - الأبيض في حياته المرض لكنه مرض الآن لدرجة ان مات اضطر لادخاله إلى المقصورة أخيراً وكتب لرئيسه يخبره عما حصل.

قرأ ويدون - سكوت في الرسالة بينما هو في مدينة سيركل ما يلي،

- «هذا الذئب الملعون يرفض العمل ولا يأكل ولم يعد يملك شجاعة لمقاومة الكلاب. يريد أن يعرف ماذا حصل لك ولا أعرف كيف أخبره. ربما سيموت»

توقف ذو - الناب - الأبيض عن الاكل وكسرت شوكة عزيمته وترك جميع الكلاب تهينه واستلقى في المقصورة على الأرض قرب نار الطهي ولم يهتم بالطعام أو مات أو الحياة ذاتها.

تحدث اليه مات بعطف أحياناً وبعصبية أحياناً أخرى لكنه لم يرد على أي من ذلك. ولم يقم بأي رد فعل سوى بالنظر نحوه ببرود ثم القاء رأسه على طرفيه الأماميين كعادته.

ذات ليلة بينما يقرأ مات بغمغمة واطئة لنفسه سمع زمجرة واطئة فاجأته ثم رأى ذا - الناب - الأبيض يقف على أقدامه ويصغي السمع نحو الباب. كان يستمع بحذر. وبعد لحظة سمع مات صوت خطوات ثم فتحت الباب ودخل ويدون - سكوت.

تصافح الرجلان ثم نظر ويدون - سكوت حوله وسأل،

- «أين الذئب؟»

ثم لاحظه يقف قرب قرب النار دون أن يتقدم كما تفعل الكلاب بل يراقب وينتظر.

صرخ مات،

- «يا إلهي. أنظر كيف يهز ذيله»

مشى ويدون - سكوت عبر الغرفة ونادى عليه. فجاء ذو - الناب - الأبيض نحوه بسرعة لكن دون أن يجري. كان هناك تعبير غريب في عينيه وشعور واسع لا يعرف كيف يوصله يلمع كالضوء فيهما.

علق مات قائلاً:

- «لم ينظر لي بتلك الطريقة أبداً عندما كنت مغادرا»

لم يستمع ويدون - سكوت لمساعده بل جلس القرفصاء واضعا وجهه قرب وجه الحيوان بينما يربت على رأسه ويمسد قاعدة أذنيه بحركات طولية بطيئة ويتلمس عموده الفقري برقة بباطن أصابعه.

زمجر ذو - الناب - الأبيض ردا عليه وبدى النغم المميز أوضح من أي وقت مضى. وشعر بمرح وحب كبير يعاني للتعبير عن نفسه حتى نجح أخيراً في إيجاد طريقة جديدة للتعبير عنه. وذلك بدفع رأسه إلى الأمام بين ذراعي سيده وجسده ليختفي رأسه عن النظر فيما عدا أذنيه ولم يعد يزمجر بل استمر باحتضان سيده.

نظر الرجلان لبعضهما وكانت عيني ويدون - سكوت تلمع.

قال مات بصوت مندهش،

- «يا إلهي!»

وأضاف بعد أن تجاوز الدهشة،

«لطالما أخبرتك أنه كلب وليس ذئب»

بعودة السيد المحب تعافى ذو - الناب - الأبيض بسرعة بعد قضاء يومين وليلة في المقصورة. حين خرج وجد أن كلاب المزلاج قد نسيت براعته وتذكرت فقط مرضه وضعفه الأخير فجائت عند رؤيته قافزة نحوه.

توقف مات عند المدخل يشاهد بمرح وقال،

- «آه لقد انتهت أيامك العصيبة. لقنها درسا أيها الذئب. هيا انطلق»

لم يكن بحاجة للتشجيع فقد كانت عودة سيده المحب كافية وكانت الحياة تنبض فيه بروعة وغزارة. قاتل للمرح ووجد في القتال تعبير عن شعوره الذي لم يصفه.

كان هناك نهاية واحدة ممكنة للقتال وهي تفرق المجموعة في هزيمة نكراء وتسللها إلى الخلف تباعاً حتى حلول الظلام مظهرة إذلالها وولائها له.

بعد أن تعلم الاحتضان كرر الأمر كثيرا. كان هذا الفعل الكلمة الفصل ولم يستطع الوصول لأبعد من ذلك. لطالما كان رأسه الشيء الوحيد الذي تجنب لمس أحد له فقد ولدت البرية والخوف من الأذى والفخاخ قلقا من إنزال شر به إذا ما كشف رأسه

وبهذا دفعته غريزته لأن يبقي رأسه طليقا. أما الآن مع السيد المحب كان الاحتضان تصرف يشير إلى وضع نفسه في موقع عجز تام - تعبير عن الثقة التامة والاستسلام الكامل - كما لو كان يقول،

- «أضع نفسي بين يديك ولك أن تفعل ما تشاء»

ذات ليلة بعد عودة السيد المحب جلس ويدون - سكوت ومات للعب البريدج قبل النوم. كان مات يعد،

«15 - 2، 15 - 4، وزوج يساوي ستة..»

حين سمع الاثنان صرخة عالية وزمجرة فنظرا لبعضهما ونهضا.

قال مات،

- «لقد أمسك الذئب بأحدهم»

صدرت صرخة أخرى مرعوبة فصرخ ويدون - سكوت بينما يهرع للخارج،

- «إجلب ضوءا معك»

تبعه مات حاملاً مصباحاً ورأى الرجلان رجل مستلق على ظهره في الثلج يرفع ذراعيه لتغطية وجهه وحنجرته. كان يحاول حماية نفسه من ذي - الناب - الأبيض ولم يكن هناك حاجة لذلك فقد كان الأخير يهاجم بمكر وغضب على أضعف نقطة من الكتف حتى الرسغ ممزقا أكمام معطفه وقميصه الأزرق بينما يجرح ذراعيه بشكل بالغ ليتركها تنزف بغزارة.

رأى الرجلان كل ذلك من أول نظرة وفي اللحظة التالية أمسك ويدون - سكوت بالحيوان من رقبته لجره بعيداً. صارع ذو - الناب - الأبيض وزمجر لكنه لم يعض ثم هدأ بسرعة عند سماع كلمة حادة من سيده.

ساعد مات الرجل على الوقوف ثم خفض الغريب ذراعيه ليظهر وجه الجميل - سميث القبيح. تركه مات فورا كما لو أنه وضع يده على جمر مشتعل بالخطأ.

رمش الجميل في الضوء ونظر حوله وبدا الرعب على وجهه فور أن رأى ذا - الناب - الأبيض. في اللحظة نفسها لاحظ مات غرضين على الثلج وحين تفحصهما تحت الضوء أشار بإصبع قدمه إلى الشيئين ليلاحظهما رئيسه. كانا سلسلة معدنية ومضرب قصير.

رأى سكوت وفهم ما يجري فأومأ ولم يقل أحد كلمة. ثم وضع مات يده على كتف الجميل ولفه نحو اليمين. لم يكن هناك حاجة للكلام فانطلق الأخير هاربا على الفور.

كان السيد المحب يربت على جسد كلبه ويتحدث إليه قائلاً:

- «حاول سرقتك صحيح؟ ولم ترضى بذلك بالطبع. حسناً لقد ارتكب خطأ أليس كذلك؟»

ضحك مات وقال،

- «لابد من أنه ظن أن سبعة عشر شيطانا يقاتله بدل كلب واحد»

وقف ذو - الناب - الأبيض يزمجر على مهل وانبسط شعره تدريجياً وعاد النغم إلى زمجرته وإن كان ضئيلا وواطئا في البداية لكنه كان ينمو في حنجرته.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

الجزء الخامس

-1-

الرحلة الطويلة

شعر ذو - الناب - الأبيض بالتغيير القادم قبل ظهور أدلة ملموسة عليه كما لو أنه شمه في الهواء وعلم باقترابه بطرق غريبة. لم يعرف كيف ولماذا لكنه شعر بقدومه على يد الآلهة وبطرق أكثر بساطة من طرق الآلهة التي أخفت نواياها عنه. فقد عاش خارج المقصورة وأدرك ما يجري رغم عدم دخوله إليها أبداً.

في أحد الأيام قال مات على العشاء متعجبا،

- «إستمع له يا سيد سكوت»

إستمع الرجلان لعواء واطئ قادم عبر الباب. تبعه صوت تنشق يطمئن به ذو - الناب - الأبيض نفسه لوجود إلهه في الداخل ولم يهرب بالطريقة الآنعزالية الغامضة كالمرة السابقة.

أضاف مات قائلاً:

«أنه يعرف بأنك على وشك المغادرة»

نظر ويدون - سكوت إلى سائق المزلاج بعينين متوسلتين رغم أن كلماته خالفت مشاعره الواضحة على وجهه حين قال،

- «ماذا سأفعل بذئب في كاليفورنيا بحق الإله؟»

أجاب مات،

- «هذا ما قلته بدوري. ماذا ستفعل بذئب كهذا في كاليفورنيا؟»

لكن ويدون - سكوت لم يبدو راضيا. فقد ظن أن رفيقه يحكم عليه دون أن يقل شيئاً فقال،

- «لن تمتلك كلاب الرجال البيض فرصة أمامه. سيقتلها فور أن يراها. هذا إذا ما لم يدمر أغراضي أولا ويجعلني أخسر كل ما لدي. سوف تقبض عليه السلطات وتعدمه»

علق مات ردا عليه،

- «أنه قاتل بالفطرة»

نظر رئيسه له مطولا وقال،

- «لن ينجح الأمر أبدا»

أعاد مات قول رئيسه،

- «لن ينجح الأمر أبداً. سيكون عليك تعيين شخص للاعتناء به»

أومأ ويدون - سكوت برأسه موافقاَ. ثم جلسا في صمت يستمعان للعواء الشبيه بالبكاء عبر الباب يتلوه التنشق الطويل حتى قال مات أخيراً،

- «أنه معجب بك كثيرا»

حدق به الآخر وقال بغضب،

- «اللعنة يا رجل. أعرف ما عليّ فعله»

- «وأنا أتفق معك لكن..»

- «لكن ماذا؟»

بدأ مات الحديث على مهل ثم غير رأيه. وقال مظهرا غضبه،

- «لا داعي لأن تغضب. بناءا على كلامك يبدو أنك لا تعرف ما تريد فعله»

فكر ويدون - سكوت لفترة ثم قال بصوت أرق،

- «أنك محق يا مات. لا أعرف ما أريد فعله وهنا تكمن المشكلة»

ثم أضاف بعد توقف قصير،

«سيكون من الحمق أخذ الكلب معي»

أجاب مات،

- «أتفق معك»

وأضاف بعد أن رأى تعبير سكوت غير الراضي،

«لكنه يعرف بأنك على وشك المغادرة وستسوء حالته مجدداً حينما تغادر»

أجاب ويدون - سكوت هازا رأسه كما لو أنه نادم،

- «لا أعرف يا مات»

جاء يوم رأى فيه ذو - الناب - الأبيض الحقيبة المميتة وسيده المحب يوضب أغراضه عبر الباب المفتوح. كما كان هناك زوار يدخلون المقصورة ويخرجون منها وعج المكان بأجواء مضطربة.

كانت تلك أدلة دامغة على ما عرفه بالفعل فأدرك أن إلهه على وشك المغادرة. وبما أنه لم يأخذه معه المرة السابقة فهذا يعني أنه سيتركه مرة أخرى.

تلك الليلة أطلق عواءه الطويل كما عوى أيام طفولته عندما غادر البرية عائداً إلى القرية ليجد أنها قد إختفت ولم يبقى سوى الآنقاض الدالة على مكان خيمة القندس - الأشيب. لذا وجه خطمه نحو النجوم الباردة وشكى لها أحزانه.

في المقصورة ذهب الرجلان إلى الفراش حين قال مات من سريره،

- «لقد إمتنع عن الطعام كما فعل سابقاً»

زمجر ويدون - سكوت متحركا تحت الغطاء. فأضاف مساعده،

«وفقا للطريقة التي تصرف بها المرة السابقة لن أستغرب أن يموت هذه المرة»

تحرك ويدون - سكوت منزعجا وصرخ عبر الظلام،

- «إخرس. أنك تشكو أكثر مما تفعل النساء»

أجاب مات،

- «أتفق معك بهذا»

لم يكن ويدون - سكوت متأكدا أن مات لم يضحك في سره.

في اليوم التالي بدا القلق على ذي - الناب - الأبيض أكثر من قبل. كلما خرج سيده تقرب منه واحتشد بين قدميه بينما ظل جالسا على عتبة المقصورة كلما دخل إليها. ورأى عبر الباب المفتوحة لمحات للحقائب على الأرض حيث إنضمت حقيبتين قماشيتين وصندوق إلى الحقيبة الأولى ولف مات غطاء سيده وفرائه بحزمة صغيرة.

إنتحب ذو - الناب - الأبيض وهو يشاهد العملية. ثم جاء اثنان من الهنود وحملا الأغراض تحت أنظاره ليقودهما مات عبر التل حاملاً الفراش والحقيبة لكن ذا - الناب - الأبيض لم يتبعهم فقد كان سيده في الداخل.

بعد فترة عاد مات وخرج السيد منادياً عليه فدخل إلى المقصورة حيث تحدث إليه سيده وهو يربت على أذنيه وظهره قائلاً:

- «سوف أقطع الرحلة الطويلة أيها الرفيق القديم ولن تستطيع مرافقتي. امنحني زمجرة أخيرة لتودعني»

لكنه رفض الزمجرة بل حدق بسيده طويلاً بدلاً من ذلك ثم وضع رأسه بين ذراعيه وجسده يحتضنه.

نادى مات:

- «ها هي الإشارة. عليك الإسراع بعد التأكد من قفل الباب الأمامية. سأخرج من الباب الخلفية. هيا الآن»

سمع صوت صافرة سفينة بخارية راسية في نهر يوكون. ثم أغلقت البابين في اللحظة نفسها وانتظر ويدون - سكوت مجيء مات إلى المقدمة بينما جاء صوت العواء والنحيب من الداخل متبوعا بالتنشق الطويل العميق.

قال سكوت بينما يمشيان عبر التل،

- «إعتني به جيداً واكتب لي عن حالته»

أجاب مات،

- «بالطبع سأفعل. لكن إستمع له»

توقف الرجلان يستمعان لعواء شبيه بنعي الكلاب عند وفاة أسيادها. عبر ذو - الناب - الأبيض عن حزن عميق وتعالت صرخته بدفعات تكسر القلب وتتحول تدريجياً لتعاسة ترتجف ثم تعلو مجدداً بحزن.

كانت سفينة أورورا أول سفينة تغادر المكان تلك السنة ولذا كانت مزدحمة بالركاب المغامرين والباحثين عن الذهب الفقراء. كلهم يتوقون للخروج من المكان الذي توقوا للوصول إليه بنفس الطريقة.

صافح ويدون - سكوت مات قرب سلم السفينة مستعداً للمغادرة لكن مات توقف وسط حركته فجأة وتوقف الآخر شاعرا بثقل يد مساعده في يده ورآه يحدق بشيء ما وراءه. أدار ويدون - سكوت رأسه ليرى ذا - الناب - الأبيض جالسا على بعد أقدام يشاهدهما.

شتم مات بلهجة مصدومة. لكن ويدون - سكوت لم يستطع سوى النظر بتعجب.

أخيراً سأل مات،

- «هل أقفلت الباب الأمامي؟»

أومأ سكوت إيجابا وسأل بدوره،

- «والخلفي؟»

- «بالطبع فعلت»

بسط ذو - الناب - الأبيض أذنيه بتملق لكنه لم يحاول التقدم. قال مات،

- «عليّ أن أرجعه»

واتجه نحو الكلب لكن الأخير هرب متسللاً بين سيقان مجموعة من الرجال وتجنب جهود مات للإمساك به بالدوران والعودة والتسلل. لكن عندما تحدث السيد المحب جاء نحوه بطاعة عمياء.

غمغم مات بعدم رضا،

- «لن يتقدم من اليد التي أطعمته لأشهر أما أنت فلم تطعمه سوى في الأيام القليلة بعد لقائكما. لا أعرف كيف يدرك أنك الرئيس وليس أنا»

انحنى ويدون - سكوت يربت على كلبه وأشار إلى جروح جديدة على خطمه وبين عينيه. مرر مات يده على معدة الكلب وقال،

- «لقد نسينا النافذة. تفقد جروح معدته. لابد من أنه قفز بجسده عبر النافذة. يا إلهي»

لم يستمع ويدون - سكوت لكلام موظفه. كانت صافرة السفينة تصدر إعلان أخير للمغادرة ويهرع الرجال على السلالم إلى سطح السفينة. فأرخى مات المنديل حول رقبته واتجه لربطه حول رقبة الكلب لكن ويدون - سكوت أمسك بيده وقال،

- «إلى اللقاء يا صديقي القديم. أما بالنسبة له فلا داعي لتكتب لي عنه»

تساءل مات متعجبا،

- «هل تعني..؟»

- «نعم. خذ منديلك وأنا من سيكتب لك عنه»

- «لن يتحمل المناخ الدافئ»

رفع السلم وبدأت السفينة تغادر الضفة فلوح سكوت مودعاً لمساعده ثم انحنى نحو ذي - الناب - الأبيض الذي وقف جانبه وقال:

- «هيا زمجر الآن أيها الملعون»

ممسدا الرأس المذعن ومربتاً على أذنيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-2-

المنطقة الجنوبية

وصل ذو - الناب - الأبيض مرعوباً على متن السفينة إلى مدينة سان - فرانسيسكو.

لطالما ربط القوة بالإلوهية في أعماقه دون أن يلجئ للمنطق إلا أن الآلهة البيض لم تبدوا أبداً بتلك القوة كما فعلت الآن بينما يمشي على الأرصفة المعبدة للمدينة. لقد إستبدلت المقصورات الخشبية التي عرفها بمباني عملاقة وكانت الشوارع مليئة بالخطر - عربات النقل والحافلات والسيارات وأحصنة عظيمة تجر بجهد عربات عملاقة - كأجراس وحشية تصم الآذان وترن حوله. بينما ارتفع صوت الشر المصر بطريقة حيوان الوشق الذي واجهه في براري الشمال. وكل ذلك جسد القوة التي كان الإنسان يحكم ويسيطر ويعبر عن نفسه عبرها كما فعل دائماً بسيادته على المادة.

كان كل شيء ضخماً ومذهلاً فشعر بالهلع والخوف يسكنه كما فعل في طفولته حين جاء من البرية إلى قرية القندس - الأشيب وشعر بضئالته وقلة حيلته. كذلك فعل الآن رغم ضخامته وفخره بقوته.

رأى آلهة كثيرة جداً مما أشعره بالدوار وفتن رعد الشوارع أذني. فاحتارتا بفعل الحركة العظيمة الدائمة للأشياء وشعر كما لم يفعل من قبل بضرورة إعتماده على السيد المحب لذا تبعه يمشي بالقرب من قدميه ولم يبعد نظره عنه مهما حصل. مع ذلك قدر له أن يحظى برؤية كابوسية للمدينة وتسيطر عليه تلك التجربة الأشبه بحلم سيء غير حقيقي وفظيع لوقت طويل لاحقاًفي أحلامه.

وضع في سيارة حمل على يد السيد وربط بسلسلة في زاوية وسط العربات المحملة بحقائب السفر. ثم قادها إلهه بني البشرة قصير القامة بضوضاء كبيرة بينما يرمي الحقائب والصناديق ويجرها عبر الباب ليضعها بلامبالاة بأكوام أو يرميها نحو الآلهة التي تنتظر.

هنا وسط جهنم الأمتعة حجزه السيد أو على الأقل هذا ما ظنه حتى شم رائحة الحقائب المألوفة جانبه وبدأ يحرسها.

زمجر إلهه العربة بعد ساعة حين ظهر ويدون - سكوت عند الباب قائلاً:

- «وأخيراً وصلت. لم يسمح لي كلبك بلمس أي من أغراضك»

خرج ذو - الناب - الأبيض مصدوما من السيارة فقد إختفت المدينة من حوله ولم يعد هيجانها يضرب على أذنيه. بدلا من ذلك أحاطه ريف مبتسم تغطيه أشعة الشمس والسكون الكسول لكنه لم يملك وقتاً كثيراً لتأمل التحول بل تقبله كما يتقبل جميع الأمور غير المحسوبة التي يقوم بها الآلهة. لقد كانت تلك طريقته.

كان هناك عربة تنتظر وتقدم رجل وامرأة من السيد. ثم رفعت المرأة ذراعيها ووضعتها حول رقبة السيد - بدا ذلك فعلا عدائي! -

في اللحظة التالية ابتعد ويدون - سكوت عن المرأة ليحتضن ذا - الناب - الأبيض الذي تحول لشيطان غاضب مزمجر وقال بينما يحكم قبضته علبه لتهدئته:

- «لا بأس يا أمي.. لقد ظن أنك على وشك إيذائي ولم يتحمل الأمر. لا بأس.. سيتعلم سريعاً»

قالت المرأة ضاحكة:

- «في الوقت الحالي سيسمح لي بالتعبير عن حبي لولدي عندما لا يكون كلبه في الجوار»

الا أنها كانت شاحبة وضعيفة من الخوف المفاجئ. نظرت إلى ذي - الناب - الأبيض الذي زمجر وحدق بها مهدداً بشعر منتصب. قال ويدون - سكوت،

- «عليه أن يتعلم وسيفعل بأسرع وقت»

ثم توجه بصوته الرقيق لذي - الناب - الأبيض حتى هدأ قبل أن يقول بصوت آمر،

- «اجلس.. اجلس الآن»

كانت تلك من الأوامر التي تعلمها ذو - الناب - الأبيض من سيده. لذا أطاع الأمر رغم أنه استلقى بممانعة وتجهم. قال ويدون - سكوت فاتحا ذراعيه لاحتضان والدته،

- «الآن يا أمي»

لكنه أبقى بصره على ذي - الناب - الأبيض وكرر قوله،

- «اجلس.. إجلس الآن»

تذمر ذو - الناب - الأبيض بصمت وجسد مثني بينما يحاول النهوض لكنه عاد للجلوس ورأى الفعل العدائي يتكرر. مع ذلك لم ينتج من الفعل أي أذى ولا من الحضن الذي أداه الإله الرجل بعد ذلك. ثم حملت الأمتعة على العربة وتبع الالهة الغرباء والسيد المحب وتبعهم بدوره راكضا بتيقض وموجها تحذيره للأحصنة في حال تجرأت على محاولة أذية السيد المحب.

بعد خمسة عشر دقيقة توقفت العربة بعد أن عبرت بوابة حجرية بين صفين من أشجار الجوز المحدبة والمتشابكة وإمتدت منطقة عشبية على الجانبين لمسافة طويلة لا تنقطع إلا بشجيرات البلوط ذات الفروع الرشيقة.

كان هناك حقول من القش اللامع الذهبي بالضد من العشب الأخضر اليافع على مسافة قريبة. وفي المسافة إمتدت التلال السمراء والمراعي الطبيعية. قبل بداية العشب وعند أول إرتفاع عن أرض الوادي كان المنزل ذو النوافذ العديدة والشرفات الواسعة.

لم يُمنح ذو - الناب - الأبيض فرصة لمشاهدة كل ذلك فبالكاد دخلت العربة الاراضي حين رأى كلبة رعي ذات عيون ساطعة وخطم حاد يعبر عن الغضب والاذلال. وقفت الكلبة قاطعة الطريق بينه وبين سيده فزمجر مهدداً وانتصب شعره وهو يهرع نحوها بصمت لكنه لم يكمل هجومه بل توقف بسرعة غريبة وتشنجت أطرافه مقاومة زخمه حتى أنه كاد يجلس على الأرض برغبة ملحة لتجنب الكلبة التي كانت على وشك مهاجمته. فقد كانت أنثى ورسم قانون نوعه حدود بينهما تعتبر مهاجمته لها إنتهاك لغريزته.

لكن الأمر اختلف مع كلاب الرعي فكونها أنثى لم يمنحها غريزة مشابهة. في المقابل امتلكت خوفاً غريزيا من البرية والذئاب بشكل خاص فرأت فيه ذئباً وخصما طارد نوعها منذ الوقت الذي بدأت فيه أسلافها رعي الأغنام.

هكذا ترك الهجوم وتوقف مستعدا لتجنبها وقفزت هي نحوه. زمجر لاراديا بينما شعر بأسنانها على كتفه لكنه لم يؤذها بل عاد إلى الخلف واع لنفسه وحاول الاستدارة حولها.

تسلل من هنا وهناك يلف ويدور دون جدوى فقد بقيت بينه وبين الطريق الذي يحاول الوصول اليه.

صرخ الرجل الغريب في العربة،

- «تعالي يا كولي»

ضحك ويدون - سكوت وقال،

- «لا بأس يا أبي. أنه منظم جداً وسيتعلم الكثير من الأشياء وعليه أن يبدأ الآن»

تقدمت العربة واستمرت كولي بقطع الطريق على ذي - الناب - الأبيض. حاول الركض بالدوران حول المنطقة العشبية لكنها ركضت بدائرة أصغر واستمرت بمواجهته بأسنانها اللامعة. استدار مرة أخرى عبر الطريق إلى الجهة الأخرى ليجدها في مواجهته مجدداً.

كانت العربة تختفي بين الأشجار وبدا الوضع يائسا فبدأ حلقة أخرى بينما تبعته بخفة قبل أن يلتف عليها ممارسا خدعته القديمة وضربها بكتفه على كتفها لتقع أرضا وتتدحرج. عانت للوقوف بينما تتقلب على ظهرها وجانبها وشدت الأرض بأقدامها نابحة بكرامة مجروحة.

لم ينتظر نهوضها فقد رأى الطريق مفتوحا أمامه وهذا كل ما أراد بل هرع خلف العربة بينما تركض خلفه دون أن تتوقف عن النباح. كان متفوقا عليها لكنها استمرت بالركض بهيجان وجنون وسرعة قصوى وبدا الجهد واضحا مع كل قفزة.

ابتعد بخفة وصمت دون جهد يذكر كما لو كان شبحا يهرع على الأرض حتى وصل المنزل عند موقف العربات ورأى العربة متوقفة والسيد يترجل منها. في تلك اللحظة بينما ما زال يركض بسرعته القصوى شعر بهجوم مباغت يقترب من جانبه. فقد قفز كلب صيد يهرع نحوه وحاول مواجهته لكن سرعته وقربٍ الكلب لم

تسمح له بذلك فضرب على الجانب وسقط بقوة زخمه وتدحرج مبتعداً ليخرج من التشابك بمنظر شر واضح. وبأذنين منبسطتين وشفتين مشدودتين وأنف متشنج أغلق أسنانه على بعضها بالقرب من حنجرة الكلب دون أن يصل اليها.

كان السيد يركض على مسافة منهما لكن كولي أنقذت حياة الكلب قبل أن يتمكن ذو - الناب - الأبيض من القفز وتقديم ضربته القاتلة. فبينما كان على وشك فعل ذلك وصلت وتمكن من مناورتها والركض اضافة لرميها بلامبالاة قبل قليل.

بدا ركضها أشبه بعاصفة مكونة من المذلة والغضب المبرر والكره الغريزي لهذا القاتل من البرية ثم ضربت ذا - الناب - الأبيض بزاوية حادة بينما يقفز ليقع أرضا مرة أخرى.

في تلك اللحظة وصل السيد المحب وأمسك به بإحدى يديه بينما نادى الوالد على الكلاب.

قال السيد بعد أن هدأ ذو - الناب - الأبيض تحت لمسته العطوفة،

- «ياله من إستقبال دافئ لذئب وحيد من القطب الشمالي. لم يعرف عنه سقوطه عن الأرض إلا مرة واحدة في حياته وها هو يقع مرتين خلال ثلاثين ثانية فقط»

غادرت العربة ووصل آلهة غرباء خارجين من المنزل. وقف بعضها على مسافة باحترام لكن امرأتين كررتا الفعل العدائي.

بدأ ذو - الناب - الأبيض يعتاد رؤية الرجال بأذرعهم حول رقبة سيده ورأى أن الأمر لم ينتج أي أذى كما لم تكن الأصوات التي أصدرت الآلهة مهددة. بعد ذلك حاولت الآلهة الاقتراب من ذي - الناب - الأبيض لكنه هددها مزمجراً وكذلك حذرها السيد بكلمة منه. بمثل تلك الاوقات اقترب من ساق سيده ورحب بتربيته المطمئن على رأسه.

صعد كلب الصيد الدرجات واستلقى على أحد جانبي الشرفة بعد أن أمره الوالد،

- «اجلس يا دِك»

استمر الكلب بالنباح ومراقبة الدخيل بينما أمسكت إحدى النساء بكولي واضعة ذراعيها حول رقبتها وربتت عليها. لكن كولي بقيت قلقة ومحتارة تنبح بترقب وغضب من السماح بوجود الذئب فقد كانت على ثقة أن الآلهة ترتكب خطأ بثقتها به.

صعدت الآلهة السلالم لدخول المنزل وتبع ذو - الناب - الأبيض سيده لكن دِك بدأ بالنباح على الشرفة بشعر منتصب.

اقترح والد ويدون - سكوت،

- «لندخل كولي إلى المنزل ونتركهما يتقاتلان. سيصبحان صديقين بعد ذلك»

ضحك السيد وقال،

- «سيكون ذو - الناب - الأبيض حزينا في عزاء الكلب المسكين إذا ما أصبحا صديقين»

نظر الوالد بتعجب نحو الحيوانين ثم نحو ابنه وقال،

- «هل تعني..؟»

- «نعم. سوف يقتل دِك بدقيقة واحدة أو دقيقتين على أقصى تقدير»

ضحك ويدون - سكوت ثم نظر نحو ذي - الناب - الأبيض وأضاف،

«تعال أيها الذئب. سوف ندخلك إلى المنزل»

مشى ذو - الناب - الأبيض باطراف متشنجة على الدرجات مبقيا نظره على كلب الصيد بينما يترقب بذيل منتصب أي هجوم. وفي الوقت نفسه متحضر لأي تجسد للمجهول قادم من المنزل لكن شيئاً لم يحدث. وحين دخل تفحص المكان بحذر ولم يرى أي شر كامن فاستلقى بزمجرة مرتاحة عند قدمي سيده يشاهد كل ما يجري حوله مستعدا على الدوام للقفز والقتال دفاعا عن حياته ضد الفظائع التي شعر بها تترقبه في مكان ما تحت سقف المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

-3-

ميدان الآلهة

لطالما كان ذو - الناب - الأبيض بطبيعته مستعدا للتكيف واضاف سفره الكثير معنى وضرورة لذلك.

هنا في سيرا فيزتا وهو اسم المكان الذي أقام فيه القاضي سكوت بدأ بالتعود سريعاً على منزله الجديد. فلم يملك مشاكل جادة مع الكلاب بعد يومه الأول لأنها عرفت أكثر عن طرق الآلهة في الجنوب ووجدته جديرا بالاحترام فور أن سمحت له الآلهة بدخول المنزل. رغم كونه ذئباً والأول من نوعه في المكان إلا أن الآلهة أقرت وجوده بينها وكذلك كان لزاما على الكلاب أن تفعل.

إضطر دك رغماً عنه لخوض عدد من الشكليات في البداية لكنه تقبل كون ذي - الناب - الأبيض اضافة للمكان بعد ذلك. ولو تمكن من تحقيق رغبته لأصبح الحيوانين صديقين جيدين لكن الأخير لم يحبذ الصداقة وفضل أن يبقى وحيداً فقد قضى حياته بمعزل عن نوعه ورغب الآن بالآنعزال. كما أزعجته محاولات دك للتقرب منه لذا زمجر مبعدا إياه.

وكما تعلم في الشمال درس عن ضرورة ترك كلاب سيده وشأنها لم ينسى هذا الدرس الآن مصرا على الحفاظ على خصوصيته وانعزاله ولذا تجاهل دك عن قصد حتى تركه الحيوان حسن السلوك ولم يعد يهتم به بقدر اهتمامه بعواميد الإسطبل.

لكن كولي إختلفت فقد تقبلته لكونها رغبة الآلهة لكنها لم تتركه بسلام. فقد كانت ذكرى الجرائم التي لا تعد ولا تحصى التي ارتكبها نوعه ضد أسلافها جزءا منها ولم يكفي يوماً أو جيلا حتى لنسيان ما فعله بحظائر الغنم. كل ذلك حفزها على المقاومة ورغم أنها لم تستطع الهرب من رغبة الآلهة التي سمحت له بالتواجد بينها إلا أنها استمرت بجعل حياته تعيسة بطرق تافهة واستمرت بتذكيره بالعداء القديم بينهما لذا إستغلت جنسها لإزعاجه واساءة معاملته. بدوره منعته غريزته من مهاجمتها لكن إصرارها لم يسمح له بتجاهلها. وكلما أسرعت نحوه أدار كتفه ذا الفراء نحو أسنانها الحادة ومشى بأطراف متشنجة بعيداً عنها. وعندما أصرت أكثر دار بحلقة حولها عارضا كتفه لها ومديرا رأسه عنها بتعبير ملل وصبر في عينيه.

أحياناً جعلته عضة خفيفة من فمها يسرع في التراجع دون آجلاً كبير لكن بشكل عام تمكن من الحفاظ على كرامته الشبيهة بالإجلال وتجاهل وجودها قدر المستطاع بالنهوض والمشي مبتعداً كلما رآها أو سمعها.

كان هناك الكثير لتعلمه فقد كانت حياة الشمال بسيطة بالمقارنة مع شؤون سيرا فيزتا المعقدة.

أولا كان عليه تعلم أفراد عائلة السيد باستعداد لذلك بطريقة ما. فكما انتمى متساه وكلوكوتش إلى القندس - الأشيب وتشاركا طعامه وناره وأغطيته كذلك انتمى جميع مقيمي المنزل إلى السيد مع فروقات عديدة في الأمر.

كانت سيرا فيزتا أكبربكثير من خيمة القندس - الأشيب واحتوت أشخاص أكثر. شملت عائلة السيد القاضي سكوت وزوجته وأختي السيد بيث وماري وزوجته أليس وطفليه ويدون ومود - وهما طفلين بعمري أربع وست سنوات ـ. لم يكن هناك طريقة لإخباره عنهم وعن علاقاتهم ببعض فلم يعرفها ولن يستطيع يوماً أن يفعل لكنه فهم سريعاً أنهم جميعاً يعودون للسيد. وبالملاحظة واستغلال الفرص ودراسة تصرفات وحديث ونبرات صوتهم تعلم درجات الود الذي كنه السيد لهم وبناء على هذه المعايير عاملهم.

قدر ذا - الناب - الأبيض كلما قدره السيد وفعل كل ما بوسعه لحراسة ما يعز عليه. هكذا كان الأمر مع الطفلين رغم كرهه للاطفال وخوفه من أياديهم طوال حياته بعد أن تعلم قسوتهم واستبدادهم بدروس عدة أيام القرى الهندية. ولهذا فقد زمجر بتحذير وشر عندما تقرب منه الطفلين لكن ضربة من السيد وكلمة حادة منه جعلته يسمح لهما بالتربيت عليه رغم استمراره بالزمجرة تحت أيديهما دون نغم الدندنة.

لاحقاًلاحظ أن الفتاة والفتى يملكان قيمة كبيرة لدى السيد وبعدها لم يكن هناك من داع لأن يضرب أو ينهر ليسمح لهما بالتربيت عليه لكنه لم يكن كريما أبداً بحبه مع الآخرين كما فعل مع سيده بل أطاعهما بصدق وحذر كمن يتحمل عملية مؤلمة لا أكثر.

بعد فترة أصبح معجباً بالطفلين. رغم أنه لم يذهب أبداً نحوهما إلا أنه إنتظر قدومهما وبدا أن لمعانا غريباً يسكن عينيه حين يقتربان منه. كما بدا نادما بحذر كلما ابتعدا عنه لتسلية أخرى. وأخذ تطوره هذا وقتاً.

بعد الطفلين فضل ذو - الناب - الأبيض القاضي سكوت وغالباً ما يعود ذلك لسببين. أولهما أن القاضي ذو قدر كبير لدى السيد. وثانيهما أنه لم يعبر عن مشاعره بوضوح بل سمح له بالاستلقاء قرب قدميه بينما يقرأ الجريدة ملق نظرة أو كلمة بين الحين والآخر معبرا عن إعترافه بوجوده. لكن ذلك حصل عندما لم يكن السيد في الجوار فعندما ظهر بدا أن ذا - الناب - الأبيض لا يلاحظ وجود أي شخص سواه.

سمح كذلك لأفراد الأسرة بالتربيت عليه واللعب معه لكنه لم يمنحهم ما منحه للسيد. ولم تتمكن أي حركة منهم بجعله يصدر النغم المميز في حنجرته أو من جعله يحتضنهم. هذا التعبير عن الاستسلام التام والثقة المطلقة حفظه للسيد المحب وحده.

كما تعلم التفريق بين العائلة والخدم. فقد خافه الخدم وتمنع عن مهاجمتهم بالكاد بنوع من الحياد لا أكثر لأنه إعتبرهم ملكا للسيد يعدون له الطعام ويغسلون الصحون ويفعلون كلما فعله مات في كلونداياك. باختصار كانوا توابع للمنزل.

تعلم أشياء أكثر خارج المنزل. فقد كان ميدان السيد واسعاً ومعقدا لكنه ذو حدود وقوانين. انتهى المنزل عند الطريق الريفي. وكان هناك ميدان لجميع الآلهة خارج

الطريق - أي الشوارع والطرق - وداخله أسيجة تحدد ميادين الآلهة الأخرى.

حكم عدد كبير من القوانين هذه الأمور فتصرف ذو - الناب - الأبيض وفقها لكنه لم يفهم حديث الآلهة ولم يملك طريقة ليتعلم الأمور عدا التجربة مطيعا غرائزه الطبيعية حتى إصطدمت بقانون ما وبعد تكرار الأمر عدة مرات تعلم القانون وأطاعه.

لكن أبرز ما في تعليمه كان ضربة السيد ونبرة صوته الحادة.

بسبب حبه الكبير آذته ضربة السيد أكثر من أي ضرب تلقاه من القندس - الأشيب أو الجميل - سميث. فقد سبب الآخران له الألم الجسدي وحسب بينما استمرت روحه بالمقاومة بقوة لا تكسر أما ضربة السيد وإن كانت خفيفة على الجسد إلا أنها وصلت لمكان أعمق وآذت روحه.

في الواقع نادرا ما ضرب السيد ذا - الناب - الأبيض أو وبخه بصوته لكنه عرف من خلال الضرب إذا ما كان فعله صوابا أو خطأ ووفقا لذلك عدل تصرفاته. كما لو أن هذا الفعل مثل بوصلة وجهته وعلمته في هذه الأرض الجديدة.

في الشمال كان الكلب الحيوان المدجن الوحيد بينما عاشت بقية الحيوانات في البرية وكان للكلب أن يصطادها متى ما استطاع. طوال حياته بحث عن الطعام بين الأشياء الحية لكن الأمور إختلفت في الجنوب.

تعلم الفرق خلال إقامته مبكراً بينما يمشي قرب زاوية المنزل ذات صباح. فقد رأى دجاجة خرجت بمغامرة من الفناء ودفعته غريزته الطبيعية لأكلها وبقفزتين وعضة من أسنانه أصدرت الدجاجة الصرخة الخائفة وتمكن منها. كانت قد تربت في المزرعة واكتسبت وزنا وطراوة جعلته يستمتع بطعمها بينما يتناولها ويلعق أطرافه.

لاحقاً ذلك اليوم التقى دجاجة أخرى قرب الإسطبل فهرع أحد الرجال لإنقاذها ولأنه لم يعرف نوع ذي - الناب - الأبيض فقد استعمل سوطا لعقابه. عند أول ضربة من السوط ترك ذو - الناب - الأبيض الدجاجة للرجل. ولربما أوقفه مضربا لكن سوط لم ينفع معه لذا بصمت ودون تردد استلم الضربة الأخرى بينما يقفز بسرعة نحو حنجرة الرجل الذي صرخ:

- «يا إلهي»

وتراجع إلى الوراء خافضا السوط ومغطيا حنجرته بذراعيه. بالتالي تلقت ذارعه جرحاً عميقا حتى العظم.

شعر الرجل بفزع شديد ولم يكن السبب عنف ذا - الناب - الأبيض بقدر ما كان صمته فاستمر بحماية حنجرته ووجهه بذراعه المجروحة النازفة وحاول التراجع نحو الحظيرة. لكان الأمر أسوأ لولا تدخل كولي التي أنقذت حياته كما أنقذت حياة دك هارعة نحو ذي - الناب - الأبيض بغضب مجنون. فقد كانت محقة بمعرفتها

أفضل من الآلهة ووجدت أن جميع شكوكها في محلها - ها هو القاتل العتيق يعود لحيله ـ.

هرب الرجل إلى الإسطبل وتراجع ذو - الناب - الأبيض أمام أسنان كولي الخبيثة عارضا كتفه لها بينما يلف في حلقة لكنها لم تستلم بعد عن محاولات عقابه بل على العكس أصبحت أكثر حماسا وغضبا حتى تخلى عن كرامته وهرب عبر الحقول.

قال السيد حين علم بالأمر،

- «سوف يتعلم ترك الدجاج وشأنه لكن عليّ أن أمسكه بفعلته كي أستطيع تعليمه»

بعد ليلتين كرر فعلته بطريقة أكثر كرما مما إعتقد السيد. فقد راقب ذو - الناب - الأبيض عادات الدجاج حتى إنتظر ذات مساء عودتها لمهجعها قبل أن يتسلق على تلة ويصل سطح مهجع الدجاج ثم قفز عبر القضبان ودخله وبعد دقيقة بدأت المذبحة.

في الصباح حين خرج السيد إلى الشرفة وجد الخادم ينتظره رفقة خمسين دجاجة بيضاء ميتة. صفر السيد مفكراً بخليط من الصدمة والإعجاب ثم رأى ذا - الناب - الأبيض يقف بفخر دون علامة ندم أو ذنب كما لو أنه فعل شيئاً يستحق الإعجاب والمديح ولم يرتكب خطأ. زم السيد شفتيه بينما يواجه مهمته ثم تحدث بقسوة للجاني وبنبرة غضب إلهي واضح ثم جعله ينزل أنفه نحو الدجاج وضربه. بعد ذلك لم يهاجم ذو - الناب - الأبيض الدجاج أبداً فقد عرف القانون وأطاعه.

حين أخذه السيد إلى مهجع الدجاج دفعته غريزته للقفز نحو الطعام الحي أمامه لكن السيد منعه بتوبيخ فأطاعه. مرة بعد أخرى شعر بدافع للهجوم ومرة بعد أخرى اوقفه صوت السيد. حتى قضيا يومها نصف ساعة في المكان ليتعلم بعدها القانون ويترك الدجاج وشأنه ويتجاهل وجوده تماماً.

بعد أن علم القاضي سكوت بما حصل قال بينما يجلس على طاولة الطعام،

- «لن تستطيع أن توقف قاتل الدجاج عن تكرار جريمته. لقد ذاق طعم الدم وتعلم العادة»

وهز رأسه مصرا. لكن ويدون - سكوت قال متحديا،

- «سوف أحبسه في منزل الدجاج لنهار كامل وأراهنك إلا يأكل أي منها. في الواقع إذا ما أكل أي دجاجة فسأدفع لك عملة ذهبية عن كل واحدة»

- «لكن ماذا سيحل بالدجاج؟»

قالت بيث،

- «على والدي أن يقوم بشيء ما إذا ما خسر الرهان»

وافقتها اختها وباقي الموجودين على الطاولة حتى اقتنع القاضي أخيراً وقال ويدون - سكوت ردا على ذلك،

- «حسناً إذا لم يؤذي أي من الدجاج فستقول له باخلاص وصدق - إنك أذكى مما توقعت يا ذا - الناب - الأبيض - وتكررها بواقع مرة لكل عشرة دقائق يقضيها في الداخل»

هكذا وضع ذا - الناب - الأبيض في قفص الدجاج وراقبت العائلة العرض من مكان مخفي لكنه كان عرضاً مملاً فقد استلقى الكلب على الأرض ونام ولم ينهض سوى مرة واحدة لتناول الماء متجاهلاً الدجاج كما لو أنها لم توجد.

في الرابعة قفز على سقف مهجع الدجاج وخرج منه يمشي حتى وصل منزل العائلة. لقد تعلم القانون.

وقف القاضي على الشرفة أمام العائلة وقال ستة عشر مرة بإخلاص وبطيء

- «إنك أذكى مما إعتقدت يا ذا - الناب - الأبيض»

لكن عدد القوانين الكبير حير ذا - الناب - الأبيض وجعل منه أقل فخامة. فبعد أن تعلم إلا يمس الدجاج الذي يعود للآلهة كان عليه تعلم تجنب القطط والأرانب والديك. وحين تعلم القانون جزئيا عرف أن عليه ترك جميع الأشياء الحية حتى أنه قد يرى طائر سمان يحلق حوله بأمان ولا يهاجمه رغم حماسه ورغبته التواقة إلا أنه سيطر على غريزته واطاع رغبة الآلهة.

ذات يوم رأى دك في المرعى الخلفي يلاحق أرنب قواع بينما يراقبه السيد دون أن يتدخل حتى أن الأخير شجع ذا - الناب - الأبيض على الانضمام للمطاردة. وهكذا تعلم أن القانون لا يشمل أرانب القواع وفهم أنه لا يجب أن يعادي أي حيوان مدجن وإن لم يكن له الإعجاب لكن حيوانات البرية مثل السناجب والطيور والأرانب القطنية لم تكن ملكا للإنسان ولذا كانت طريدة لجميع الكلاب.

دافعت الآلهة عن حيوانتها الأليفة ولم تسمح لوجود العداء بينها. وكان على الحيوانات الطاعة لأن الآلهة وحدها تملك سلطة الحياة والموت على توابعها وقد كانت غيورة حين يتعلق الأمر بسلطتها.

كانت الحياة معقدة في وادي سانتا كلارا مقارنة ببساطة الشمال. وأكثر ما صعب على ذي - الناب - الأبيض في موطن الحضارة الجديد هو البقاء مسيطرا والتقيد بالقوانين فالإتزان شيء رقيق كخيوط العنكبوت وصلد كالصلب في الوقت نفسه.

للحياة ألف وجه وقد قدر له أن يقابلها جميعاً. وهكذا حين ذهب إلى المدينة في سان - خوزيه يركض وراء العربة أو يسير في الشوارع مرت الحياة من جانبه بكل سعتها واختلافاتها ضاغطة على حواسه ودائماً ما تطلبت منه التكيف والقيام بردود الفعل المناسبة ودفعه على الدوام تقريباً لمقاومة غرائزه الطبيعية.

كان هناك محال قصابة حيث علق اللحم أمام نظره وكان لزاما عليه تركه. وكان هناك قطط في المنازل التي زارها السيد عليه تركها وكلاب في كل مكان تزمجر لكن لم يجب عليه مهاجمتها. ثم كان هناك عدد لا يحصى من البشر على الأرصفة لفت إنتباهها فوقفت وحدقت به تشير لبعضها الآخر لتفحصه والحديث معه وأسوأ

من كل شيء تربت على رأسه. أما هو فعليه تحمل هذه اللمسات المزعجة من الغرباء وفعل ذلك.

علاوة على ذلك تجاوز الغرابة والوعي بذاته طوال الوقت فقد تقبل اهتمام الآلهة الغريبة وتسامحهم بتسامح من ناحيته. باليد الأخرى كان هناك شيء يمنع البشر من الألفة التامة معه فربتت على رأسه بحذر وأكملت طريقها راضية بجرأتها.

لكن الأمر لم يكن يسيرا دائماً فبينما يلاحق العربة في ضواحي سان خوزيه التقى أطفال يرمون الأحجار نحوه لكنه علم أنه لا يجب عليه ملاحقتهم ومهاجمتهم. هنا خالف غريزته كما يجب عليه بعد أن أصبح مروضا وتكيف للحضارة. مع ذلك لم يكن راض تماماً ولم يملك أفكار ملموسة عن العدالة واللعب المتكافئ لكنه امتلك حسا بالآنصاف في الحياة ودفعه هذا الحس لمقاومة الظلم الذي منعه من الدفاع عن نفسه ضد راميّ الأحجار ناسٍ أن عقده مع الآلهة يعني دفاعها عنه ورعايتها له.

ذات يوم قفز السيد من العربة حاملاً سوطه وهدد الأطفال وبعد ذلك لم ترمى الأحجار نحوه.

مر بتجارب أخرى ذات طبيعة مشابهة منها لقاء ثلاث كلاب قرب تجمع للبشر في طريقه للمدينة. هاجمته الكلاب حين مر قربها وأكد عليه السيد ضرورة تجنبه للقتال عارفا بقدرته. نتيجة لذلك تعلم الدرس وشعر بالقلق كلما مر قرب المكان مزمجراً لإبعاد الكلاب الثلاثة كلما اقتربت منه لكنها استمرت بملاحقته نابحة صارخة موجهة الإهانة له. تحمل الأمر لبعض الوقت حتى حين شجع الرجال في المكان الكلاب على مهاجمته.

أخيراً أوقف السيد العربة حين رأى الرجال يشجعون الكلاب بحماس. وقال لذي - الناب - الأبيض،

- «انطلق وهاجمها»

لكن ذا - الناب - الأبيض لم يصدق الأمر ونظر نحو سيده ثم نحو الكلاب. ثم نظر مرة أخرى لسيده متسائلاً بتوق. أومأ السيد برأسه وأضاف،

«هيا يا صديقي القديم لقنها درسا»

لم يتردد ذو - الناب - الأبيض بل استدار وهاجم أعدائه الثلاثة بزمجرة وعراك عنيف بينما تلمع الأسنان وتتقافز الأجساد. بدا تراب الأرض يتصاعد كغيوم تحجب المعركة لكن بعد دقيقتين استلقى كلبان على الأرض وهرب الثالث قافزا فوق سياج وراكضا عبر الحقل فتبعه ذو - الناب - الأبيض بخفة وسرعة الذئاب حتى أمسك به في مركز الحقل وقتله.

بانتصاره وقتله للكلاب الثلاثة انتهت مشاكله مع الكلاب. إنتشر الخبر عبر الوادي وعمل الرجال على إبعاد كلابهم عنه والتأكد من عدم إعتراضها لطريقه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

فريق
متميزون
E-BOOK

-4-

نداء أبناء نوعه

مرت الشهور في أراضي الجنوب حيث الكثير من الطعام والقليل من العمل.

عاش ذو - الناب - الأبيض بسعادة ورخاء ولم يكن الجنوب حوله وحسب بل حل جنوب العمر فيه. فقد أشرق عطف الإنسان كشمس عليه وتفتح تحت سطوعه كزهرة في أرض خصبة. مع ذلك بقي مختلفا عن بقية الكلاب.

تعلم القانون أفضل من الكلاب التي عاشت طوال حياتها في الجنوب واستمرت بدورها بمراقبته بحذر بانتظار خطر كامن كما لو أنه مثل البرية ذاتها وعاش الذئب في أعماقه. لم يلعب معها أبداً فقد عاش وحيداً بين أبناء نوعه منذ طفولته تحت إرهاب ليب - ليب ومجموعة الكلاب ثم أيام القتال مع الجميل - سميث. كل ذلك ولد لديه نفورا من الكلاب فدفعه مسار حياته الطبيعي للابتعاد عن أبناء جلدته والتعلق بالإنسان. إضافة لان الكلاب نظرت له بشك لأنه أيقظ إحساسها الغريزي بالخوف من البرية ودائماً ما حيته بنباح وكره واضح.

تعلم باليد الأخرى أن ليس من الضروري إستعمال أسنانه ضدها فيكفي أن يعرض أنيابه الحادة ويزم شفتيه ليهرع كلب متراجع على أطرافه الخلفية.

لازمه إزعاج واحد في حياته - كولي –.

لم تمنحه كولي لحظة سلام واحدة ولم تتبع القانون كما فعل بل قاومت جميع جهود السيد لجعلها صديقة له. ودائماً ما سمع زمجرتها الحادة القلقة في أذنيه فلم تسامحه على ما فعله بالدجاج واستمرت تسيء الظن فيه لأنها وجدته مذنبا منذ البداية وعاملته وفقا لذلك حتى أصبحت آفة عليه كشرطي يلاحقه في الأرجاء. وإذا ما نظر بحذر نحو حمامة أو دجاجة صرخت بغضب وإهانة.

كمنت طريقته المفضلة في تجاهلها بالاستلقاء ووضع رأسه على طرفيه الأماميين مدعيا النوم مما حيرها وأخرسها.

باستثناء كولي سار كل شيء على ما يرام. فتعلم السيطرة وضبط النفس وعرف القانون ووصل إلى استقرار وهدوء وتحمل فلسفي فهو لم يعد يعيش في بيئة معادية ولم يكمن الخطر والأذى والموت حوله مختبئا. وبمرور الوقت اختفى المجهول المرعب الشرير الذي ترقبه طوال حياته.

كانت الحياة سهلة وجيدة يعيشها بسلام لا يتوقع شرا أو خوفا. لكنه إشتاق للثلج دون أن يدرك.

لكان فكر بأنه يعيش «صيفا طويلاً بإفراط» لو استطاع لكن شوقه تمثل بشعور لا واع وحسب. وبنفس الطريقة شعر بتوق لأرض الشمال حين حل الصيف وعانى من حرارة الشمس فقد جعله ذلك قلقا وغير مرتاح دون أن يعلم السبب.

لم يكن يوماً مميزا بالتعبير عن مشاعره ولم يملك طريقة للتعبير عن حبه سوى باحتضان سيده واصدار النغم المميز في حنجرته لكنه اكتشف طريقة ثالثة.

لطالما كان ضحك الآلهة يسبب له الجنون والغضب لكنه لم يغضب من سيده المحب حتى عندما اختار الضحك بطريقة طيبة ومرحة. رغم شعوره بلمحات من الغضب القديم يتكون فيه كلما سمع ضحك السيد إلا أن حبه كان أقوى.

في البداية شعر بالآجلاًل من ضحك السيد ثم أصبح مضحكا أكثر حين حاول الظهور بآجلاًل أكبرحتى جرده سيده أخيراً من جلالته بضحكه ففتح فكيه وارخى شفتيه بتعبير ساخر أقرب للحب من المرح في عينيه. هكذا تعلم الضحك وتعلم اللعب مع سيده بالوقوع والتدحرج بحيل صعبة مدعيا الغضب والزمجرة بعنف وجز أسنانه بما يشبه النية للقتل لكنه لم ينسى نفسه ولم يعض السيد أبداً.

في نهاية أوقات مرحهما معاً حين أصبح اللعب عنيفا توقف فجأة وحدق بالسيد من على بعد أقدام قليلة. ثم فجأة كما تشرق الشمس على بحر هائج بدأ الصديقان بالضحك لينتهي اللعب عادة بوقوفه قرب سيده بينما تحيط ذراعي الأخير برقبته وكتفيه ويزمجر بنغم الحب المميز.

لم يسمح لأي أحد آخر باللعب معه بتلك الطريقة فقد وقف بفخر وزمجر بشعر منتصب إذا ما حاول أحد أفراد الأسرة اللعب معه. سماحه للسيد فقط باللعب معه لم يعني التصرف ككلب عادي والتعبير عن الحب لكل من هب ودب فقد أحب بقلب مخلص ورفض أن يقلل من قيمة حبه.

خرج السيد على حصانه كثيراً وأصبحت مرافقته من واجبات ذي - الناب - الأبيض الأساسية.

في الشمال عبر عن إخلاصه بالعمل على المزلاج لكن لم توجد مزاليج هنا ولم تحمل الكلاب الأغراض على ظهورها ولذا فقد عبر عن ذلك بطرق جديدة منها الركض إلى جانب حصان السيد. ولم يتعب حتى في أطول الأيام فقد امتلك سرعة وخفة الذئاب ولم يبدي جهداً بل اعتاد الوقوف في نهاية خمسين ميل أمام الحصان بمرح.

وخلال رحلاته هذه تعلم طريقة أخرى للتعبير عن نفسه وهي طريقة من التميز لدرجة أنه لم يكررها سوى مرتين في حياته.

المرة الأولى كان السيد يحاول تعليم حصان جديد كيفية الدخول عبر بوابة دون أن ينزل الراكب عنه مكررا المحاولة عدة مرات حتى أصبح الحصان خائفاً في كل مرة وتراجع إلى الخلف. أصبح الحصان تدريجياً أكثر قلقا وحماسا حتى جعله السيد يجلس على أقدامه الأربعة حيث بدأ يركل بطرفيه الخلفيين.

راقب ذو - الناب - الأبيض العملية بقلق متزايد حتى لم يعد يسيطر على مشاعره فقفز أمام الحصان ونبح بعنف محذراً.

ورغم أنه حاول بعد ذلك النباح بتشجيع من السيد إلا أنه لم ينجح سوى مرة واحدة لم يكن السيد حاضراً وقتها. في حينها ركض عدو في المرعى وقفز أرنب قلوع تحت أقدام الحصان فسقط بعنف بعد أن تعثر وانتهى السيد بقدم مكسورة نتيجة لذلك.

قفز ذو - الناب - الأبيض بغضب نحو حنجرة الحصان لكن سيده هدأه بصوته ثم تفحص جرحه وأصدر أمرا بالقول،

- «إذهب إلى المنزل الآن»

رفض ذو - الناب - الأبيض ترك سيده. وفكر الأخير بكتابة ملاحظة لكنه لم يعثر على قلم وورقة في جيوبه فأمره بالذهاب إلى المنزل مرة أخرى.

نظر له الحيوان بقلق وابتعد قليلاً لكنه عاد أدراجه بعد بضعة خطوات وزمجر قليلاً.

تحدث إليه السيد برقة لكن بجدية فنصب أذنيه مستمعا بتركيز حتى قال أخيراً،

«لا تقلق يا صديقي القديم. إذهب إلى المنزل وأخبرهم بما حصل. هيا اذهب إلى المنزل الآن»

عرف ذو - الناب - الأبيض معنى - المنزل - رغم أنه لم يفهم باقي لغة البشر إلا أنه علم بأن سيده يرغب بذهابه للمنزل فابتعد متمنعا وراقب السيد بحذر بينما يكرر الأخير أمره بحدة. أخيراً أطاع الأمر وذهب إلى المنزل.

كانت العائلة تجلس على الشرفة مستمتعة بدفء النهار حين ظهر ذو - الناب - الأبيض مغطى بالتراب ولاهثا. أعلنت والدة سكوت،

- «لقد عاد ويدون»

ركض الطفلين ورحبا بذي - الناب - الأبيض صارخين لكنه تجاوزهما وصعد إلى الشرفة. أحاطت العائلة به بينما يقف بين كرسي هزاز وسياج الشرفة فزمجر وحاول تجاوزها.

نظرت الأم مفكرة نحوه وقالت،

- «أعترف أنه يجعلني قلقة بتصرفه مع الطفلين. أخشى أن يلتف عليهما دون توقع ذات يوم»

استمر بالزمجرة وقفز من الزاوية موقعا الفتاة والفتى فنادتهما الوالدة مهدئة وعلق القاضي سكوت قائلاً:

- «يبقى الذئب ذئباً دائماً. لا يمكن أن نثق به»

قاطعته بيث مدافعة عن أخيها في غيابه،

- «لكنه ليس ذئباً تماماً»

قال القاضي،

- «هذا ما يظنه ويدون. سيخبرك بنفسه أنه يعتقد أن هناك جزء من كلب فيه لكنه لا يعرف ذلك. أما بالنسبة لمظهره..»

لم يكمل جملته فقد وقف ذو - الناب - الأبيض مزمجراً بوحشية. أمره القاضي،

- «أجلس.. ابتعد»

استدار ذو - الناب - الأبيض نحو زوجة السيد المحب التي صرخت بخوف بينما يمسك بثوبها بين أسنانه حتى مزق القماش. بعد ذلك أصبح محط إنتباه الجميع بينما يتطلع إلى وجوههم وتعمل حنجرته دون توقف دون إصدر صوتاً بمعاناة مشنجة جسده لإيصال المعلومة بطريقة ما.

أخيراً قالت الوالدة،

- «أعتقد أنه يفقد عقله. أخبرت ويدون أن حيوان قطبي مثله لن يعتاد على مناخ الجنوب»

أعلنت بيث ملاحظة،

- «أنه يحاول الحديث على ما يبدو»

صدر الحديث في تلك اللحظة على شكل نباح فأعلنت الزوجة على نحو حاسم،

- «لقد حدث شيء ما لويدون»

نهض الجميع وركض ذو - الناب - الأبيض نازلا السلالم بينما ينتظر أن يتبعوه. كانت تلك المرة الثانية والأخيرة التي نبح فيها في حياته.

بعد هذا الحدث حصل على مكانة أكبرفي قلوب سكان سيرا فيزتا. حتى الخادم الذي هاجمه مرة اعترف بكونه كلباً حكيما وإن كان ذئباً في الواقع. وتمسك القاضي باعتقاده أنه ذئب لا كلب محاولاً إقناع الآخرين عن طريق إخبارهم بمعلومات من الموسوعات وكتب التاريخ الطبيعي.

مرت الأيام بشمسها المستمرة على وادي سانتا كلارا. وبينما تقصر النهارات ويحل شتاء ثان في أرض الجنوب اكتشف ذو - الناب - الأبيض شيئاً غريباً وهو أن أسنان كولي لم تعد حادة كالسابق بل كان هناك مرح ورقة منعتها من إيذائه. نسي محاولاتها لجعل حياته جحيما من قبل حين أظهرت نفسها ورد بآجلاًل محاولاً اللعب معها وبدا سخيفا.

ذات يوم قادته كولي في مطاردة طويلة عبر المرعى الخلفي ونحو الغابة. كان على السيد أن يقود حصانه ذاك اليوم وعرف ذو - الناب - الأبيض ذلك.

بينما ينتظر الحصان مجهزا عند الباب تردد ذو - الناب - الأبيض في إتخاذ قراره لكن إحساسا أعمق من أي قانون تعلمه أو تقليد نشئ عليه سكنه. كان ذاك الاحساس أقوى من حب السيد حتى وأقوى من الرغبة بالحياة ذاتها.

عندما نكزته كولي بينما يحاول إتخاذ القرار إستدار وتبعها فخرج السيد وحيداً ذلك اليوم بينما ركض ذو - الناب - الأبيض في الغابة رفقة كولي كما فعلت يوماً والدته كيتشي رفقة العجوز ذي - العين - الواحدة قبل سنوات طويلة في الغابة الشمالية الصامتة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

- 5 -

الذئب النائم

خلال ذلك الوقت كانت الصحف مليئة بخبر هروب مجرم من سجن كوينتن.

كان المجرم رجل عنيف منذ ولادته. لم يولد بصلصال صحيح ولم تساعده ظروفه في تشكيله على يد المجتمع فيدي المجتمع قاسية وكان هذا الرجل مثالا على عملها.

كان وحشا بهيئة إنسان لكنه وحش فظيع أدق ما يقال بوصفه أنه وحش لاحم. وقد أثبت في السجن إلا أمل من إصلاحه ولم ينفع العقاب في تهذيب روحه فقد فضل الموت مقاتلا مجنونا على الحياة معاقبا. وكلما قاتل بعنف كلما زاد غضبه على المجتمع وعاقبه المجتمع أكثر. فلم ينتج من ذلك إلا جعله أكثر عنفا.

لم ينفع الضرب والتقييد والتجويع في معاملة جيم - هول لكن هذا ما حصل عليه منذ كان صبيا في ضواحي سان - فرانسيسكو كصلصال ناعم في يدي المجتمع مستعدا للتشكيل.

خلال فترة سجنه الثالثة التقى حارس متوحش مثله عامله بقسوة وكذب بشأنه واضطهده. وكان الفرق الوحيد بينهما أن الحارس حمل المفاتيح والسلاح بينما لم يمتلك جيم - هول شيئاً سوى يديه وأسنانه لا غير. مع ذلك قفز نحو الحارس ذات يوم واستعمل أسنانه على حنجرته كما يفعل حيوان في الغابة.

بعد ذلك أرسل إلى زنزانة غير إصلاحية تكونت من الحديد بالكامل بما في ذلك الأرض والجدران والسقف ولم يغادرها لثلاث سنوات ولم يرى السماء أو شروق الشمس أبداً. فمرت نهاراته شبيهة بالغروب ولياليه صمت مظلم كما لو دفن حياً في قبر حديدي. وعندما دفع الطعام عبر فتحة في الباب نحوه زمجر كحيوان بري.

كره جيم - هول كل شيء وأطلق غضبه نحو العالم ليلاً نهاراً. لاسابيع وأشهر لم يصدر صوتاً في الظلام بينما يأكل الصمت روحه. لقد كان وحشا وشيئاً مخيفا كمن لم يرى شبيهه في العقول المجنونة.

ذات ليلة هرب جيم - هول.

قال الحراس أن الأمر مستحيل لكن مع ذلك وجدت زنزانته فارغة ورقد جسد حارس ميت عبرها جزئيا بينما رقدت جثتين اخريين عبر السجن على الطريق الذي قطعه ليصل إلى السياج الخارجي وكان قد قتلهم جميعاً بيديه لتجنب الضوضاء.

عند هروبه كان مسلحا بما أخذه من الحراس فأصبح كترسانة بشرية تهرب عبر التلال تلاحقها قوة المجتمع المنظمة. وحدد مبلغ كبير من الذهب للقبض عليه مما دفع فلاحون عدة للخروج بأسلحة نارية للبحث عنه فقد يدفع السعر الذي سيجنوه إذا ما حالفهم الحظ رهنا عقاريا أو يرسل إبنا للجامعة.

هكذا حمل المواطنون المتحمسون بنادقهم خارجين للبحث عنه وتبعت كلاب الصيد آثار أقدامه الدامية. وكذلك فعلت كلاب الشرطة المدربة. بينما عجت الهواتف والتلغرافات والطرق بأخبار تتبع آثاره ليلاً نهاراً.

أحياناً وصل أحدهم إليه وواجهه الرجال بشجاعة أو عبروا أسيجة سلكية لتذكر أخبار مغامراتهم في الجرائد. بعد هذه الاحداث نقل الضحايا والمصابين إلى المدن وحل مكانهم رجال متحمسون حتى اختفى جيم - هول. فقد تتبعته الكلاب دون جدوى وأمسك رجال مسلحون باشخاص غرباء وطلبوا منهم التعريف عن أنفسهم بينما اكتشفت آثاره في مواقع مختلفة من قبل تواقين للمال.

في الوقت الحالي قرأت الجرائد في سيرا فيزتا بقلق وليس باهتمام. شعرت النساء بالخوف لكن القاضي سكوت ضحك وسخر من الأمر رغم أن خوفهم كان مبرراً. فقد كان القاضي سكوت نفسه من حكم على جيم - هول بالسجن في آخر أيام عمله.

تلك المرة كان جيم - هول محقاً فقد كان بريئاً من الجريمة التي حكم بها عليه لكنه أدين بما يسميه الشرطة واللصوص قضية «الشحن بالقطار» وزج في السجن بجريمة لم يرتكبها بسبب الجريمتين السابقتين التي ارتكبها.

هكذا حكم عليه بخمسين سنة في السجن.

لم يعرف القاضي كل شيء ولم يعرف أنه جزء من مؤامرة خططت الشرطة لها بزرع الأدلة وأن جيم - هول بريئاً من الجريمة. كما لم يعلم المدان بدوره أن القاضي سكوت جاهل بخطة الشرطة بل آمن أنه عرف كل شيء وكان جزءا من المؤامرة.

لذلك حين تلقى جيم - هول الحكم كارها كل ما فعله المجتمع به غضب وتم سحبه من قبل نصف دزينة من الرجال بينما يفرغ كل غضبه على القاضي متوعدا بالآنتقام من الرجل الذي مثل حجر الاساس في الظلم الذي طاله.

بعد ذلك عاش حياته الشبيهة بالموت حتى هرب.

لم يعرف ذو - الناب - الأبيض شيئاً عن كل ذلك لكن كان هناك سر بينه وبين أليس زوجة السيد. ففي كل ليلة بعد أن ينام الجميع تنهض وتدخله إلى القاعة الكبيرة في المنزل.

لم يكن ذو - الناب - الأبيض كلباً منزليا ولم يسمح له بالنوم في المنزل لذا كل صباح نهضت مجدداً وأخرجته قبل أن يستيقظ الآخرون.

ذات ليلة بينما كان الجميع نيام استيقظ ذو - الناب - الأبيض واستلقى بهدوء يتشمم الهواء ملاحظاً رسالة تشي بحضور إلهه غريب. وجاء لأسماعه صوت حركة الإله الغريب فلم يصرخ بغضب كما إقتضت طريقته بل استمع لمشي الاله الغريب بخفة ومشى بدوره بخفة أكبر لأنه لم يرتدي ملابس تحك جسده وتصدر صوتاً. كما أنه قد تعلم في البرية صيد اللحم الحي وعرف فائدة المفاجئة.

توقف الإله الغريب أسفل السلم يستمع. كان ذو - الناب - الأبيض أشبه بميت وهو يراقب دون حركة أو صوت وقد علم أن الطريق على السلالم يؤدي إلى السيد المحب وأعز ما يملك لذا إنتظر بشعر منتصب بينما ارتفعت قدم الإله الغريب وأصبح على وشك أن يبدأ صعود السلم. حينها هاجم ذو - الناب - الأبيض دون تحذير أو زمجرة تشي بأفعاله قافزا في الهواء وواقعاً على ظهر الإله الغريب ليتشبث بكتفيه بأطرافه الأمامية ويغرز أنيابه في الوقت نفسه في رقبته.

استمر بالتشبث للحظة ثم سقط الاثنان على الأرض فقفز ذو - الناب - الأبيض مبتعداً بينما صارع الرجل للنهوض قبل أن تنهال عليه الأنياب الحادة مجدداً.

استيقظ الجميع على ضوضاء صادرة من الاسفل كما لو كانت معركة تجري. كان هناك أصوات إطلاق عيارات نارية وصراخ رجل مرعوب يتعذب وزمجرة عظيمة وصوت تحطم أثاث وزجاج.

كما بدأت الأصوات بسرعة خفتت بسرعة فلم تدم المعاناة أكثر من ثلاث دقائق.

تجمع الخائفون عند قمة السلم حيث صدر صوت خرخشة كما لو أن الهواء يمر عبر الماء من الظلام في الأسفل. ثم أصبحت الخرخشة أشبه بصافرة لكن هذا بدوره اختفى ولم يعد يقطع الظلام شيئاً عدا لهاث مخلوق يعاني لإلتقاط أنفاسه.

ضغط سكوت زرا ليشعل ضوءا فغمر الضوء السلالم والقاعة في الأسفل. ثم نزل بحذر رفقة والده حاملين أسلحتهما.

أنجز ذو - الناب - الأبيض عمله فرقد رجل وسط الفوضى من الاثاث المحطم على جانبه وغطت ذراعه نصف وجهه.

انحنى ويدون - سكوت وأزاح ذراع الرجل لتظهر حنجرته مشقوقة موضحة سبب وفاته. وقال القاضي سكوت،

- «جيم - هول!»

ثم نظر لولده بتعبير فهم.

نظر السيد ووالده نحو ذي - الناب - الأبيض الذي استلقى على جانبه بعينين مغلقتين فرفع الحيوان جفنيه بشيء من الجهد ونظر لهما بينما يرتفع ذيله في محاولة لهزه.

ربت ويدون - سكوت على جسد ذي - الناب - الأبيض وتلقى زمجرة اعتراف بالأمر لكنها كانت زمجرة واطئة. ثم اغلقت العينين التعبتين مجدداً وبدأ جسد الحيوان يرتخي ويتمدد على الأرض.

غمغم السيد،

- «أنه على وشك الموت. ياله من حيوان مسكين»

أجاب القاضي سكوت متجها نحو الهاتف،

- «سنرى بشأن ذلك»

أعلن الجراح لاحقاًبعد أن عمل لساعة ونصف بتفحص جراح ذي - الناب - الأبيض،

- «أنه يملك فرصة من بين ألف للنجاة»

كانت العائلة قد تجمعت حوله عدا الاطفال لسماع حكم الطبيب الذي أضاف،

«لقد كسر قدم خلفية وثلاثة أضلاع وثقبت أحد الاضلاع الرئتين. كما قد خسر أغلب دمه وهناك احتمال باصبات داخلية. لابد من أنه تفاجئ بالهجوم اضافة لتلقيه ثلاث رصاصات. أنه لا يملك تلك الفرصة من الف حتى»

صرخ القاضي سكوت ردا عليه،

- «لا يجب أن نضيع أي فرصة لمساعدته. لا تهتم بالمصاريف بل قم بعمل الاشعة وكل ما يلزم. وسنبعث رسالة للدكتور نيكولز في سان - فرانسيسكو. أنت تفهم أيها الطبيب بأن عليه الحصول على كل الفرص المتاحة»

إبتسم الطبيب وقال،

- «بالطبع أنه يستحق كل ذلك وأكثر. يجب الاعتناء به كما لو كان إنسان أو طفل مريض ولا تنسى الاعتناء بحرارته. سوف أعود في الساعة العاشرة»

تلقى ذو - الناب - الأبيض العلاج. وعملاً باقتراح القاضي سكوت بإحضار ممرض مختص لرعايته أخذت الفتيات المهمة على عاتقهن وقدمن كل العناية الممكنة له.

هكذا حظي بالفرصة التي قال الطبيب أنه بالكاد يملكها. لكن الطبيب لا يلام على سوء تقديره فقد قضى حياته في علاج البشر الذين أضعفتهم الحضارة وعاشوا حياتهم تحت مظلة الحماية لأجيال. لقد كانوا أكثر ضعفا وهشاشة مقارنة به وتمسكوا بالحياة بقبضة مرتخية. أما هو فقد جاء من البرية حيث يفنى الضعيف مبكراً ولا يمتلك ملجأ. ولم يرث ضعفا من والده أو والدته ولا من الاجيال التي سبقتهما بل كان خليطا من القدرة الحديدة وحيوية البرية وتشبث بالحياة بكل جزء منه - بروحه وجسده بصلابة إنتمت يوماً لكل المخلوقات ـ.

ربط ذو - الناب - الأبيض كسجين ومنع من الحركة بسبب الرباط والضمادات متعلقا بالحياة لأسابيع. وقضى ساعات طويلة في النوم وحلم كثيرا.

رأى في أحلامه سلسلة لانهائية من رؤى أرض الشمال فقد نهضت كل أشباح الماضي ورافقته.

عاش مرة أخرى في العرين مع كيتشي وارتجف على ركبه أمام القندس - الأشيب بينما يعلن له الولاء وهرب للنجاة بحياته من ليب - ليب ومجموعة الجراء راكضا مرة أخرى عبر الصمت يصطاد الطعام الحي خلال أشهر المجاعة. ومرة أخرى ركض على رأس الفريق تتبعه أسواط متساه والقندس - الأشيب وصرخاتهم عندما وصلوا مسير ضيق واحتشد الفريق معاً للمرور. وعاش أيام القتال مع الجميل -

سميث مرة أخرى. وفي مثل تلك الأوقات زمجر وارتجف بينما ينام وعرف الناظر إليه أنه يرى كابوساً فظيعاً.

كان هناك كابوس بعينه يعاني منه بشكل خاص حين يسمع أصوات رنين وصليل السيارات التي بدت له كحيوانات وشق هائجة. فيستلقي بين الشجيرات محجوبا عن النظر بانتظار خروج سنجاب لمسافة كافية عن ملجأ الأشجار ثم فور أن يقفز عليه تتحول الطريدة إلى سيارة شريرة وفظيعة تحملق فوقه كجبل يرن ويصل وينفث النار نحوه.

بنفس الطريقة سار الحلم عندما تحدى صقر يهرع نازلاً من السماء الزرقاء ويتحول لسيارة تملأ المكان بينما تهبط.

أو يجد نفسه في حلبة قتال الجميل - سميث يتجمع الرجال حوله وبينما يترقب دخول عدوه من البوابة تفتح البوابة فجأة وتدخل عليه السيارة المريعة.

حدث هذا ألف مرة وفي كل مرة ولد لديه رعب أعظم من أي وقت مضى.

ثم جاء يوم أزيلت فيه الضمادات وفكت الأربطة واجتمع سكان سيرا فيزتا بفرح حوله بينما يربت السيد على أذنيه ويرد ذو - الناب - الأبيض عليه بنغم الحب.

سمته زوجة السيد «الذئب المبارك» وبدأت جميع النساء بمناداته بذلك.

حاول رفع قدمه وبعد عدة محاولات وقع ضعيفا فقد استلقى طويلاً حتى أصبحت عضلاته أقل مكرا وغادرته القوة فشعر بشيء من العار بسبب ضعفه كما لو أنه فشل في خدمة الآلهة لذا قام بجهود بطولية لينهض.

أخيراً وقف على أقدامه الأربعة مترنحا في مكانه.

نادت النساء معا،

- «الذئب المبارك»

نظر لهم القاضي سكوت بزهو وقال،

- «لقد قلتن الحقيقة. وكما أخبرتكن لوقت طويل أنه ليس كلباً عادياً وإلا لما تمكن من النجاة. أنه ذئب بحق»

رددت زوجته،

- «ذئب مبارك»

أجاب القاضي موافقاً،

- «نعم ذئب مبارك. وسيكون هذا اسمه من الآن فصاعدا»

قال الجراح أن على ذي - الناب - الأبيض تعلم المشي وأضاف،

- «لا ضير بأن يبدأ الآن فلن يؤلمه الأمر. خذوه إلى الخارج»

خرج ذو - الناب - الأبيض كملك يتبعه كل سكان المنزل ويعتنون به. حين وصل إلى العشب جلس على الأرض ليرتاح لفترة ثم بدأت قوته تسري في عضلاته بنوبات صغيرة وبدأ الدم يسري فيها من جديد.

عند الإسطبل استلقت كولي قرب البوابة بينما يلعب حولها نصف دزينة من الجراء الصغيرة. نظر لها بعينين متسائلتين فزمجرت نحوه لتبقيه على مسافة آمنة.

دفع السيد أحد الجراء بقدمه نحوه فتذمر بشك قبل أن يؤكد له سيده أن كل شيء على ما يرام.

نظرت له كولي بغيرة من بين ذراعي أحد النساء وحذرته بزمجرة. واستلقى الجرو أمامه ناصباً أذنيه بينما يراقب بفضول. ثم مس أنفه لأنف الجرو وشعر بلسانه الصغير الدافئ على فكه فأخرج لسانه دون أن يعلم السبب ولعق وجه الصغير.

صفق البشر وصرخوا مرحاً بينما يشاهدون العرض ففوجئ ذو - الناب - الأبيض ونظر لهم بحيرة ثم بدا ضعفه واضحاً فاستلقى ناصباً أذنيه وأحنى رأسه يشاهد الجراء.

تقدمت الجراء نحوه مثيرة إزعاج كولي وسمح لها بالتدحرج والجلوس جانبه.

في البداية خانه شعور بالغرابة والوعي بذاته لكن الشعور زال حين استمر سلوك الجراء المرح فاستلقى متكاسلاً في الشمس وتعبير صبر يسكن عينيه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

(تمت بحمد الله وتوفيقه)

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..

عن الرواية..

الجزء الأول

- 1 -

مسار الفريسة

- 2 -

أنثى الذئب

- 3 -

صرخة الجوع

الجزء الثاني

- 1 -

معركة الأنياب

- 2 -

العرين

- 3 -

الجرو الرمادي

- 4 -

جدار العالم

- 5 -

قانون اللحم

الجزء الثالث

- 1 -

موقدو النار

- 2 -

العبودية

- 3 -

المنبوذ

- 4 -

طريق الآلهة

- 5 -

الميثاق

- 6 -

المجاعة

الجزء الرابع

- 1 -

عدو نوعه

- 2 -

الإله المجنون

- 3 -

عهد الكراهية

- 4 -

الموت المتشبث

- 5 -

الذي لا يقهر

- 6 -

السيد المُحب

الجزء الخامس

- 1 -

الرحلة الطويلة

- 2 -

المنطقة الجنوبية

- 3 -

ميدان الآلهة

- 4 -
نداء أبناء نوعه
- 5 -
الذئب النائم